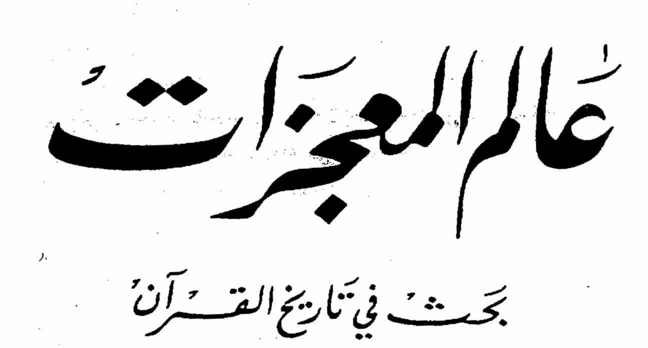
سلسلة الحقيقة الصعبة (٣)

أبو موسى الحريري



عالم المعجزات

بحث في تاريخ القرآن

الطبعة الثالثة

دار "لأجل المعرفة"
ديار عقل - لبنان
١٩٨٦

صدر عن دار " لاجل المعرفة" الكتب التالية :

أوّلا "سلسلة الحقيقة الصعبة" :

١"- أبو موسى الحريري ، قسّ ونبي ، بحث في نشأة الاسلام.
٢"- أبو موسى الحريري ، نبي الرحمة وقرآن المسلمين. بحث في مجتمع مكّة.
٣"- أبو موسى الحريري ، عالم المعجزات . بحث في تاريخ القرآن.
٤"- أبو موسى الحريري ، أعربيّ هو ؟! بحث في عروبة الاسلام.
٥"- أبو موسى الحريري ، العلويّون النّصيريّون. بحث في العقيدة والتاريخ .
٦"- أنور ياسين، وائل السيّد، بهاء الدين سيف الله، بين العقل والنبيّ. بحث في العقيدة الدرزيّة.
٧"- حمزة بن علي ، اسمعيل التميمي ، بهاء الدين السموقي ، رسائل الحكمة، كتاب الدروز المقدّس . تحقيق أنور ياسين.
٨"- حامد بن سيرين ، مصادر العقيدة الدرزيّة.
٩"- أنور ياسين ، السلوك الدّرزيّ.

ثانيا "سلسلة الاديان السرّيّة" :

١"- أنور ياسين ، ألعقيدة الدرزيّة.
٢"- أنور ياسين ، تعليم الدين الدرزي (بالفرنسية والعربية معا).
٣"- أنور ياسين ، النبي محمّد في العقيدة الدرزية (بالفرنسية والعربية معا).
٤"- أنور ياسين ، ألعجل والشّيصبان في العقيدة الدرزيّة (" ").
٥"- أنور ياسين ، رسالة درزية الى النصيريين (" ").

ديار عقل - لبنان
سنة ١٩٨٦

مقدمة

١ ـ كتابُ المسلمينَ المُقَدَّس :

مع القرآن أنتَ في قدس أقداس الاسلام والمسلمين ، انه كتابُ اللهِ المجيد [١] الكريم [٢] الحكيم [٣] العظيم [٤] المنير [٥] المبين [٦] . نزّله اللهُ على محمّد تنزيلاً [٧] ، وأنزله قرآناً عربيّاً [٨] غيرَ ذي عِوَجٍ [٩] ، لا ريبَ فيه [١٠] ولا اختلاف [١١] ، ولا ينطقُ عن الهوى [١٢] . انه هُدى للمتّقين [١٣] وبُشرَى للمؤمنين [١٤] ورحمةٌ للعالمين [١٥] . انه نورٌ من الله [١٦] وذكرٌ للعالمين [١٧] . انه "الحقُّ اليقين" [١٨] والقولُ

---

(١) القرآن، سورة ٥٠ آية ١، ٨٥/٢١ .
(٢) ٥٦/٧٧، ٢٧/٢٩ .
(٣) ٣٦/٢، ٣/٥٨، ١٠/١، ٣١/٢ .
(٤) ١٥/٨٧، ٣٨/٦٧، ٧٨/٢ .
(٥) ٣/١٨٤، ٣٥/٢٥ .
(٦) ١٥/١، ٢٧/١، ٣٦/٦٩، ٥/١٥ .
(٧) ٧٦/٢٣، ٣/٣، ٤/١٣٦، ٢٥/١، ٢/٢٣ و ٤٧، ١٥/٩، ١٦/ ٨٩، ١٧/١٠٦، ٢/٩٧، ١٦/٤٤، ٥٧/٩، ٤٧/٢ .
(٨) ١٢/٢، ٢٠/١١٣، ٣٩/٢٨، ٤١/٤٤، ٤٢/٧، ٤٣/٣ .
(٩) ٣٩/٢٨، ١٨/١ .
(١٠) ٣٢/٢ .
(١١) ٤/٨٢ .
(١٢) ٥٣/٣ .
(١٣) ٢/٢ و ١٨٥، ٤١/٤٤، ١٦/١٠٣ .
(١٤) ٢/٩٧، ٤٦/١٢، ١٦/١٠٣ .
(١٥) ١٠/٥٧، ٦/١٥٧، ٤١/٤٤ .
(١٦) ٦٤/٨، ٤/١٧٤، ٥/١٥، ٧/١٥٧، ٤٢/٥٢، ٦٤/٨ .

الفَصْلُ"(١٩)، لا يَمَسُّهُ الاّ المُطَهَّرون"(٢٠). وما هو بالنتيجة "الاّ وحيٌ يُوحَى"(٢١)، والذين "يُتلَى عليهم يَخِرّون للأذقانِ سُجَّدًا"(٢٢).

ألقرآن "هو الكتابُ المقدَّس للمسلمين... فيه أصولُ دينهم، وشرائعُ حياتهم، ونبعُ إلهامهم، ونبراسُ أخلاقهم، ونورُ هدايتهم في مختلَف شؤونهم الدينيةِ والدنيويّةِ، الروحيّةِ والمادّيّةِ، العامّةِ والخاصّةِ، السياسيةِ والقضائيةِ والاجتماعيةِ والشخصيةِ والانسانيّةِ..." وَصَفَهُ نبيُّهم بهذا الوصفِ الشاملِ الرائعِ المأثورِ عن طريقِ عليِّ بن أبي طالب...: "فيه نَبَأُ ما قبلكم، وخَبَرُ ما بعدكم، وحُكْمُ ما بَيْنَكم"(٢٣).

و"القرآن الكريم هو الكتابُ السماويُ الوحيدُ الذي ليسَ محلَّ شكٍّ وريبٍ من بين الكتبِ السماويةِ المتداولةِ في كونِهِ متّصِلاً بالنبي، وفي صدورِهِ عنه بحروفِهِ وألفاظِهِ وسُوَرِهِ بوحيٍ من الله"(٢٤). وهو "أعظمُ مظهرِ النبوّةِ النبيّ وأقوى آياتِها ودلائلها"(٢٥). "وقد تكرّر فيه توكيدُ اتصالِهِ بوحي الله، وصدورِهِ عنه، وعجزِ الناسِ عن الاتيانِ بمثلِهِ، معلِنًا ذلك على ملأٍ من خصومِهِ الألدّاءِ وجاحديهِ الأشدّاء"(٢٦). وبالاضافةِ إلى هذا

---

(١٧) ١٢/ ١٠٤، ٣٨/ ٨٦.
(١٨) ٦٩/ ٥١.
(١٩) ٨٦/ ١٣.
(٢٠) ٥٦/ ٧٩.
(٢١) ٥٣/ ٤.
(٢٢) ١٧/ ١٠٨.
(٢٣) محمّد عزّة دروزة، القرآن المجيد، ص ٥-١
(٢٤) نفس المرجع، ص ٧، انظر الآيات التي يدعم بها حجّته، وهي: ٦/ ١٩، ٤٦، ٥٠، ١٤/ ١، ١٨/ ١١٠.
(٢٥) نفس المرجع، ص ٨، الآيات: ٦/ ١٥٥-١٥٧، ٧/ ٢، ١٥/ ٨٧، ٢٩/ ٥٠-٥١.
(٢٦) نفس المرجع، ص ٨، الآيات: ٢/ ٢٣-٢٤، ٤/ ٨٢ و١٦٥، ١٧/ ٨٨، ٢٦/ ١٩٢-١٩٥.

فقد احتوى آياتٍ كثيرةً، فيها إعلانٌ بإشهاد الله على صحة هذه التوكيدات والتقريرات وتعظيمٌ لجرم الافتراء على الله"[٢٧]، منها قوله : "ومَنْ أظلم مِمَّن افترى على الله كذبًا، أو قال أوحيَ اليَّ ولم يُوحَ اليه شيء".[٢٨]

في ايمان المسلمين أيضا : "جاء القرآن خاتمًا لرسالات السماء، ومكمِّلا للكتب المنزلة من قبله، ومهيمنا عليها . وقد تميّز الى ذلك بميزةٍ كبرى هي أنّ الله سبحانه وتعالى تعهّد بحفظه، بينما وكِلَت الكتبُ الاخرى الى مَن أنزلتْ إليهم للاحتفاظ بها .

"ومن هنا فانّ القرآنَ هو الكتابُ الوحيدُ في العالَم كلِّه الذي حُفِظَ من التحريف... ولقد كان نزولُ القرآنِ على محمّدٍ صلعم، في تقدير الباحثين والمؤرّخين، "أعظمَ حادثٍ في تاريخ البشريّة".

" فلأوّل مرّةٍ - من بين الكتب السماوية الاخرى - يَظهَرُ على الارض كتابٌ ذو كلماتٍ وحروفٍ الهيّةٍ، لم يُكتَبْ سَطرًا من سطوره بَشرٌ، ولم يَخُطّ حَرفًا من حروفِه انسانٌ . وقد أعلنَ الكتابُ الألهيُّ إعلانًا لا مَحيصَ عنه انّه آخِرُ وحيٍ من السماء، وانّ رسالةَ السماء اكتملتْ به اكتمالَها الاخير، وان الدائرةَ الألهيّةَ التي هبطتْ منها الألواحُ والصُحُفُ والكتبُ الالهيّةُ الأخرى قد أُقفِلتْ نهائياً".[٢٩]

هذا القرآن هو معجزةُ المعجزات الألهيّة، بل هو، على حدّ قول ابن خلدون "أعظمُ المعجزات وأشرفُها وأوضحُها دلالةً".[٣٠] انه معجزةٌ في كل شيء : في ألفاظِه، وحروفِه، وآياتِه، وأسلوبِه، ولغتِه، ومعانيه، وتعاليمِه، وعلومِه، وشريعتِه، وتدوينِه، وحفظِه... "ولَئِن

(٢٧) نفس المرجع، ص ٩ .
(٢٨) ٦/ ٩٢-٩٣، أنظر : ١٦/ ١٠١-١٠٥، ٤٢/ ٢٤، ٤٦/ ٨، ٦٩/ ٤٣-٤٨ .
(٢٩) أنور الجندي، الاسلام والعالم المعاصر، ص ١٦٩-١٧٠ .
(٣٠) ابن خلدون، المقدمة، طبعة دار الكتاب اللبناني، ص ١٦٥ .

اجتمعت الانسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآن لا يأتونَ بمثلِه ولو كانَ بعضُهم لبعضٍ ظهيرا".[٣١] "وبرهانُ معجزتِه أنه كلُّه من عندِ الله: "ولو كانَ من عندِ غيرِ الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرا".[٣٢]

هذا الكتابُ هو "معجزةُ التاريخِ العربيِّ خاصّة، ثم هو بآثارِه النامية معجزةٌ أصليةٌ في تاريخِ العالَمِ كلِّه على بسيطِ هذه الأرض، من لَدُن ظهرَ الاسلامُ الى ما شاء الله...".[٣٣] و"القرآن... انما هو البابُ الذي خرجَ منه العقلُ الانسانيُّ المُستَرحِلُ، بعدَ ان قطعَ الدهرُ في طفولةٍ وشباب... (و) القرآنُ انما هو الدرجةُ الأبديةُ التي أجازَ عليها العالَمُ في انتقالِه من جهةٍ الى جهة".[٣٤]

القرآن "هو كتابُ السماء الى الأرضِ مستقرًا ومستودعًا، وقد جاء بالاعجازِ الابدي الذي يشهَدُ على الدهرِ، ويشهدُ الدهرُ عليه، فما مِن جهةٍ من الكلامِ وفنونِه الا وأنتَ واجدٌ اليها متوجّها فيه، وما من عصرٍ الا وهو مُقلِّبٌ صفحةً منه حتى لتنتهي الدنيا عندَ خاتمته فاذا هي خلاءٌ من الجِنّةِ والناس".[٣٥] وعند الدكتور الرافعي أيضا "ان القرآنَ كتابُ الدهرِ كلِّه، وكم للدهرِ من أدلّةٍ على هذه الحقيقةِ ما تبرحُ قائمةً".[٣٦] وأيضا، "القرآنُ كتابُ كلِ عصرٍ، وله في كلِ دهرٍ دليلٌ من الدهرِ على الاعجاز".[٣٧] وأخيرا، "لا يعلمُ الناسُ من ذلكَ الا أنه (القرآن) معجزةٌ من معجزاتِ التاريخِ العلمي في الارضِ لم يتّفقْ له في ذلك شبيهٌ من أولِ الدنيا الى اليوم، ولن يتفقَ".[٣٨] ومن ذلك أيضا، "هذا الكتابُ الكريم سَبَقَ العقلَ الانسانيَّ ومخترعاتِه بأربعةَ عشرَ قرنًا الى زمننا، وما ذاك الا فصلٌ من الدهرِ، وستعقبُه فصولٌ بعدَ فصولٍ".[٣٩]

---

(٣١) ١٧/ ٨٨ .

(٣٢) ٤/ ٨٢ .

(٣٣) الدكتور مصطفى الرافعي في اعجاز القرآن، ص ١١٤ .

(٣٤) نفس المرجع، ص ١١٥ـ١١٦ .

لقد "عُنيَ المسلمون بالقرآنِ من كلِ جانبٍ من جوانبِه، حتى كانَ هو الذي قامتْ حولَه ومن أجلِه كلُ العلومِ الدينيةِ والعربيةِ والكونيةِ، وغيرها ... فكان حقًا باعثَ النهضةِ العلميةِ بمفهومِها الواسعِ لأتباعِه".[٤٠]
بالقرآنِ ظهرَ فضلُ المسلمين على العالَمِ أجمع: "الحمدُ للهِ الذي فضَّلَنَا بالقرآنِ على الأممِ أجمعين، وآتَانَا بهِ ما لم يُؤتِ أحدًا من العالَمين".[٤١]

ولئن تحدَّى النبيّ بالقرآنِ كفّارَ قريشٍ ومشركي مكّةَ وجميعَ الجنِّ والأنسِ بأن يأتوا بسورةٍ من مثلِه، فانَ القرآنَ نفسَه أعطى المسلمينَ لأن يتحدّوا العالَمَ أجمع بجميعِ ما عندَهم من علومٍ وشرائعَ. هكذا "نَقَلَ جميعُ المسلمين هذا التحدّي الى جميعِ الامم، فظهَرَ عجزُها أيضا".[٤٢] وذلك لأنّنا نقعُ فيه "على ذخائرَ واسعةٍ من المعرفةِ تُعْجِزُ أكثرَ الناسِ ذكاءً، وأعظمَ الفلاسفةِ، وأقدرَ رجالِ السياسةِ".[٤٣]

ويكفي المسلمين فخرٌ أن يَنعَموا بكلامِ اللهِ يتجسَّدُ فيما بينهم، يحلُّ فيهم، ويُعطيهم السكينةَ والطمأنينةَ والسلامَ. ويكفي قارئَ القرآن أن يكونَ من الوحيِ والنبوّةِ على قيدِ شعرةٍ. والحقيقةُ تقال: "مَنْ قَرَأَهُ فَقَدِ اسْتَدْرَجَ النبوّةَ بينَ جنبَيهِ غيرَ انّه لا يُوحَى اليهِ".[٤٤]

---

(٣٥) هذه الجملة هي آخر المصحف، نفس المرجع، ص ٣٢ .
(٣٦) نفس المرجع، ص ١١٩ .
(٣٧) نفس المرجع، ص ١٥٤ .
(٣٨) نفس المرجع، ص ١٢٧ .
(٣٩) نفس المرجع، ص ١٣٠ .
(٤٠) الدكتور عبد المنعم النمر، علوم القرآن الكريم، ص ٣٣ .
(٤١) محمد بن عبد الله دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ٩ .
(٤٢) محمد رشيد رضا في مقدمة على "اعجاز القرآن" للرافعي، ص ١٧ .
(٤٣) لورا فيشيا فاغليري، دفاع عن الاسلام، ص ٥٨
(٤٤) عن اعجاز القرآن للدكتور الرافعي، ص ٩٦ .

٢ ـ صلة النبيّ بالقرآن :

لا يدَ لمحمدٍ في القرآن . ليسَ له أن يُبدِّلَ فيه شيئًا : "قلْ مَا يكونُ لي أنْ أُبدِّلَهُ من تلقاءِ نفسي ، أنْ أتّبعُ الاّ ما يُوحى اليّ".(٤٥) ، بل ليسَ له أيضا أن يتسرّعَ في تقبّلِ الوحي ، اللهُ هو الذي يضعُ لـه كلّ ما يشاء : "لا تُحرّكْ به لسانَكَ لِتعجلَ به ، انّ علينا جمعَه وقرآنَـه . فاذا قرأناه فاتّبعْ قرآنَه . ثم انّ علينا بيانَه".(٤٦) . لا يملكُ محمّدٌ ، ازاء القرآن ، أيَ أمرٍ من أمورِ الضمائر : "لا أملكُ لنفسي نفعًا ولا ضرًا الاّ ما شاء الله".(٤٧) ، و"قل : لا أقولُ لكم عندي خزائنُ الله ، ولا أعلمُ الغيبَ ، ولا أقولُ لكم انّي مَلَكٌ ، أنْ أتّبعُ الاّ ما يُوحَى اليّ".(٤٨) .

محمدٌ اذن "لا دخلَ له في الوحي ، فلا يَصوغُه بلفظِه ، ولا يُلقيه بكلامِه ، وانّما يُلقى اليه الخطابُ الفاً . فهو مخاطَبٌ لا متكلّمٌ ، حاكٍ ما يَسمَعُه لا معبّرٌ عن شيءٍ يجولُ في نفسه ... (ثم) انّ النبيَ لا يملكُ حتى حقَّ استخدامِ ذاكرتِه في حفظِ القرآنِ ، بل اللهُ يتكفّلُ بتحفيظِه اياه ... وهو يرى بنفسِه انه لا يملكُ من أمرِ نفسِه شيئًا ... انّه الوحيُ يَنزِلُ على محمّدٍ حين يشاءُ ربُّ محمّدٍ ، ويفتُرُ اذا شاء له ربُّ محمّدٍ الانقطاعَ ، فما تنفعُ التعاويذُ والاسجاعُ ، ولا تقدّمُ عواطفُ محمدٍ ولا تؤخّرُ في أمرِ السماء".(٤٩) .

"القرآنُ اذاً صريحٌ في أنّه لا صنعةَ فيه لمحمد ... ولا لأحدٍ مِنَ الخَلقِ ، وانما هو مُنزَلٌ من عندِ اللهِ بلفظِه ومعناه".(٥٠) والتعريفُ المتّفقُ عليه هو انّ "القرآنَ هو كلامُ الله تعالى ، المنزَلُ على محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم ، المتعبّدُ بتلاوته".(٥١)

---

(٤٥) ١٠/ ١٥ـ١٦ .
(٤٦) ٧٥/ ١٦ـ١٩ .
(٤٧) ٧/ ١١٨ .

وممّا يدلّ على أنّ القرآنَ كلّه من عندِ الله واقعُ محمّدٍ الأمّيِ الذي يجهَلُ الكتابةَ والقراءةَ. وأمّيةُ محمّدٍ من مُسَلّماتِ الاسلامِ والمسلمين. لهذا "كيفَ يمكنُ ان يكونَ هذا الكتابُ المعجزُ من عملِ محمّدٍ، وهو العربيُ الأمّي ! ؟ ... وعلى الرغمِ من أنَ أصحابَ البَلاغةِ والبيانِ الساحرِ كانوا غيرَ قلائلَ في بلادِ العربِ فانّ أحدًا لم يتمكّنْ من أن يأتي بأيّ أثرٍ يضاهي القرآنَ ... انّه ممتنعٌ على التقليدِ والمُحاكاةِ حتى في مادّتِهِ ..."(٥٢).

ومن هذا القبيل ايضا : "من أينَ لأمّيٍ كالنبيِ عليه السلام، أو متعلّمٍ مهما أُوتيَ مِنَ العلمِ ان يُؤَلّفَ ستةَ آلافِ آية بهذه الفصاحةِ والاتّساقِ ؟ انّ في ذلك لآيةً على انه من عندِ الله ... وقد ظهرَ القرآنُ على لسانِ أمّيٍ لم يَتَعَلّمِ القراءةَ والكتابةَ، فكيف يمرّ عليه أربعةَ عشرَ قرنًا تتغيّرُ فيه العقليّةُ البشريةُ ولا يظهَرُ فيه اختلافٌ ؟ بل نَرى الاصولَ التي أتى بها القرآنُ... تُناسِبُ مع كلِ زمانٍ ومكانٍ"(٥٣).

****

٣ـ اللّغَةُ العربيةُ في حِمى القرآن :

ألقرآنُ هو مصدرُ اللغةِ العربيةِ وحافِظُها، وهو الذي حَمَاها "لغةً مِن أنْ تذوبَ في لغاتٍ. وما نعرفُ شيئًا حَمى اللغةَ العربيةَ من الضياعِ ... غيرَ هذا الكتابِ الكريمِ. أُبعِدَتْ ما أُبعِدَتِ الشعوبُ العربيةُ عن الكلامِ

(٤٨) ٦/ ٥٠
(٤٩) الدكتور الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٣٠و٣٢و٣٨.
(٥٠) محمد دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ص ٢١.
(٥١) نفس المرجع، ص ١٤. انظر تفسير ذلك في الصفحات التالية.
(٥٢) لورا فيشيا فاغليري، دفاع عن الاسلام، ص ٥٦ـ٥٨.
(٥٣) عفيف عبد الفتاح طبّارة، روح الدين الاسلامي، ص ٤٢ و ٤٣.

بلغتِها العربية وكانَ هو مردَّها اليها ، كلما أوشكتْ أن تنفصِمَ صلتُها بها رَبطتَها هو بها . وهكذا عاشتِ الأمّةُ العربيةُ بعيدةً بكل ما في يَديها عن لغتِها قريبةً بهذا الكتابِ وحدَه الى لغتِها . وحينَ حَمى هذا الكتابُ اللغةَ لأهلِها حَمى هؤلاء من أنْ يتفرَّقوا أيدي سبأ ...».(٥٤) .

ثمّ انّ القرآنَ هو قاعدةُ اللغةِ العربيةِ وأصلُها والحَكَمُ عليها . وهي تَنتسِبُ اليه، وتحتمي به، وتُصان . وفي رأي الشيخ صبحي الصالح : « انّنا نجعلُ القرآنَ حَكَمًا على قواعدِ اللغةِ والنحو، ولا نجعلُ تلك القواعدَ حَكَمًا على القرآن».(٥٥) . وفي رأي الدكتور الرافعي ، ان القرآنَ « هو يدفعُ عن هذه اللغةِ العربيةِ النسيانَ الذي لا يُدْفَعُ عن شيء . وهذا وحدَه اعجاز... تُذْكَرُ بهِ اللغةُ ولا يُذْكَرُ هو بها . وبذلك يَحْفَظُها».(٥٦) .

ويبدو واضحًا للعيانِ وللتاريخِ أنَّ القرآن « هو الكتابُ الوحيدُ الذى احتفظَ بلغتِه الاصلية، وحفظَها على قيدِ الحياة، وسيحفظُها على مرّ الدهور . وستموتُ اللغاتُ الحيّةُ المنتشرةُ اليومَ في العالَمِ، كما ماتتْ قَبْلَها لغاتٌ حيّةٌ كثيرةٌ في سالفِ العصور، الاّ العربيةَ، فستبقى بمنجاةٍ من هذا الموت ، وستبقى حيّةً في كل زمان، مخالفةً لنواميسِ الطبيعةِ التي تَسري على سائرِ لغاتِ البشر، ولا غروَ فانّها متّصلةٌ بالمعجزةِ القرآنيّةِ الأبديّة».(٥٧) .

وبعد كل هذا ليس على اللغةِ العربيةِ، بعدَ القرآن، أنْ تخافَ على نفسِها من الموتِ والفناء ، حتى ولو فارقتِ الشفاهَ واللسانَ، لأنّ المتكلّمَ بها هو اللهُ . والكلامُ فيها هو كلامُ الله والملائكةِ وأهلِ الجنّةِ الناجين .

---

(٥٤) ابراهيم الابياري، تاريخ القرآن، ص ٤٥ .
(٥٥) الدكتور الشيخ صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٥٨ .
(٥٦) الدكتور مصطفى صادق الرافعي ، اعجاز القرآن، ص ١٤ .
(٥٧) أنور الجندى، الاسلام والدعوات الهدامة، ص ٢٦٩ .

ولو لم يكن القرآنُ حافظاً قواعدَها ، ورابطاً مراسيها ، وحامي ألسنةِ الناطقين بها ، لأصابَها ما أصابَ سواها من لغاتِ أهلِ الارض . كلّ لغاتِ العالَمِ يجري عليها قانونُ الموتِ والحياةِ ، ما عداها ، لانها تَعْلو على سنّةِ الموتِ بعدَ انْ أفسحتْ لها الحياةُ مجالَ الدهور . ومهما قرّر علمُ اللغةِ من تطوّرِ اللغاتِ في أَلْسِنَةِ البشر ، فانّ اللغةَ العربيةَ متنعمّةُ بالسؤددِ والمجدِ في كلامِ اللهِ السرمدي . فلا اللّهَجَاتُ ولا اللُّكَنَاتُ ولا التلحينُ والتصحيفُ والتحريفُ بجائزٍ على لغةِ اللهِ العليّ . وعلى الاستعمارِ ورجالِهِ أن يعرفوا حدودَهم وحدودَ عليهم عندما يواجهون لغةَ اللهِ وأهلِ الجنّة ، لاننّا أمامَ "معجزةٍ ثانيةٍ خالدةٍ بخلودِ" القرآن[٥٨] . وهكذا يكونَ القرآن "معجزًا في نفسه من حيثُ هو كلامٌ عربي"[٥٩] .

****

٤ـ العِلْمُ في القرآنِ ومِنَ القرآنِ :

كلُ ما في الارضِ من علومٍ مصدرُها ومرجعُها القرآن : "انّ ما يداولُه العالَمُ اليومَ من فلسفاتٍ وعلومٍ انّما هو من نتاجِ الفكرِ الاسلامي أصلاً ، وان القرآنَ كان بالحقِ هو "مصدرُ المصادر" في مناهجِ العلومِ التجريبيّة والاجتماعيةِ جميعا"[٦٠] . بل "ان القرآنَ (هو) بمثابةِ ندوةٍ علميّةٍ للعلماء ، ومعجَم لغةٍ للغويينّ ، وأجروميّةِ نَحْوٍ لِمَنْ أرادَ تقويمَ لِسَانَه ، وكتابِ عروضٍ لمحبِ الشعرِ ، وانسكلوبيديةٍ عامّةٍ للشرائعِ والقوانين"[٦١] .

---

(٥٨) ابراهيم الابياري ، تاريخ القرآن ، ص ٤٤ . انظر أيضا ٤٥ .
(٥٩) الدكتور مصطفى الرافعي ، اعجاز القرآن ، ص ١٥٧ .
(٦٠) أنور الجندى ، الاسلام على مشارف القرن الخامس عشر ، ص ٢٥٠ .
(٦١) أنور الجندى ، العالم الاسلامي والاستعمار ... ، ص ٣٢٦ .

هذا القرآن العظيم نجدُ فيه كلَّ "ما يؤيّدُ ويدعمُ مواضيعَ العلمِ الحديث : من تجزئةِ الذرة، وثنائيةِ المادة، والاشعةِ الكونية، وطبقاتِ الجوّ، والضغطِ الجوى، وتركيبِ الماء والهواء، ولغةِ الحشرات، وبصمات الاصابع، والكائنات المجهرية، وعدمِ فناء المادة، وغزو الفضاء، والذبذبات الصوتية، والنقْلِ البعيد، والرؤيةِ عن بُعْد (التلفزة)، الى غير ذلك من حقائق العلم الحديث".(٦٢) .

لقد تناولَ القرآن بالبحثِ كلَّ المعارفِ والعلومِ الممكنةِ "تناولاً شاملاً جامعًا مانعًا . لم يبقَ فيه للأجيالِ التي تلتْ نزولَه ما تزيدُه، ولم يُترَكْ للعلمِ وآلاتهِ أن يُضيفا شيئًا الى بيّناتهِ ... فسبقَ العلمَ ولم يَتْرُكْ زيادةً لمستزيد".(٦٣) . لهذا "نحنُ نقدرُ أن نقولَ، بكل ثقةٍ واعتزاز، أنّ جميعَ الامثالِ القرآنيةِ مؤيّدةٌ من العلمِ الحديثِ دون استثناء".(٦٤) .

بل قد نعجزُ عن احصاءِ علومِ القرآن أو أن نَستقصيَها جميعَها ، "وقد ذكَر الالوسي في تفسيره عن بعض السلف : أُنزلَ في هذا القرآن كلُّ علمٍ، وبُيّنَ لنا فيه كلُّ شيء . ولكنْ علمُنا يقصر عمّا يُبيّن لنا في القرآن . ونَقَلَ عن ابن عباس قولَه : "لَوْضاعَ لِي عِقالُ بَعِيرٍ لَوَجَدْتُهُ في كتابِ اللهِ تعالى" . وذَكَرَ أيضا : ان بعضَ العلماءِ استخرجَ من "الفاتحةِ" أسماءَ سلاطين آلِ عثمان وأحوالَهم ومدّةَ سلطانِهم الى ما شاء الله".(٦٥) .

وهكذا "ما من علمٍ الآ وقد نظَر أهلُه في القرآن، وأخذوا منه مادّةَ علمِهم، أو مادّةَ الحياةِ له".(٦٦) . وفي علمِ الرافعي "قد ألفَ بعضُ

---

(٦٢) يوسف مروّة، كتاب العلوم الطبيعية في القرآن، ص ٦٩ .
(٦٣) أحمد سليمان، القرآن والطب، ص ١٢٠-١٢١ .
(٦٤) الامام موسى الصدر، في مقدمة كتاب يوسف مروّة، "العلوم الطبيعية"، ٣٨ .
(٦٥) أحمد سليمان، القرآن والعلم، ص ١٦٩، نقلا عن "روح المعاني" .
(٦٦) الدكتور مصطفى الرافعي، اعجاز القرآن، ص ١٢٢ .

علماء القوم كتاباً سمّاه "تنبيه الأغنياء على قطرة من بحر علوم الاولياء". كانت هذه القطرة فيه زهاء ثلاثة آلاف علم. فترى ما عسى أن يكون البحر؟ اللهم ان السلامة في الساحل".(٦٧) وعند الرافعي أيضا ان في القرآن "اشارات وآيات بينات في مسائل ما برحت العلوم الطبيعية تحاول الكشف عن كنهما منذ عصور".(٦٨) كما يخلص الى القول: "ان هذه المخترعات والمستحدثات وما أدت اليه من أدلة ونظريات قد جاءتنا ببرهان جديد على اعجاز القرآن الذى ندين الله عليه، فقرت أعين المؤمنين، وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس".(٦٩)

"ولعل أهم الاسباب الداخلية لانحطاط المسلمين وتأخرهم في الوقت الحاضر هو انصرافهم ... عن تدارس ما في القرآن من كنوز العلم والمعرفة، والتي ما زالت بكرا حتى الآن".(٧٠) ونحن على يقين أن العالم الاسلامي، اذا ما عاد الى كلام الله يستشف منه العلم والمعرفة، سيلتحق بركب العلم وأهل العلم، لأن مصدر العلم في كتاب الله الذي بين أيديهم. وبهذا لن تعود أوروبا تتحكم برأسمال المسلمين، لئلا يلحق بكتاب الله من هذا التحكم شيء. وحاشا الله من المفسدين.

****

٥- في القرآن شريعة الخلود:

في اعتقاد المسلمين ان الشريعة الاسلامية هي آخر صورة لكل شريعة، وقد لا تلحق البشرية في نضجها ونموها الاخير مستوى شريعة الاسلام "التي

(٦٧) الرافعي، اعجاز القرآن، ص ١٢٦، حاشية (١).
(٦٨) نفس المرجع، ص ١٣١.
(٦٩) نفس المرجع، ص ١٣٣.
(٧٠) الدكتور داوود العطار، موجز علوم القرآن، ص ٧.

أرادَها اللهُ لمستقبلِ البشريةِ كلِّها، والتي وضعَها اللهُ على مستوى النضجِ للبشريةِ كلِّها، وصاغَها بحيثُ تشمَلُ كلَّ دقائقِ حياتِهم، وتسيرُ مع كل نموِّهم وتطوّرِهم حتى يرثَ اللهُ الأرضَ وما عليها ... وعالجَ الاسلامُ (هذه الشريعة) بحيثُ لا تخرجُ الحياةُ البشريّةُ في أيّةِ لحظةٍ من تطوّرِها عن مفاهيمِ الاسلامِ وتشريعاته".(٧١)

ان الاسلامَ، بنظرِ المسلمينَ المؤمنين، يناسِبُ كلَّ عصرٍ، فيما سائر الأديانِ تناسبُ عصرَها الذي وُجِدَتْ فيه. و"الاديانُ تختلفُ في تشريعاتِها لاختلافِ أحوالِ الأممِ الاجتماعيةِ ودرجةِ استعدادِها العقلي. ولقد اختتمَ اللهُ الأديانَ بالدينِ الاسلامي، وأعطى محمّداً شريعةً تَنسخُ ما قَبْلَها من الشرائعِ مظهِرًا فيها كنهَ الدينِ الحقّ. وهذه الشريعةُ توافقُ ما اقتضاه التطوّرُ العقلي للانسانِ وتصلحُ لكل زمانٍ ومكانٍ، وانّها الشريعةُ المقبولةُ عند الله، ولا يُقْبَلُ غيرُها".(٧٢)

ثم ان "الشريعةَ الاسلاميةَ هي شريعةُ الخلودِ والبقاء، لانّها جمعتْ بين حلقاتِ الزمنِ من دابرٍ وحاضرٍ فوضعتْ لكلِ عصرٍ وجيلٍ أحكامَه وطرائقَه، فكانتْ شريعةُ الاسلامِ خيرَ الشرائعِ وأمثلَ القوانين".(٧٣)

وهكذا "لما كان الاسلامُ خاتمَ الأديانِ كان من الضروري أن يأتي بشريعةٍ تختمُ كلَ الشرائع، ومن هنا كانتْ شريعةُ الاسلامِ صالحةً لكل زمانٍ لانّها شريعتُه، ولكلِ مجتمعٍ لانّها حياتُه الفاضلة المهذبة. وليس في الارضِ شريعة صالحةٌ كشريعةِ الاسلامِ، وما من مزيةٍ صالحةٍ في أيّ شرعٍ كان الآ والاسلامُ يَحويه على أكملِ وجه، لان شريعةَ الاسلامِ هي شريعةُ الله، وما شَرْعٌ أكملُ من شَرْعِ الله، ولا خيرٌ منه للانسانيةِ كلِّها".(٧٤)

(٧١) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ص ٢١–٢٢.
(٧٢) عفيف عبد الفتّاح طبّاره، روح الدين الاسلامي، ص ١٧.
(٧٣) عباس طه، السلطتان الدينية والدنيوية كما يراها الاسلام، في كتاب "الاسلام والانظمة السياسية"، دار الكاتب العربي، ص ٨١.

والسبب في ذلك هو ما "في شريعة الاسلام من المسايرة والمطاوعة واليسر والسعة والمرونة والكفاية لكل ما يشمل تطورات الحياة، ويحقق للناس سعادتهم أفرادا وجماعات في كل زمن وبيئة".(٧٥)

و"كذلك المبادئ والاصول الرئيسية للفقه والتشريع الاسلامي، فيها صفة الشمول والعموم لحياة الانسان في كل البيئات والعصور. وفي الوقت نفسه تتصف بالثبات والدوام، ولكن لا بمعنى الجمود والتحجر... وعليه يكون معنى صلاح الشريعة الاسلامية لكل زمان ومكان، ان مبادئها وأصولها الاساسية تصلح لان يتفرع عنها ويستخرج منها أحكام تنسجم وتتلاءم مع كل بيئة وعصر، وان الخير والصلاح لا يمكن وجوده، والبحث عنه خارج اطار مبادئ الشريعة الاسلامية وأصولها".(٧٦)

والعجيب الغريب حقا أن ترى بعض "الدول الاسلامية أو أكثرها تنقل قوانينها عن الغرب، وتهمل الشريعة الاسلامية، مع العلم أن أكثر القوانين الغربية منقولة — بطريق أو بآخر — عن الفقه الاسلامي. وعلى فرض استقلالها عنه، فان التشريع الاسلامي لا يدانيه أي دستور أو قانون".(٧٧)

ان الشريعة الاسلامية، أخيرا، بلغت الكمال والتمام في كل شيء؛ "لقد بلغت (مثلا) في تكريم المرأة وتأكيد حقوقها واستقلال شخصيتها ما لم يبلغه تشريع أجتماعي أو قانوني في القديم ولا في الحديث".(٧٨) و"ان الحضارة الاسلامية سبقت الاعلان العالمي لحقوق الانسان، حتى

---

(٧٤) أحمد عبد الغفور عطار، هل يفي الفقه الاسلامي بحاجات كل عصر؟ في كتاب "الاسلام والتحدى الحضارى"، دار الكاتب العربي، ص ١١٢.
(٧٥) محمود الشرقاوى، التطور روح الشريعة الاسلامية، ص ٧٠ و ٩١.
(٧٦) محمد جواد مغنية، الاسلام بنظرة عصرية، ص ٣٨–٣٩.
(٧٧) نفس المرجع، ص ٤٣.
(٧٨) الشيخ صبحى الصالح، الاسلام والمجتمع العصرى، ص ١٨٨ و ١٨٩.

جاء هذا الاعلانُ وكأنه مشتَقٌ من مبادئ الاسلام [٧٩]. كما أنه "ولا شكَ أيضا في ان الاسلامَ قد سبقَ الانظمةَ كلَها الى تحرير الرقيق [٨٠]. وبالعموم "إن التشريعَ الاسلامي لا يُدانيه أى دستورٍ في العالم [٨١].

****

٦ـ في القرآنِ حُلولٌ لكلِ مشاكلِ الكونِ والانسان :

في اعتقادِ المسلمين ان القرآنَ قدّمَ الحلولَ المناسِبَةَ والنهائيّةَ والجذريّةَ لكلِ مشاكلِ الانسانِ والعصرِ والمجتمع . بل ان "الاسلامَ هو نهايةُ الفكرِ الانساني . والانسانيةُ، بعد طُولِ حَيرَتِها حولَ المذاهبِ والدعواتِ والافكار، لن تجدَ حلاً لمشاكلِها الاجتماعيةِ والسياسيةِ والاقتصاديةِ الا في الاسلام [٨٢].

وفي القرآنِ أيضا "المنهجُ الذى يُعطي الجوابَ الصحيحَ عن كلِ مسألةٍ، ويَحكُمُ بالحقِ في كلِ مشكلة ... ألمنهجُ الذى لا مُنقِذَ غيرُه للناس ممّا هم فيه من شقوةٍ وعذابٍ وحَيرةٍ واضطراب [٨٣]. وفي كل أمرٍ من أمورِ الدنيا والناسِ تجدُ الحلَ لمعضلتِهِ في القرآنِ والاسلام : "لا حلَ الا بالاسلامِ الذى يُعَبِّدُ الطريقَ في كلِ شيء . ويكونُ بوسعِهِ ان يوفِّرَ لنا المخرجَ الى حدٍ بعيد [٨٤].

وفي القرآن أيضا " دينٌ جارَى التطوّرَ في كل زمانٍ ومكان ... ولم تقفْ أمامَهُ مشكلةٌ من المشكلات ... دينٌ لا زالتْ أصولُهُ ودعواتُه حلمُ البشريةِ بعدَما وصلتْ اليه من تطوّرٍ وتقدّمٍ وحضارة ... دينٌ وضَع أصولاً خالدةً لاصلاحِ جميعِ

(٧٩) أنور الجندى، الاسلام على مشارف القرن الخامس عشر، ص ٢٥٧ .
(٨٠) الشيخ صبحي الصالح ، الاسلام والمجتمع العصرى، ص ١٦١ .
(٨١) محمد جواد مغنية، الاسلام بنظرة عصرية، ص ٤٣ .

مجالاتِ الحياةِ... لم يقفِ الاسلامُ... حائلاً أمامَ أيّةِ مشكلةٍ من مشكلاتِ الحياة، في كل عصر وكل بيئة. بل وَجَدَ الحلولَ العادلةَ لكل ما جدَّ وما يُجدّ على سطحِ الأرض من جديد... حلّ جميعَ المصعباتِ وأبطلها، وكلَّ المشكلاتِ وأزالَها، وجميعَ العُقَدِ النفسيّةِ والروحيّةِ عند جميعِ النـــاس... قابلَ الاسلامُ آلافَ الدعواتِ والمبادئَ والأفكارَ الجديدة، ومع ذلك لـم تستطعْ أحداها أن تجاريَهُ في حيويتِه، وبساطتِه، ومثاليتِه، وعظَمِ مبادئِه وأصولِـه...»[٨٥].

كلُّ انسان، مهما كانتْ درجةُ وعيهِ ونضجهِ، والى أيّ معتقدٍ أو مذهبٍ أو ايمانٍ ينتمي، يجدُ في الاسلامِ «نظاماً من القيمِ الاخلاقيّـةِ والشرائعِ المدنيةِ التي تعطيه أجـوبـةً مـفـصّلـةً لما يعترضُــه مـــن مشــكلاتِ الحياةِ اليومــيّة»[٨٦]. و«لا ريبَ ان الدينَ الاسلامي خاتـم أديانِ العالمِ كفيـلٌ بكـلِ مـا يحـدثُ الى يـومِ القيامــة»[٨٧]. بل «منذ بزغَ فجرُ الاسلامِ الى اليوم... والى ما بعدِ اليوم لم يُقضَ أمـــرٌ من أمـــورِ هذا الكوكبِ دون أن يكونَ للاسلامِ فيه أثـرٌ...»[٨٨].

ونستطيعُ القولَ ان «أيّ استكشافٍ يصلُ اليه العقلُ البشري فهـــو انتصارٌ لدينِ محمد والقرآن. وأيّ عملٍ ينفعُ الناسَ بجهةٍ من الجهاتِ فهـو من هذا الدينِ في الصميم... وأيّ انسانٍ يَترُكُ أثراً مفيداً لأخيهِ الانســانِ

---

(٨٢) محمد فريد وجدى، المستقبل للاسلام، ص ١٢٦.
(٨٣) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ص ٣٢١.
(٨٤) الدكتور قهر الدين يونس، النظام الاقتصادى في الاسلام، في كتاب «الاسلام والمعضلات الاجتماعية الحديثة» ص ١٢٨.
(٨٥) الدكتور محمد خفاجي، الاسلام ونظريته الاقتصادية، ص ١١.
(٨٦) نعيم عطية، عن أنور الجندى، الاسلام على مشارف القرن الخامس عشر، ص ١٩٦.
(٨٧) محمد يوسف البنورى، موقف التشريع الاسلامي من الاجتهاد ومنصب العقل في الدين، في «الاسلام والتحدى الحضارى»، ص ٧٣.
(٨٨) أنور الجندى، الاسلام على مشارف القرن الخامس عشر، ص ٣.

فانه يلتقي بعمله هذا مع دين الله ...»(٨٩) .

وبالنتيجة، وبفضل القرآن، كانَ الاسلامُ «ثورةً لم تشهدْها الانسانيةُ من قبل ولا من بعد، واصلاحًا لم يكن يحلمُ به بشرٌ. ولا زلنا حتى اليوم لا نستطيعُ أن نصلَ الى مداهُ الكبير... ثم استمرّ في مدّهِ العظيم وانضوى تحتَ لوائه الملايين... مستبشرين بعهدِ الحريةِ والاخاءِ والتعاونِ والعدالةِ والمساواةِ والرفاهيةِ لبني البشرِ جميعًا، وعاملين على تأثيلِ حضارةٍ ومدنيةٍ جديدةٍ لم تشهدْها البشريةُ من قبل»(٩٠) .

وفي رأي الدكتور الشيخ صبحي الصالح «ان الاسلامَ ... أقوى عامل ثوري يُخرِجُ المجتمعَ العصري من الرتابةِ والجمود، بما يستطيعُ تقديمَه من الحلولِ في سبيلِ الاصلاحِ العالمي المنشود... وقد انطوتْ تعاليمُه الصريحة على مبادئَ واضحةٍ كفيلةٍ، اذا ما طُبّقتْ، بإحداثِ ثورةٍ شاملةٍ في ميادينِ الاجتماعِ والاقتصاد...»(٩١) . وكل ما في العالم من مذاهب معاصرة، «لقد سبقَ الاسلامُ هاتيك المذاهبَ في هذا المجالِ، بعدّة قرونٍ وأجيال»(٩٢) .

بل «ان كلَ الدلائلِ تشيرُ اشارةً حاسمةً الى قدرةِ الشريعةِ الاسلاميةِ على وضع ما سمّيتُه بالصياغةِ المرنةِ والحلولِ الذكيّة لكل ما يحتاجُ البشرُ اليه في يومنا هذا»(٩٣) . وبالعموم ان الاسلامَ هو «طريقُ حقيقةٍ وعقيدةٍ وشريعةٍ وحضارةٍ وعلمٍ وفلسفة»(٩٤) .

---

(٨٩) محمد جواد مغنية، الاسلام بنظرة عصرية، ص ١٣ــ١٤ .
(٩٠) الدكتور محمد خفاجي، الاسلام ونظريته الاقتصادية، ٩ــ١٠ .
(٩١) الدكتور الشيخ صبحي الصالح، الاسلام والمجتمع العصري، ص ٩و١٢ .
(٩٢) نفس المرجع، ص ٢١ .
(٩٣) نفس المرجع، ص ٢٤ .
(٩٤) حسن صعب، الاسلام تجاه تحديات الحياة العصرية، ص ٤١ .

٧ــ كلُّ الاطمئنانِ في القرآن :

"في الاسلام ــ وطبعا في القرآن ــ تجدُ الانسانيةُ القلقةُ طمأنينتَها وهدايتَها".(٩٥) هذه الطمأنينةُ هي نفسُها التي أنعمَ اللهُ بها على رسولِه. وهذا القرآن "ما جعلَه اللهُ الاّ بُشرى لكم ولتطمئنّ قلوبُكم به".(٩٦) ونحنُ بالقرآنِ، ومع الرسولِ، على سَكينةٍ من عندِ الربِ العلي: لقد "أنزلَ اللهُ سكينَتَه على رسولِه وعلى المؤمنين".(٩٧)

و"الطمأنينةُ خُلُقٌ من أخلاق القرآن الكريم، تحدّث عنها في أكثر من موطنٍ، فقالَ في سورةِ البقرة: "قال: أو لمْ تؤمن؟ قال: بلى. ولكن ليطمئنَّ قلبي".(٩٨) وقال في سورةِ الرعد: "الذينَ آمنوا وتطمئنُّ قلوبُهم بذكرِ الله، ألا بذكرِ اللهِ تطمئنُّ القلوب".(٩٩) وقال في سورة الفجر: يا أيّتها النفسُ المطمئنّةُ ارجعي الى ربكِ راضيةً مرضية".(١٠٠) .. الخ".(١٠١)

ثم ان "القرآن الكريم هو أصدقُ رائد الى هذا الايمان، وهو أقوى قاطع لذيل الشكِ والريبِ، ومن هنا جاء قولُ الله تبارك وتعالى: "الذين آمنوا وتطمئنُّ قلوبُهم ..."، لانَ هؤلاءِ اذا ذَكَروا ربَّهم، وقرأوا كلامَه وتدبّروا مغزاه، خشعتْ قلوبُهم واطمأنّت".(١٠٢)

وقد عبّرَ المسلمون المؤمنون عن هاتين الفضيلتين: الطمأنينة والسكينة خيرَ تعبير في جميعِ ما وضعوا من كتبٍ ومقالات، وفي جميعِ حياتهم الايمانية المستنيرة بالقرآنِ وسيرةِ النبي، لقد وجدُوا، في كتابِ الله، حلاً لكلِ مشكلة،

---

(٩٥) أحمد عبد الجواد الدومي، الاسلام منهاج وسلوك، صـ ٨ .
(٩٦) القرآن: ٣/ ١٢٦، انظر ٨/ ١٠ .
(٩٧) ٩/ ٢٦، ٤٨/ ٢٦، انظر: ٩/ ٤٠، ٤٨/ ٤ و ١٨ .
(٩٨) ٢/ ٢٦٠ .
(٩٩) ١٣/ ٢٨ .
(١٠٠) ٨٩/ ٢٧ .

ومنهجًا لكلِ علم، وشرْعًا لكلِ شريعة، ومرجعًا لكلِ معرفة، وأساسًا لكل خيرٍ وصلاح ، ونهجًا مستقيما لكلِ رأي، وقاعدةً متينةً لكل عقيدة، واستقامةً لكل صراطِ، وهدًى لكل شريد ، وموئلاً لكلِ تائه، ومحجةً بيضاءَ لكلِ ضال، وخلاصًا للعالمين .

ف" في الاسلام فقط يَجدُ العقلُ ما يوسعُ أفقَه ويرشدُه الى طريقه السويّة ... وفي الاسلام يَجدُ الفكرُ المشلولُ النورَ الباعث ... وفي الاسلام تجدُ العواطفُ المسعورةُ بالشهوة ما يهذِّبُ غرائزَها ويسمو بها الى المثالية الممكنة ... ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ..."(١٠٣) .

ليس بعد هذه الطمأنينة في قلب المسلم أو عقله أيُّ قلق أو تمزّق . فهو مطمئنُّ البالِ والنفسِ والعاطفةِ والفكر . انّه على يقينٍ من ربّه وايمانه بربّه، لان كتابَه هو "الحقّ اليقين"(١٠٤) . ولئن كان في قلبِ المسلم من قلقٍ فبسببِ بُعْدِه عن كتابِ الله : "ان أزمةَ القلق التي يعانيها المثقفُ المسلمُ اليومَ انّما تعودُ الى أصلٍ واحدٍ ومصدرٍ واحدٍ، وهو انّه تركَ مقوّماته الاساسية وقيَمه ... ولو انّه التقى بالفكرِ الاسلامي ... لما وقعَ في مثل هذا التمزّق أو هذه الازمة"(١٠٥) .

وعندما يكون "الاسلامُ كلّه حقائق"(١٠٦) ، وعندما يؤمنُ المسلم "انّ الاسلامَ صُنْعُ الله الذى أتقنَ كل شي"(١٠٧) ، لا بدّ ان يطمئنَ المسلمُ ويرتاحَ من البحثِ والتفتيشِ والمعاناةِ والتعبِ والتفكيرِ المضني والحياة الصاخبةِ والقلقِ على اللهِ والخوفِ من مصيره وسعادتِه ان كان من الصالحين .

---

(١٠١) الدكتور أحمد الشرباصي ، موسوعة أخلاق القرآن، فصل "الطمأنينة" الجزء الاول، ص ٧٩ .

(١٠٢) نفس المرجع ، ص ٨٠ .

(١٠٣) أحمد عبد الجواد الدومي ، الاسلام منهاج وسلوك ، ص ٨ .

(١٠٤) القرآن : ٦٩/ ٥١ .

(١٠٥) أنور الجندى، الاسلام والدعوات الهدّامة، ص ٢٨٣-٢٨٤ .

"فالمستقبلُ للاسلام وإنْ جهلَ ذلك الجاهلون، أو تجاهَله المتعصّبون"[(١٠٨)]. ولنفترض القرآنَ مجرّداً من كل قداسةٍ دينية، ثم لننظرْ اليه كمصدرٍ تاريخي بحت. فماذا نجد؟ نجد أنّنا لا نملكُ كتاباً آخر، ولا أثراً تاريخياً آخر في تاريخِ البشرية كلّها، توافرتْ له أسبابُ التحقيقِ العلمي البحتة، كما توافرت لهذا الكتاب[(١٠٩)]. ومجرّدُ افتراضِ القرآن كلاماً بشريّاً يوقعُ البشرَ في حيرةٍ واضطرابٍ ما بعدَه حيرة ولا اضطراب. من هنا ايمانُ المسلمينِ بطمأنينةِ النفسِ والقلبِ والعقل. وفي هذا يكمن سرُّ اعجازِ القرآن وسرُّ معجزته.

****

٨- القرآنُ معجزةُ المعجزات:

لا شكَ انّنا مع القرآنِ أمامَ معجزة، بل أمامَ معجزةِ المعجزات. ونحن في القرآنِ نمسكُ بالحقيقةِ كلِ الحقيقة، ونعرف الله بأسمائِه التسعة والتسعين، ونحصلُ على العلمِ والمعرفةِ كلِ العلم وكلِ المعرفة. وهل نعجبُ بعدُ من "معجزةِ المعجزات" ان احتوتْ على علومِ الدنيا والآخرة، واحتوتْ على أسرار علومِ الارضِ والسماء، وحملت في دفّتيها نُظُمَ علاقاتِ البشر مع بعضِهم بعضا؟

أليسَ من حق يوسف مروّة أن يجدَ "العلومَ الطبيعية في القرآن"[(١١٠)]؟ ومن حقِ أحمد محمود سليمان أن يرى بين "القرآن والعلم"[(١١١)] تلازماً،

---

(١٠٦) محمد الخضر حسين، المدينة الفاضلة في الاسلام، في كتاب "الاسلام والتحدّي الحضاري"، ص ٢٩.
(١٠٧) نفس المرجع، ص ٢٨.
(١٠٨) محمد فريد وجدي، المستقبل للاسلام، ص ٣٧.
(١٠٩) سيّد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص ٢٠٥.
(١١٠) بيروت، سنة ١٩٦٨، ٢٨٢ صفحة.
(١١١) دار العودة بيروت سنة ١٩٧٨، ١٧٤ ص.

وفي "القرآن والطبّ" علاجاً[(١١٢)] . أليسَ من حق مصطفى محمود أن يجد في "القرآنِ محاولةً لفهم عصري."[(١١٣)] ، ولمحمد فريد وجدي أن يرى "الاسلامَ في عصر العلم."[(١١٤)] والدكتور صابر طعيمة "الشريعةَ الاسلاميّة في عصر العلم."[(١١٥)] ؟ لم يتأخر القرآن لحظة عن التطوّر العلمي الحاصل والذى سيحصل في مستقبل البشرية، بل هو الذى وضع أسسَ العلم والمعرفة .

وهل من عَجَبٍ بعد اذا رأينا مع الدكتور الشيخ صبحي الصالح وفاقًا وارتباطا بين "الاسلام والمجتمع العصرى."[(١١٦)] ؟ ومع الدكتور رعفت الشرقاوى تحدّى "الفكر الديني (الاسلامي) في مواجهة العصر."[(١١٧)] ، ومع الدكتور مصطفى الرافعي حلولا مشتركة بين "الاسلام ومشكلات العصر."[(١١٨)] ، ومع أنور الجندى اتّفاقا بين "الاسلام والعالم المعاصر."[(١١٩)] ، ومع عشرة من علماء الاسلام قضاءً جذريا بين "الاسلام والمعضلات الاجتماعية الحديثة."[(١٢٠)] ، ومع الدكتور حسن صعب "الاسلام تجاه تحدّيات الحياة العصرية."[(١٢١)] ، ومع أبي الاعلى المودودى "الاسلام في مواجهة التحديات المعاصرة."[(١٢٢)] ، ومع وحيد الدين خان "الاسلام يتحدّى."[(١٢٣)] ، ومع عبد الكريم الخطيب الذى يجد "التعريفَ بالاسلام في مواجهة العصر الحديث وتحدّياته."[(١٢٤)] أحسنَ ما يمكن ان يكون لفهم الاسلام ، ومع عشرة علماء من المسلمين يوازون بين "الاسلام والتحدّى الحضارى."[(١٢٥)] ، فاذا بالاسلام ، عندهم ، يَعلو ولا يُعلى عليه ؟!!!

---

(١١٢) دار العودة بيروت (بدون تاريخ) ، ١٤٨ ص .
(١١٣) دار الشروق بيروت سنة ١٩٧٠، ٣٠٤ ص .
(١١٤) بيروت سنة ١٩٦٧، ٨١٦ ص .
(١١٥) دار الجيل، بيروت ١٩٧٩، ٢٣٢ ص .
(١١٦) دار الآداب بيروت، ١٩٧٧، ٢٧٢ ص .
(١١٧) بيروت سنة ١٩٧٩، ٤٦٤ ص .
(١١٨) دار الكتاب بيروت سنة ١٩٧٢، ٣١٤ ص .
(١١٩) دار الكتاب بيروت سنة ١٩٧٣، ٤٧٠ ص .
(١٢٠) دار الكاتب العربي ، بيروت (بدون تاريخ) ، ١٤٤ ص .

وكم هم الذين رأوا الاسلامَ يُعنَى بكلِ شيء في المجتمع العالمي المعاصر؟ فاذا الدكتور صابر طعيمة يوازن بين "الاسلام ومشكلات السياسة"(١٢٦) ، وعشرة علماء يرون بين "الاسلام والانظمة السياسية"(١٢٧) تفوّقَ النظامِ الاسلامي ، بل تفوّقَ "النظم الاسلامية"(١٢٨) التي يراها الدكتور صبحي الصالح شاملة لنظريات العالم السياسية . ولهذا يحق لنا ان نقول مع طه عبد الباقي سرور بـ"دولة القرآن"(١٢٩) ، ومع الدكتور محمد أحمد خلف الله أن نرى بين "القرآن والدولة"(١٣٠) صيغةَ الدولةِ الحقيقية التي جاء بها القرآن الكريم .

واذا أردتَ الموازنةَ بين "القانونِ الروماني والشريعة الاسلاميّة"(١٣١) كما جاء بها زهدي يكن ، فلا بدّ لك أن تقول مع الدكتور خليل الجرّ بأنّ الوحيَ الالهي هو وحدَه مصدرُ الفقهِ الاسلامي(١٣٢) . وقد رأى خمسةٌ من العلماء المختصين الجوابَ على سؤال "هل للقانون الرومي تأثير على الفقه الاسلامي"(١٣٣) . والنتيجة ان نرى مع رأفت شفيق شنبور ان "دستور الحكم والسلطة في القرآن والشرائع"(١٣٤) لا في أنظمة ماركس ولينين وغيرهما(١٣٥) .

---

(١٢١) دار الآداب بيروت سنة ١٩٦٥ ، ٢٠٠ ص.
(١٢٢) تراه في سلسلة كتب ابي الاعلى المودودي ،
(١٢٣) نفس المرجع .
(١٢٤) دار المعرفة ، بيروت سنة ١٩٧٥ ، ٣٢٨ ص.
(١٢٥) دار الكاتب العربي ، بيروت (بدون تاريخ) ، ١٤٤ ص.
(١٢٦) دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ٤٤٠ ص.
(١٢٧) دار الكاتب العربي ، بيروت ، (بدون تاريخ) ، ١٢٨ ص.
(١٢٨) دار العلم للملايين ، ط ٤ ، سنة ١٩٧٨ ، ٥٧٦ ص .
(١٢٩) القاهرة ، سنة ١٩٦١ ، ٢١٢ ص.
(١٣٠) المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط ٢ ، سنه ١٩٨١ ، ١٦٤ ص.
(١٣١) دار يكن للنشر ، بيروت ١٩٧٥ ، ١٨٤ ص.
(١٣٢) من مقدمة على كتاب المرجع السابق .
(١٣٣) من فهارس الشركة المتحدة للتوزيع .
(١٣٤) المكتبة العصرية ، بيروت (بدون تاريخ) ، ١٦٣ ص.

وعليه يكون "منهاج الاسلام في الحكم".(١٣٦) أكملَ ما يمكن أن يكون في هذا العالم المضطرب. وكيف لن يكون له ذلك وهو الذى اهتمّ بكل شاردة وواردة في أنظمة البشر ومشكلاتهم! اذ هو الذى يحدّدُ "النظامَ المالي" (١٣٧)، لان "المالَ في الاسلام".(١٣٨) هو عصبُ الحياة والدولة. وقد رأى الدكتور خفاجي في "الاسلام ونظريته الاقتصادية".(١٣٩) خيرَ نظرة في عالم الاقتصاد الذى بسببه يتقاتلُ البشرُ على خيراتِ الارض. وهذا ما يحدونا الى القول بان بين "الاسلام ومتطلباتِ التغيير الاجتماعي".(١٤٠) تفاعلاً ينتصرُ بنتيجتهِ الاسلامُ طبعًا.

ناهيك عن أن أحسنَ صورة لتنظيمِ الاسرةِ والمجتمعِ تراها في الاسلام، فمكانة المرأةِ في الاسلام".(١٤١)، كما قال محمد عطية أرفعُ مكانة، وعند أحمد زكي تفاحة تجد "المرأة والاسلام".(١٤٢) يتنفّسان هواءَ الحرّية. واذا ما كان "الطلاقُ في الاسلام".(١٤٣) جائزا فانّه، بنظر مولانا محمّد عليّ "أبغض الحلال عند الله"، على حدّ قول الرسول. ومع هذا في الاسلام "رَفْعُ الشقاقِ في أحكام الطلاق".(١٤٤) خيرُ الاحكام بنظرِ أحمد أمين الانطاكي.

---

(١٣٥) أنظر: مصطفى محمود، "الماركسية والاسلام"، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٧٥، ٢٨٢ص. وعبد العزيز البدري، "حكم الاسلام في الاشتراكية"، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ط٢، ١٩٦٥، ٢٧٢ص. وسيّد قطب، "معركة الاسلام والرأسمالية"، بيروت ط٣، ١٩٦٦، ١١٢ص.

(١٣٦) محمد أسد، دار العلم للملايين، ١٩٧٨، ١٩٢ص.

(١٣٧) الدكتور بابللي، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٥، ١٧٤ص.

(١٣٨) محمد مهدى الآصفي، المكتبة الاسلامية بيروت ١٩٧٣، ١٥٦ص.

(١٣٩) دار الكتاب اللبناني، سنة ١٩٧٣، ١٨٢ص.

(١٤٠) العلامة الكبير السيد محمد حسين الطباطبائي، دار الغدير ١٩٨٠.

(١٤١) القاهرة، (بدون تاريخ) ١٢٦ص.

(١٤٢) دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٩، ١٩٢ص.

(١٤٣) المكتبة العصرية، (بدون تاريخ) بيروت، ١٥٦ص.

(١٤٤) حلب، سنة ١٩٦٦، ٦٠ص... وعديدة هي الكتب التي تتكلّم على شأن المرأة ومكانتها واستقلاليتها وأحكام الطلاق والزواج في الاسلام والقرآن. وقد توقّفنا عند بعضها وليستهي أهمها...

ولئن كان "الزواجُ في الاسلام"[١٤٥] خيرَ عقدٍ فيما بين البشر، فانّك لَواجدٌ "انحرافَ المسلمين عنه"[١٤٦]، أو بعضِ المسلمين. لهذا لا بدّ لصلاح الامور من الرجوعِ الى القرآن لنجدَ "نظامَ الاسرة في الشرع الاسلامي"[١٤٧] وما يتضمّنهُ من أحوالِ المهر والمتعة والنَّسَب والبنوة والحضانة والنفقة... وما اليه أحسن نظام على وجه الارض.

واذا تخطّينا هذه الاحوال الشخصية فأنّنا نجد ان أضمن "الديموقراطية في الاسلام"[١٤٨]، وان القرآن يدعو الى "اسلام الحرية لا اسلام العبودية"[١٤٩] والى "العدالة الاجتماعية في الاسلام"[١٥٠] كخير عدالة في العالم. وانّنا نجد ان بين "الاسلام والتقدم الاجتماعي"[١٥١] تكاملاً، ولن نعودَ نرى بذلك أيةَ مشكلةٍ فيما بين "الاسلامِ والمعضلات الاجتماعية الحديثة"[١٥٢]. بل نجد "الانسانَ في القرآن الكريم"[١٥٣] في أجلى صورة له، وبين "القرآنِ وقضايا الانسان"[١٥٤] حلولاً جذرية. بهذا لن يكون بين "الاسلام ومكارم الاخلاق"[١٥٥]، أو بين "الاسلام والحضارة الانسانية"[١٥٦] الآ دعوةٌ متبادَلةٌ الى الخيرِ والسعادة.

وبعد كل هذا ألا يكون "الاسلام دعوة عالمية"[١٥٧] ؟ أو ألا يكون

---

(١٤٥) مجيد الصيمري، الدار الاسلامية، ١٩٧٩، ١٧٨ ص.
(١٤٦) عنوانٍ آخر للكتاب السابق.
(١٤٧) عمر فروخ، ط٢، سنة ١٩٧٤، المكتبة العصرية بيروت، ١٩٢ص.
(١٤٨) عباس محمود العقاد، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤، ١٧٨ ص.
(١٤٩) الدكتور حسن صعب، دار العلم للملايين ١٩٧٤، ١٤٤ ص.
(١٥٠) سيّد قطب، دار احياء الكتب العربية، ط ٥، ١٩٥٨، ٢٨٠ ص.
(١٥١) الدكتور صابر طعيمة، المكتبة العصرية ط٢، ١٩٧٣، ٣٤٤ ص.
(١٥٢) عشرة من علماء الاسلام، دار الكاتب العربي، ١٤٤ ص.
(١٥٣) الدكتورة عائشة بنت الشاطىء، دار العلم للملايين ١٩٧٢، ٤٤٨ ص.
(١٥٥) عشرة علماء من الاسلام، دار الكتاب العربي، ١٢٠ ص.
(١٥٦) عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٨٨ ص.

"المستقبل للاسلام"[(١٥٨)] ؟ علما بانّ الحضارةَ هي "حضارة الاسلام"[(١٥٩)]، و"الاسلامُ هو روح المدنية"[(١٦٠)] . والعالم كله مدين الى "روح الاسلام"[(١٦١)]، وكل ما في العالم لا شأن له ان لم يأخذ من "الفكر الاسلامي المعاصر"[(١٦٢)] حظَّه وغذاءه . والحقّ يقال لولا وجود "الفلسفة القرآنيّة"[(١٦٣)] أو بالحري "فلسفات اسلامية"[(١٦٤)] لما استطعنا ان نرى انتصارا للاسلام عندما تحصل بين "الاسلام وشبهات الاستعمار"[(١٦٥)] مواجهة ومشادّة، أو عندما يتعرّض "الاسلام والدعوات الهدّامة"[(١٦٦)] الى مجابهة وصراع . ويوم يحصل ذلك الصراعُ بين الاسلام والعلمانيّة مثلا، لا بدّ من "سقوط العلمانيّة"[(١٦٧)] لا محالة . بهذا يتفاعل "الاسلام وحركة التاريخ"[(١٦٨)] ليستمرّ "الاسلامُ في القرن العشرين"[(١٦٩)]، أو ليطلّ "الاسلام على مشارف القرن الخامس عشر"[(١٧٠)] ويتعدّاه .

والفضل في وثبة الاسلام هذه نحو المستقبل يعود الى "الشخصيّة الاسلامية"[(١٧١)] الفذّة، والى "أسلوب الدعوة في القرآن"[(١٧٢)].

---

(١٥٧) عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية، بيروت، ٢١٦ ص.
(١٥٨) محمد فريد وجدى، دار الكاتب العربي، بيروت، ١٢٤ ص.
(١٥٩) صلاح الدين خواد بخش، دار الثقافة بيروت ١٩٧١، ١٩٦ ص.
(١٦٠) الشيخ مصطفى الغلاييني، المكتبة العصرية، بيروت ٢٨٠ ص.
(١٦١) عفيف عبد الفتاح طباره، "روح الدين الاسلامي" دار العلم للملايين ... سيد أمير علي، دار العلم للملايين ط٤، ١٩٧٧، ٤٤٨ ص.
(١٦٢) غازى التوبة، دار القلم بيروت، ط٣، ١٩٧٧، ٢٢٤ ص.
(١٦٣) عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٢ ص.
(١٦٤) محمد جواد مغنية، دار التعارف بيروت ١٩٧٨، ٦٦٨ ص.
(١٦٥) السيد أمير محمد الكاظمي القزويني، التوجيه الاسلامي كويت، ١١٦ ص.
(١٦٦) أنور الجندى، الموسوعة الاسلامية العربية ٣، ١٩٧٤، ٢٩٦ ص.
(١٦٧) أنور الجندى، الموسوعة الاسلامية العربية ٢، ١٩٧٣، ٢٠٠ ص.
(١٦٨) أنور الجندى، رقم ٥ من الموسوعة العربية الاسلامية، ١٩٨٠، ٥٠٦ .
(١٦٩) عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية بيروت، ١٤٤ ص.
(١٧٠) أنور الجندى، الموسوعة العربية الاسلامية، رقم ١، ٣٤٤ ص.
(١٧١) الدكتورة عائشة بنت الشاطئ، دار العلم للملايين، ط٢، ١٩٧٧ ...
(١٧٢) محمد حسين فضل الله، دار الزهراء، بيروت ط٣، ١٩٧٩، ١٧٦ ص.

والحظ الاكبر لانتشار الدعوة الى "الجهاد الاكبر."(١٧٣) لان "الجهاد في سبيل الله."(١٧٤) هو "... أعلى مراحل تطور الكفاح ..."(١٧٥) . بهذا يكون أعظم "دفاع عن الاسلام."(١٧٦) .

وهل لك بعد أن تسأل : "كيف انتشر الاسلام."(١٧٧) ؟ أو كيف "الطريق الى الاسلام."(١٧٨) ؟ أو متى يكون "الاسلام في فجر عظمته"(١٧٩) ؟ ليس لك، بعد هذا كله، الا أن تعلن وتقول: "الاسلام رائد."(١٨٠) ، مع السعي الحثيث "نحو اسلام سليم."(١٨١) . وعليك أن تقول، كما قال أرخميدس، لقد وجدتُ "هذا الدين."(١٨٢) وجدتُ فيه "الادلة المطمئنة."(١٨٣) . لقد وجدتُ "التوازن في الاسلام."(١٨٤)، ووجدتُ "العقلَ والايمان في الاسلام."(١٨٥) . بهذا أفهم "ماذا يعني انتمائي للاسلام."(١٨٦) .

****

---

(١٧٣) الامام الخميني، الدار الاسلامية، بيروت، ٨٢ ص.
(١٧٤) أبو الاعلى المودودي، مؤسسة الرسالة، ٥٦ ص.
(١٧٥) جلال الدين فارسي، بدون دار نشر، ١٩٧٨، ص ١٤٧ .
(١٧٦) لورا فيشيا فاغلي، دار العلم للملايين، ط ٤، ١٩٧٩، ١٣٥ ص.
(١٧٧) مؤيد الكيلاني، دار الكاتب العربي، ٢٨٨ ص.
(١٧٨) محمد أسد، دار العلم للملايين، ط ٥، ١٩٧٧، ٤٠٨ ص.
(١٧٩) موريس لومبار، ترجمة حسين العودات، دمشق ١٩٧٩، ٢٨٠ ص.
(١٨٠) عبدالله كنون، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٩، ١١٢ ص.
(١٨١) الشيخ أحمد مغنية، المكتبة الادبية، ١٩٨٠، ٢٧٢ ص.
(١٨٢) سيد قطب، مكتبة وهبه، عبدين، ط ٤، بدون تاريخ، ٩٦ ص.
(١٨٣) الشيخ عبدالله مصطفى العريس، مكتبة الحياة ١٩٨٠، ١٦٠ ص.
(١٨٤) محمد علي التسخيري، الدار الاسلامية، ١٩٧٩، ١٧٠ ص.
(١٨٥) الدكتور صابر طعيمة، دار الجيل، ١٩٧٩، ١٩٠ ص.
(١٨٦) فتحي يكن، مؤسسة الرسالة، ١٨٤ ص.

٩ ـ هـذا الكتـاب :

بعدَ هذا الفيضِ من فيضِ الكتبِ الاسلاميةِ الحديثةِ الرائجةِ في أسواقِ العلم والدين ، والباحثةِ في القرآن الكريم ، والمطمئنّةِ الى تعاليمه ووحيه الالهي ، والمعبّرةِ عن ايمانِ المسلمين الطيّبين ، والطريفةِ كل الطرافةِ بمواضيعها وأسلوبها ويقينها ، والكافلةِ سعادةَ الناسِ في الدنيا والآخرة ، والمتّفقةِ الاساليب والاهداف فيما بينها ، والمتعلّقةِ بكلام الله الذي استمرّ يتساقط على الرسول طيلة ثلاث وعشرين سنة ، والمستريحةِ في أحضان جبريل ساعي البريدِ النبويّ الأمين ، والمرتاحةِ الى عصمةِ كَتَبَةِ الوحي وحفّاظِه المرضيين ، والكثيرةِ الاطمئنانِ والارتياح الى تحطيمِ الشكّ باليقين ، والعظيمةِ التأكيد في كل معتقدٍ وتشريعٍ وتعليم ، المزحزحةِ الحيرةِ والقلقِ والريبة عن عقول العالمين ...

بعد هذا كلّهِ لا بدّ من الاستراحة . الاستراحةِ في أحضانِ الاسلام ، في الايمانِ الذى لا يدخُلَهُ شكّ ، وفي اليقينِ الذى لا يخامِرُه أيّ ظنٍّ ، و " انّ الظنَّ لا يُغني من الحقِّ شيئًا " (١٨٧) ، بل انّ " الظانّين باللهِ ظنَّ السوْ عليهم دائرةُ السوْ " (١٨٨) . هذا اليقينُ هو من كتابِ الله " الحقّ اليقين " (١٨٩) ، الذى فيه عصمةُ الله وأنبيائِه المرسلين ، والذى يضمنُ للانسانِ العلمَ والمعرفةَ والحظَّ السعيد . أيُّ حظٍّ هو للمسلمِ المؤمنِ الذى أنعمَ اللهُ عليه بعَضلاتٍ بها يَربطُ الأرضَ المائجةَ بعُمُدِ السماء ، ويُغرِزُ للجبالِ في الارضِ أوتادًا (١٩٠) وينحتُ في صخورِها بيوتًا (١٩١)

---

(١٨٧) القرآن : ١٠/ ٣٦ ، ٥٣/ ٢٨ .
(١٨٨) ٤٨/ ٦ .
(١٨٩) ٥٦/ ٩٥ ، ٦٩/ ٥١ .
(١٩٠) ٧٨/ ٢٠ .
(١٩١) ٧/ ٧٤ ، ١٥/ ٨٢ ، ١٦/ ٨١ .

مرجعنا في هذا اليقين الى الله، الذى أرسل جبريلَ يَسعى بينه وبين النبيّ ينزّلُ عليه القرآنَ من "اللوحِ المحفوظ"[١٩٢] في "الأفقِ الاعلى"[١٩٣]، ويقرأه له، ويعلّمه اياه. ولم يترك لنا، لا الرسولُ الالهي ولا النبيُّ الرسول، آيةً بغيرِ ترتيب، أو حرفًا بدون عصمة، أو كلمةً تحتاجُ الى تأويل. ولم يعرفْ جبريلُ راحةً بَعْدُ، بل لم يذقْ طعمَ الراحةِ حتى انتهى من عملهِ الشاقِ في جَمْعِ القرآن وحفظِهِ وبيانِه، وقد طمأننا على لسانِ الله عزّ وجلّ بقوله: "إنّا علينا جمعَه، وقرآنه ... ثم انّ علينا بيانَه"[١٩٤].

ثم أكملَ الملاكُ الرسولُ السعيَ الحثيثَ فيما بينَ الله والنبي: فكما كانَ مسؤولا عن تنزيلِ الوحيِ والقرآن، فسيظلّ هكذا أيضًا مسؤولاً عن حفظِهِ وتدوينِهِ وتسليمِهِ الى العَالَمِ بدونِ عِوَجٍ فيهِ أو اختلاف. جاءَ على لسانِ الله سبحانه: "إنّا نزّلنا الذكرَ. وإنّا له لَحافِظون"[١٩٥]. من أجلِ ذلك لن تجدَ في القرآنِ الآ الطمأنينةَ واليقينَ، ولن تجدَ فيه أيَّ محلٍّ للزيادةِ أو للنقصانِ أو للتلحينِ أو للتصحيفِ أو للتحريفِ أو ما أشبه ذلك.

واستمرَّ جبريلُ في مهمّتِهِ. فبعدَ ان طارتْ نفسُ النبي الى ربّها مطمئنّةً، ضاعفَ ملاكُ الوحيِ نشاطَه، فحفظَ كَتَبَةَ القرآنِ من أميالِ الهوى، وحفظَ سُوَرَهُ وآياتِهِ من التّلَفِ والضياعِ، وحفظَ حفّاظَه من النسيانِ، وحفظَ وَسَائِلَ الكتابةِ من الجلودِ والاكتافِ والعِظامِ والاخشابِ من الحريقِ، وعَصَمَ القلمَ من نَزَقِ أصحابِهِ واختلافاتِهم السياسيّة ... وفوقَ كلِ هذا، ما يزالُ جبريلُ الى اليوم قيّماً على رسالةِ السماءِ ومترصّدًا لكلِ من يُخامِرُه ظَنٌ أو شَكٌ في كلامِ الله. انها معجزةٌ مستمرّةٌ ألقاها اللهُ بين يَدَيهِ وفي عُنُقِهِ.

---

(١٩٢) ٨٥/٢٢.

(١٩٣) ٥٣/٧، انظر: ٨١/٢٣.

(١٩٤) ٧٥/١٧–١٩.

(١٩٥) ١٥/٩.

١٠ — هل لغيرِ اللهِ في القرآن نصيب؟

ألقرآن معجزة. وأيّةُ معجزة! ؟ في كلِ شيء هو معجزة. ولن نقف، في هذا البحث، الاّ عندَ معجزةِ نشأتهِ وتدوينهِ وحفظهِ. وما عدا ذلك يدخلُ في نطاقِ معجزاتِ النبوّةِ والعقيدةِ، ولا شأنَ لنا بها الآن؛ لأنّ كلَ ما في الدنيا من خيرٍ وصلاحٍ وعلمٍ وقوانينَ هو، في القرآنِ والاسلامِ، على أتمّه. وكلّما في الكونِ من فضيلةٍ لا يصلُ الى عشرِ معْشارِ فضيلةٍ من فضائلِ القرآن.

وفيما نحنُ نرى اللهَ وراءَ القرآن، يستحثّنا القرآنُ نفسُه لرؤيةِ غيرِ الله. وفيما يدعونا المسلمون الى سؤالِ اللهِ عن عصمةِ كتابِه، والاكتفاءِ بشهادتِه، والاتّكالِ عليه، يدعونا القرآنُ نفسُه الى سؤالِ أهلِ الذكرِ، والاحتكامِ اليهم، والاستشهادِ بهم. ففي قولِ القرآنِ للمسلمين: "أسألوا أهلَ الذكرِ إنْ كنتم لا تعلمون"(١٩٦) عبرةٌ خطيرةٌ للغاية! وأخطرُ منها حثُّ القرآنِ لمحمّد نفسِهِ الى سؤالِ أهلِ الكتابِ والالتجاءِ اليهم ليرفعَ عن نفسِه الشكَّ والريبة. يقول له: "إن كنتَ في شكٍّ ممّا أنزلْنا اليكَ فاسألِ الذينَ يَقرأون الكتابَ مِن قَبْلِكَ"(١٩٧).

ويبدو أنّ محمّدًا كان يعرفُ تمامَ المعرفةِ بأنّ الذينَ يَشهَدونَ على صحّةِ رسالتهِ هم أهلُ الكتاب. وكان يكتفي بشهادتِهم لأقناعِ تابعيه. يقول: "قل: كفى باللهِ شهيدًا بيني وبينَكم ومَنْ عِندَهُ علمُ الكتاب"(١٩٨). وأخطرُ من كلِ شيءٍ آخر احتكامُ محمّدٍ الى أهلِ الانجيل، لأنهم يَحْكمون بما لديهم على ما في القرآن: "وَلْيَحْكُمْ أهلُ الانجيلِ بما أنزلَ اللهُ فيه" (أي في القرآن)(١٩٩). فهل لأهلِ الانجيلِ حقٌّ يستحقونه؟

---

(١٩٦) ١٦/٤٣، ٢١/٧.
(١٩٧) ١٠/١٠.
(١٩٨) ١٣/٤٣.
(١٩٩) ٥/٤٧.

اننا اذا كنّا نتجرأُ على مثلِ هذا السؤالِ فلأنّ القرآنَ يدعونا اليه . ولكنّ وراءَ هذا السؤالِ سَيْلاً من الاسئلة، وهي تصدرُ عنه وتتفرّعُ منه . وليستْ دونَه أهميّةً وخطورة . مَنْ هم "أهلُ الذكر"، و"أهلُ الكتاب"، و "أهلُ الانجيل"؟ مَنْ هم الذين "يقرأون الكتابَ مِن قَبْلِ" محمد ؟ وهل للقرآنِ مصدرٌ غيرُ الله ؟ وهل تمّ نَقْلُ القرآنِ على يدٍ غيرِ يدِ الله ؟ وهل هذا يَعني أنّ "حِفْظَ" القرآنِ، و"جَمْعَهُ"، و"قِرَاءَتَهُ"، و "بَيَانَهُ"، وتدوينَهُ، وانتشارَهُ، واستمرارَهُ تمّتْ على يدِ جبريلٍ بشريٍّ اختلسَ دورَ جبريلَ الالهي ؟

انّها أسئلةٌ تطالُ حَرَمَ القرآنِ وقدْسَ أقداسِ المسلمين . ولكنْ، قبلَ الدخولِ في مَتَاهَاتِها والغوصِ فيها، لا بدّ من طرحِ أسئلةٍ أخرى تخطرُ على البال، وهي أيضا من وحيِ سَمَاحَةِ القرآنِ وَسَعَةِ صَدْرِه :

أين أنزلَ جبريلُ القرآن؟ ومتى ؟ وكيف ؟ وعلى مَنْ أنزلَه؟ وأينَ كان قبلَ تنزيلِهِ ؟ وأينَ كُتِبَ؟ وعلى أيّ لوحٍ لؤلؤيٍّ دُوِّنَ كلامُ الله ؟ ولِمَنْ أعطى شرفَ حفظِهِ وكتابتِهِ وتدوينِهِ ؟ ثم هل استطاعَ "النبيُّ الاميّ" الذي يجهلُ القرآءَةَ والكتابةَ حفظَه كلَّه؟ هل عُصِمَ مِن آفةِ النسيان؟ هل وَجَدَ محمّدٌ لكلِ الآياتِ الازليّةِ مناسباتٍ في التاريخ ؟ هل عُصِمَ كَتَبَةُ الوحيِ أيضا من أهوائِهم لِيدوّنُوا بموضوعيّةٍ كلَّ آياتِ القرآن؟ هل نُزِعُوا كلُّهم من أنانيّتِهم وأميالِهم السياسيّة؟ هل كانوا فيما دَوّنُوا على اتّفاقٍ وعصمة؟؟ لئنْ كانَ كذلك — وهم بنظرِ المسلمين كذلك — فهم، واللهِ، أكثرُ عصمةً مِنَ الرسولِ نفسِه . وبتُّ لا أعرفُكمْ باركَ اللهُ هذه الأمّةَ لكي يكونَ فيها أكثرُ من خمسةٍ وأربعينَ رجلاً يتمتّعونَ بالتجرّدِ والصدقِ والامانةِ والايمانِ والتسامي والعصمةِ والشرفِ المجيد (٢٠٠) .

---

(٢٠٠) أنظر في عدد كتبة الوحي : الاستيعاب ١/ ٣٠، وكتاب الوزراء والكتّاب ١٢، والعقد الفريد ٤/ ٢٤٦، وحاشية على الاصابة الخ...

ثم بعد ، هل لمكّةَ في القرآنِ يد ؟ أم للمدينةِ يد ؟ وهل كانت البلدان على اتّفاق ؟ أم بينَ مكةَ والمدينةِ جرى تزويرٌ وتحريفٌ وتصحيف ؟ هل كان أبو بكر الصديق وعمرُ بن الخطّاب وعثمانُ بن عفّان وعليّ بن أبي طالب على اتّفاقٍ وصراطٍ قويمٍ حتى يُجمِعُوا على وَحْدَةِ كلامِ اللهِ ويختلفوا في ما عدا ذلك ؟ وهل كانت أمّهاتُ المؤمنين ، حَفْصَةُ وعائشةُ وأمُّ سَلَمَة ، على شيءٍ من الاتّفاقِ حتى لا يَخْتَلِفْنَ في روايةِ القرآن ؟ هل كانَ القرآنُ واحِدًا ، واستمرَّ واحِدًا ، ووَصَلَ الينا واحدًا موحَّدًا ؟ فما دورُ مصاحفِ الصحابةِ اذن ؟ لماذا كانَ لعليّ مُصْحَف ؟ ولابنِ مسعود مصحف ؟ ولأُبَيّ ابن كَعْب مصحف ؟ ولسالمٍ مَوْلَى حُذَيْفَة مصحف ؟ ولابنِ العبّاس مصحف ؟ ولزَيْدِ بن ثابت مصحف ؟ ولعائشة مصحف ؟ ولحَفْصَة مصحف ؟ ولأبي موسى الأشعريِ مصحف ؟ ... ولماذا قرّر أبو بكر جَمْعَ المصاحف ؟ ولماذا اختارَ مصحفَ زيدِ بن ثابت ؟ ولماذا جَمَعَ عثمانُ المصاحف ؟ ولماذا اختارَ مصْحَفَ أبي بكر ؟ ولماذا أحرقَ سائرَ المصاحف ؟ وفيها كلّها صورةُ المُعَلِّمِ المحبوبِ وكلامُ اللهِ الذى لا عِوَجٍ فيه ولا اختلاف ، وقد أقسَمَ اللهُ بـ "إنّا لَهُ لَحَافِظون" ؟ ؟ ؟

وحدَه القرآنِ بقيَ لنا من عهدِ النبي ، وما كتَبَهُ المُحَدِّثون وأصحابُ السِيَرِ والأخبارِ كتَبُوهُ بعدَ مضيِ أكثرَ من مائةٍ وخمسةٍ وسبعينَ عامًا على موتِ محمّد ، فهل يصدقونَ القولَ فيما كتبوا ؟ هل كان لهم مصادرُ ومراجعُ من أيّامِ النبي والصحابة ؟ أينَ هي ؟ لماذا أُتْلِفَتْ ؟ ولماذا لم تَبْقَ ؟ والمعروفُ أنّها دُوِّنَتْ – بحسبِ رواياتِ أهلِ الأخبارِ – على ألواحٍ من حجارةٍ وأكتافٍ من العظامِ ، وأخشابٍ من النخيلِ ، تَعْصَى على عواملِ الطبيعة ! فهل نَقَلَ أهلُ الأخبارِ ما نَقَلُوا بصدقٍ وأمانةٍ وروحٍ علميّةٍ رصينة ؟ من الصعبِ ذلك ، بعدَ هذه المدّةِ من الزمن ! والخلافُ فيما بينهم دليل .

ثم أيضا ، ألم تترك الفتوحاتُ العربيةُ أيَّ أثرٍ في كلامِ الله ؟ ألَمْ

يُضَفْ الى كلامِ القرآنِ كلامُ بشريٍّ يُناسبُ الوضعَ السياسي المستجَدّ ؟ أبَقِيَ نصارى الشامِ والعراقِ، مَثلًا، مع الفاتحينَ كما كانَ نصارى مكّةَ مع محمّد ؟ أيُعْقَلُ أن يكونَ نصارى "سورةِ التوبة" هم أنفسُهم نصارى "سورةِ المائدة"؟ أيُعْقَلُ أن يكونَ رهبانُ "التوبةِ" "يأكلونَ أموالَ الناس بالباطل"[٢٠١] ورهبانُ "المائدةِ" "لا يستكبرون"[٢٠٢]؟ وقل الشيءَ نفسَه عن أهلِ الكتابِ بالعموم، وعن الصابئةِ والمجوسِ واليهود، وانظرْ ما كانوا عليه أيّامَ محمّد وما أصبحوا عليه عهدَ الفتوحاتِ والغزوات...

كلُّها أسئلةٌ تخطرُ على البال. وغيرُها سيُطْرَحُ في مجالِ البحث. وسببُ طَرحِها اليومَ هو ذلك الاطمئنانُ المتحكِّمُ بعقولِ "القرآنيين" الذينَ احتجزوا اللهَ في هيكلٍ، لا من حجارةٍ هذه المرّة، بل من وَرَق. هؤلاء الذين قَعَدُوا عن البحث، واعتصمُوا بحَبْلِ الله، واستكنّوا في "ظلالِ القرآن"[٢٠٣]، واستراحوا في "دارِ الاسلام"، ووجدوا كلَّ الحقيقةَ في دَفّتَي كتاب، ورأوا فيه كلَّ العِلمِ والمعرفةِ، ونظروا فيه الحلولَ لجميعِ مشاكلِ الانسانِ وأمراضِه وعقدِهِ النفسيّة... لهؤلاء نقول بكل اخلاص:

هل من شأنِ الدين أن يحلَّ مشاكل؟ أو أن يتنبأَ عن المستقبل ؟ أو أن يحوي في جوفهِ علومَ الارضِ والسماء؟ أو أن ينظّمَ علاقاتِ البشر؟ أو أن يَسِنَّ شرائعَ وقوانين؟ أو أن يُعنَى بحقوقِ الانسان؟ أو أن ينتمي الى عضويّةِ الأممِ المتّحدة؟ أو أن يكونَ له على الأرضِ دولة ؟ هل من شأنِ الدين أن يتحدّى المدنيّةَ المعاصرة، أو أن يكونَ له فلسفاتٌ وعقائدُ ونُظُمٌ في المالِ والاقتصادِ، وأحكامٌ في ما بينَ الرجلِ وامرأتِه؟ وجهادٌ في سبيلِ فرضِ عقيدتهِ وتعاليمِه وشرائعه على الناس؟..

---

(٢٠١) ٩/ ٣٤ .
(٢٠٢) ٥/ ٨٢ .
(٢٠٣) عنوان لتفسير سيّد قطب على القرآن .

لستُ أخافُ على الله من أن لا يكون "أكبر". ولن أرتعبَ ، مثلَ الشيخِ أحمد الوائلي الذي ارتعدتْ فرائِصُه لِمجرّدِ ذكرِ لفظةِ "دعوةِ وقوعِ التحريفِ بالقرآن". قال الشيخ : انّنا في "موضوعِ ـ دعوة وقوع التحريف بالقرآن ـ يجبُ أن نتلمّسَ طريقَنا في حَذرٍ شديد . وأُقسِمُ ، وأنا أكتبُ هذه الكلمات، أنّ قلبي لا يطاوعني على مجرّدِ سَطْرِ هذا العنوان المذكور . وفيما أعتقدُ انّ ذلك شعورُ كلِ مسلم يؤمنُ باللهِ ورسولهِ وكتابهِ . انّ مجرّدَ افتراضِ وقوعِ هذا المعنى في القرآنِ الكريم يعتدي على أغلى صورةٍ قدسيّةٍ في صميمِ وُجْدانِ المسلم".(٢٠٤) ... أمّا أنا فلن أخافَ ولن أرتعبَ ، ولن يضطربَ قلبي لا على الله ولا على نبيّه ولا على كتابه . ومع هذا لن أكونَ أقلّ ايمانًا من خيرِ المؤمنين .

ومع هذا أيضا سأستمرّ في البحثِ عن اللهِ وعن كتابهِ ونبيّهِ . ولن يكونَ بحثي في نشأةِ القرآن أبعدَ من الكلامِ على معجزاتِ حفظِه وتدوينِه . ولم يوفّر اللهُ لكِتابهِ كلمةً الاّ ومَسَحهَا بعِصْمَتِهِ، ولم يتركْ لنا مَجالا لِظَنٍّ وريبةٍ الاّ وأحْكَمَهَا بمعجزتِه . فالوحيُ والتنزيلُ كلاهما عندَ المسلمين معجزة ، ووحيُ اللهِ الى نبيٍّ أميٍّ جاهلٍ بالقرآءةِ والكتابةِ هو أيضا معجزة، وحفظُ محمّد للقرآنِ على أميّته هو أيضا معجزة، وحفظُ الصحابةِ لهذه المعجزة معجزة، وجَمْعُ السُوَرِ والآياتِ من الرقاعِ وصدورِ الرجال معجزة، وبلاغةُ القرآن معجزة، وما في القرآن من علومٍ اكتشفَ العالَمُ بعضًا منها ويسعى الى اكتشافِ بعضِها الآخر معجزة، واتيانُ القرآنِ بحلولِ مشاكلِ المجتمعِ البشري بأحسنِ ما يمكن أن يكون هو الآخر معجزة ...

فأنت ترى أنّنا مع القرآن في عالم المعجزات ، في حين أنّنا مع الاسلام على دينِ الفطرة . وأنت ترى أيضا انّ اللهَ في القرآنِ تَجَسّدَ ، فيما

(٢٠٤) "ادّعاء وقوع التحريف في القرآن وموقف الشيعة منه"، في كتاب : "القرآن نظرة عصرية جديدة"، ص ١٣٥ .

القرآن يعلن عن الله " ليس كمثله شيء"(٢٠٥) . وأنت ترى المسلمين أخيرا يَحلّون بآياتِ القرآن كلَ العِقَدِ والمشاكل، فيما الانسان غَنيٌّ بالعِقَدِ والمشاكل ولو كانَ بالقرآن مؤمنا . هذا الغِنى أكسبَ الانسانَ بحثًا وحريّة وقلقا، في الوقتِ الذي اكتسبَ المسلمون من القرآنِ "سَكينَةً" و"طمأنينة" واستراحة . ولكأنّك ترى المسلمين، وهم يقفون عند "مصحفِ عثمان"، غيرَ جديرين لا بالاسلامِ ولا بالقرآن .

هؤلاء المطمئنّون الى عالَمِ المعجزاتِ هم في العالَم معجزات . وَمَنْ يُزحزحُ في العالَمِ ايمانًا مُعجِزًا دونَ أن يُطبِّقَ السماءَ بالارض! حَسْبُ جبريلَ أن يَلزمَ إكمالَ معجزاتِهِ ليُهديَنا الصراطَ المستقيم . ولكنّه يبدو عليه الوهَنَ لكثرةِ ما سَعى! وهل عندَ الله سِواهُ أكثرُ سَعيًا ونشَاطًا! تبدو لنا أبوابُ السماءِ مُوصَدَة، وليسَ مَنْ يقومُ مُقَامَ رسولِ الوحي القديمِ العاجز! ومع هذا سَنَظَلُّ نطرقُ الأبوابَ ساجِدين باكِينَ مُعَفَّري الجبين بالترابِ لعلّ سامِعًا يَسمع! ولكنْ وراءَ الأبوابِ صمتٌ وهدوء . لعلّ سكّانَ السماءِ ضُرِبُوا هم أيضا بـ"سَكينَةٍ" و"طمأنينة" واستراحة!

عدتُ الى الأرضِ من معراجٍ باتَ لحظة، ووعيتُ جُنوني في عالَمٍ مجنون . التمستُ من عندِ المطمئنّينَ الطمأنينةَ فلمستُ في نفوسِهم قَلَقًا أشدَّ من الجنون . ذُهِلْتُ من وضعٍ عجيب، وضعِ عِناقِ الجنون للمعجزة، بل وضعِ التزامِ متناقضَين في وقتٍ واحدٍ وفي رأسٍ واحد : ايمانٌ وكفر، حريّةٌ واطمئنان، خيرٌ وشيطان، جبريلٌ وقرآن، بَشَرٌ يَمشون صَرعَى الجنونِ والمعجزات...

أمّا كيفَ يُعانِقُ الجنونُ المعجزات فأمرٌ باتَ لديَّ مضمونًا : الساكتُ عن المعجزةِ مجنون، والمرتاحُ الى جنونِه هو في معجزةٍ مستمرّة . وأيّ إلهٍ يُعْبَدُ في الخالِين؟! وهأنذا بينَ فريقَين : فريقٍ مطمئنٍّ الى ما لديه،

---

(٢٠٥) ٤٢/ ١١

ما استطعتُ لطمأنينتِهِ عِلاجًا، وفريقٍ قلقٍ مجنونٍ لم أتمكّنْ من دفعِ الكبتِ عنه. أولئك ثرثارون ملأوا الدنيا حقائقَ وحلولاً وكتبًا ودراسات، وهؤلاء صامتون مكبوتون خائفون عاجزون دَرَجوا على القلقِ فأصبحَ القلقُ عندَهم أمرًا مألوفًا ومعهودا. فكلا الفريقين مُزعج: واحدٌ لكثرةِ كلامِه، والآخر لكبتِهِ وصمتِهِ. وعندهما يلتقي الجنونُ بالمعجزة ويتعانقان.

انّي فيما أقصد واضح: أمامي معجزة أبغي النفاذَ الى حَرَمِها، وبين يديَّ كتبٌ تتحدّى العِلمَ والمدنيّةَ وكلّ ما في الارضِ من عِقَدٍ ومشاكل، وترى فيها كلَّ الحلولِ وكلَّ المعرفة، وعليَّ واجبُ دفعِ هذا التحدّي، وهذه المواجهةِ الصريحة. في العالَمِ العربي كُتُبٌ لو أردتَ زرْعَ الصحراءِ جنائنَ وبساتين لَطالتْ أغصانُ أشجارِها بروجَ السماء. انّها صالحةٌ جدًّا لمثل هذا النموِّ المطلوب. لقد أعطيتُ نموذجًا واضحًا عنها فيما تقدّم.

وعلى الصامتين، حُبًّا برقيِّ العالَم، أن يتدخّلوا، أن يخرُجوا مِنَ الكبتِ المُشين. وإنْ بَقُوا في قلقِهم صامتين لشاركوا الذينَ هم في راحتِهم مطمئنّون. وهل تسألني بعدُ لماذا نحنُ في عالَمٍ يَنْدَحِر! آمُلُ من كلِ هذا أمرًا، وهو: أن يَسْمَحَ الانسانُ للهِ بالتدخّلِ مرّةً أخرى. فعندَ اللهِ كلامٌ جديد، وكتابٌ جديد، ومعلوماتٌ جديدة. قد يُريدُ، لكثرةِ ووفرةِ رحمتِه، أن يُتحِفَنا بمعجزةٍ أخرى. فَلْيُسْمَحْ له!

لديّ أمل. وأرجو خيرًا. وعلى الذينَ يَخافون على اللهِ أن يَتركوا للهِ شَرَفَ الدفاعِ عن كرامتِهِ! بل لِيُحرِّروا اللهَ منهم، هو الذي أعطاهم خيرَ ما عنده، وهي حرّيتهم. وهل يُحقّ لهم سلبُ الناسِ حرّيتَهم! هذا الشيء الذي لم يفعلْه اللهُ نفسُه! افتحوا أبوابَ الكعبةِ، ونَقِّبوا في رمالِ مكّة، لعلَّ الباحثينَ يَجِدونَ مَنِ الذي كانَ "قبلَ" النبي! واللهُ قبلَهُ وبعدَهُ في كلِ حال.

****

الفصل الأوّل

معجزة الوحي والتنزيل

أوّلاً ـ استمرارية الوحي

ثانياً ـ معنى الوحي

ثالثاً ـ طرق الوحي

رابعاً ـ بدء الوحي

خامساً ـ الوحي والإلهام والنبوّة

سادساً ـ بين النبيّ محمد والأنبياء السابقين



مقدمة الفصل

في ايمان المسلمين انّ اتصالَ الله بالنبي محمّد لم يكنْ وقتَ انزالِ الوحي عليه وحسب ، بل سَبَقَ ذلك الاتّصالَ اختيارٌ منذ الازل · وإنْ لم نجدْ في القرآن دليلاً على هذا الاختيار، فانّ كتبَ السِّيَرِ والحديثِ مليئةٌ بهذا الحدثِ الفريدِ العجيب· ولئنْ لم نهتمّ ببحثنا هذا بهذا الاختيار فلأنّه لا يدخلُ في نطاقِ ما نحنُ بصددِهِ، ولأنّه ليسَ في القرآنِ ما يشير اليه·

ومع هذا لا بدّ من القول بأنّ صفحاتٍ شاسعةً من كتبِ المسلمين اهتمّتْ بتاريخِ محمّد الألهي الى جانبِ اهتمامِها بتاريخِهِ البشري · وصَعِدَ أهلُ السِيَرِ بسلسلةِ نَسَبِ محمّد حتى انتهَوا بآدمَ أبِ البشريّة · ومنهم مَنْ ابتعدَ أكثر فدخَلَ الجنّةَ ووجَدَ أسمَ محمّد محفورًا على جذوعِ أشجارها · وكم من الاشاراتِ والتنبوءاتِ ألمحتْ مُسْبَقًا الى مجيءِ نبيٍ أمّيٍ من هذهِ الأمّة العربيةِ التي حُرِمَتْ من النبوّةِ في الوقتِ الذي كانتْ أختُها اليهوديةُ تَنْعَمُ بفَيضِ النبوّاتِ والأنبياء ·

لقد آن الأوان ليكونَ لهذهِ الأمّة نبيٌّ ، وأيُّ نبيٍّ ! انه خاتَمُ الانبياء ، ودينُه تمامُ الأديان ، وشريعتُه كمالُ الشرائع ، وكتابُه وحيٌ من الله وتنزيل ، لا اختلافَ فيه ولا عِوَج ، انه كتابٌ بلسانٍ عربيٍ مبين · وكفى هذهِ الأمّةَ هذا الاختيارُ حتى تكونَ " خيرَ أمّةٍ أُخْرِجَتْ للناس"(1) ·

من منّا يجهل تلك الكتب التي أثبتَ اللهُ فيها اختيارَ محمّدٍ منذ الازل! وأتمنّى على القارئِ العودةَ اليها بنفسِه لِتَوَفُّرِهَا في أسواقِ الدين. ولئنْ كانتِ التسليةُ فيها جائزةً فانّ الاعتمادَ عليها في أمورِ التاريخِ غيرُ جائزٍ. وما أدراكَ بهذه الروايات تُخبرُ عن محمّد منذُ آدم حتى بعثتِه، مرورًا بالتنبوءاتِ التي سَبَقَتْ مولدَه بأجيالٍ، وبالعجائبِ التي حدثتْ عند مولدِه، وباخبارِ الكهّانِ والعرّافين والاحبارِ والرهبانِ التي استبقتْ مجيئَه، وبشهاداتِ الأشجارِ والاحجارِ والحيواناتِ تشيرُ الى علاماتِه وصفاتِه!..

كلّ هذه لا قيمةَ لها ولا اثباتَ. وهي وضعتْ لتنشيطِ ايمانِ المسلمين، وللدلالةِ على أزليّةِ اهتمامِ الله بهذا النبيّ وبأمّتِه المحظوظة. ونحن اذ ننبّهُ على مقصودِها الظاهرِ في مجالِ الدفاعِ عن نبوّةِ محمّد والدين الاسلامي، نرفضُ هذه الاخبارَ رفضًا قاطعًا، لأنّها، كما يقولُ محمّد دروزة، "يبدو عليها آثارُ التكلّفِ والتجوّزِ التي تؤدّي الى عدمِ الاطمئنان، ولا سيّما انّ فيها تطرّقًا لا يَشفي غليلاً، ولا طائلَ من ورائِه الى السرِّ الذي ظلّ على الرغمِ من ذلك كلِه محجوبًا عن سائرِ الناس"(٢).

ومع هذا التحفّظ بقي عامّةُ المسلمين يؤمنون بكل هذه الاخبار؛ واستغلّ العلماءُ منهم سرعةَ انقيادِهم اليها، فراحوا يكتبونَ لهم فيها، ويخطبون عن صحّتِها في المساجدِ ومن على رؤوسِ المآذن... ومن أجلِ هذا قصدتُ التنبيه. علمًا بأنّها وضعتْ في زمنٍ متأخرٍ جدًّا عن ظهورِ الاسلام. وهي تشبه الى حدٍّ بعيد ما كتبَهُ اليهود والنصارى مِن "كتبٍ مزيّفةٍ" في مهمّةِ اثباتِ المعجزاتِ على أنبيائِهم وتعاليمِهم.

(١) القرآن: ٣/ ١١٠.
(٢) محمد عزّة دروزة، القرآن المجيد، ص ٢٨.

أولاً ـ استمرارية الوحي

هو الوحي نفسه الذي نزل على الأنبياء السابقين نزلَ على محمّد . ومحمّدٌ يعتبر نفسَه من جملةِ هؤلاء الأنبياء الذينَ سبقوه في التاريخ . وهذا ليسَ من كتبِ السِيَر والاخبار، بل من القرآنِ ذاته . ولم يكنِ الوحيُ الذى أيّدهم (أى الانبياء) به اللهُ مخالِفاً الوحيَ الذي أيّدَ به محمّداً ، بل كانت ظاهرةُ الوحيِ متماثلةً عند الجميع ، لان مصدرَها واحد ، وغايتَها واحدة".[٣]

وجاء في القرآن : "انّا أوحينا اليكَ كما أوحينا الى نوح والنبيّين من بعدِه، وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل وأسحق ويعقوب والاسباط وعيسى وأيّوب ويونس وهارون وسليمان، وآتينا داوود زبورا ، ورُسُلاً قد قصصناهم عليكَ من قَبْل، ورُسُلاً لم نقصصهم عليك . وكلّمَ اللهُ موسى تكليما".[٤]

ووحي الله على محمد كوحيهِ على مَنْ سَبَقَه سواءً بسواء . وكان محمد يَعي ذلك: "كذلك يُوحى اليكَ والى الذينَ من قبلِكَ اللهُ العزيزُ الحكيم"[٥] ، وأيضا : "أوحى اليكَ والى الذين من قبلك".[٦]

---

(٣) الشيخ صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٢ عن الطبرى ٦/ ٢٠ .
(٤) القرآن : سورة النساء ٤/ ١٦٣، ١٦٤ .
(٥) القرآن : ٤٢/ ٣ .
(٦) القرآن : ٣٩/ ٦٥ .

هذا الوحي هو من عند الله، وليسَ لمحمد أن يبدّلَ فيه أو أن يعطيه من تلقاءِ نفسه، أو أن ينطقَ به على هواه، أو أن يختارَ اتّباعَه بحسب ما يشاء. قال: "قل: ما يكون لي أن أبدّلَه من تلقاءِ نفسي، أنْ أتّبع الاّ ما يُوحَى اليّ."[٧]، و"قل: انّما أتبع ما يُوحى اليّ من ربّي."[٨]، وقال: "... وما ينطِقُ عن الهوى، ان هو الاّ وحيٌ يُوحَى."[٩].

وما نزل على محمد من وحي كان "تبيانًا" لما أُنزِلَ من قَبل. وكان همُّ محمّد أن يُظهِرَ للناسِ كلَ ما أُنزِلَ على الأنبياءِ. فهو يأخذُ منهم، ويعتمِدُ عليهم، وينقُلُ عنهم، ويستوحي أخبارَهم، ويَسرِدُ قَصَصَهُم، ويتمثّلُ بأمثالِهِم، ولا يفرّطُ في كتابه بشيء... وذلك ليبيّنَ للعربِ كلَ ما أُنزِلَ على أهلِ الكتاب. قال: "أنزلْنَا اليكَ الذكرَ لتبيّنَ للناسِ ما نُزِّلَ اليهم."[١٠]. وقال أيضا: "أخذ اللهُ ميثاقَ الذين أوتُوا الكتابَ لتبيّنَنّه للناس."[١١]...

وشهدَ على استمراريّةِ الوحي هذه كثيرونَ ممّنْ يعرفون التوراةَ والانجيل. فمحمّد يعتبر أهلَ الكتابِ على علمٍ بما في القرآن: "والذين آتيناهم الكتابَ يعلمون انّه منزَلٌ من ربّكَ بالحقّ."[١٢]. بل هم يفرَحُون بما جاءَ فيه: "الذين آتيناهم الكتابَ يفرحونَ بما أُنزِلَ اليك."[١٣]. وجميعُ الناسِ، كتابيينَ كانوا أم أميين، يؤمنون بما أُنزِلَ على محمد وبما أُنزِل من قبل سواءً بسواء: "والراسخون في العلم منهم (من أهل الكتاب) والمؤمنون (من العرب) يؤمنون بما أُنزِل اليك (القرآن) وما أُنزِلَ من قبلكَ (التوراة

(٧) سورة يونس ١٠/ ١٥.
(٨) سورة الأعراف ٧/ ٧.
(٩) سورة النجم ٥٣/ ١_٤.
(١٠) سورة النحل ١٦/ ٤٤.
(١١) سورة آل عمران ٣/ ١٨٧، انظر: ١٦/ ٨٩.
(١٢) سورة الانعام ٦/ ١١٤، انظر: ٣٤/ ٦.

والانجيل)"[١٤] . والمسلمون حقا هم القائلون: "آمنا بالله وما أُنزل الينا وما أُنزلَ من قَبل"[١٥] . ويحدّد القرآنُ موقفَه منهم بقوله : "يا أهلَ الكتاب لَستُمْ على شيء حتى تُقيمُوا التوراةَ والانجيلَ وما أُنزلَ اليكم"[١٦] ، "والمؤمنون (كلّهم) يؤمنون بما أُنزِل اليكَ وما أُنزلَ من قبلِك"[١٧] .

وفي الحقيقة ان أهلَ الكتابِ يشهدون على استمرارية الوحي من التوراة الى الانجيل الى القرآن . ويشهدون على صحة الوحي والتنزيل على محمّد : "ان كنتَ في شكٍ مما أنزلنا اليكَ فاسألِ الذينَ يَقرأون الكتابَ من قبلِك"[١٨] . واذا كان أتْبَاعُ محمّد من العربِ والاعرابِ ممّنْ لا يستطيعون فَهْمَ الوحيِ القرآني فما عليهم الاّ أن يَسْألوا أهلَ الكتابِ. فهو يوصيهم بذلك : "اسألوا أهلَ الذكر ان كنتمْ لا تعلمون"[١٩] .

وَحْدَةُ الوحي هذه جعلتْ من المؤمنينَ برسالة محمّد مع المؤمنينَ برسالة موسى وعيسى واحِدًا . فشريعتُهم واحدة : "نشرّع لكم من الدين ما وصّى به نوحا"[٢٠] ، وهي "سنّةَ مَن قد أرسلْنَا قبلَكَ من رُسُلِنا"[٢١] ، و"لنْ تجدَ لسنّةِ الله تبديلا"[٢٢] . فبوحدةِ الشريعةِ لا بدّ أن يتوحّد المؤمنون في أمّةٍ واحدةٍ ، هي أمّةٌ وَسَط[٢٣] ، مقتصِدةٌ في عقيدتها[٢٤] ، بسيطةٌ في شريعتها بسببِ ضَعفِ الانسانِ العربي[٢٥] . وهي دعوةٌ قرآنية

---

(١٣) ٣٦/١٣ .
(١٤) ١٦٢/٤ .
(١٥) ٥٩/٥ .
(١٦) ٦٨/٥ .
(١٧) ٢١٢/٤ و٦٠،٢٠/٤ .
(١٨) ٩٤/١٠ .
(١٩) ٤٣/١٦، ٧/٢١ .
(٢٠) ١٣/٤٢ .
(٢١) ٧٧/١٧ .
(٢٢) ٤٣/٣٥، انظر : ٣٤/٦ ، ١١٥، ٢٣/٤٨، ٢٧/١٨، ٦٢/١٠ الخ ...
(٢٣) ١٤٣/٢ .
(٢٤) ٦٦/٥ .
(٢٥) ٦٦/٨، ١٨٥/٢، ٢٨/٤ ... وما سواها من آيات كثيرة .

ملحّة في الوحدة بين المؤمنين : "أقيموا الدينَ، ولا تتفرّقوا فيه"[٢٦]، و "اعتصموا بحبلِ الله جميعًا ولا تفرّقوا"[٢٧] . وهي دعوةٌ استجابَ لها محمّدٌ وأتباعُه : "لا نفرّقُ بين أحَدٍ منهم . ونحنُ له مسلمون"[٢٨] وقال أيضا : "لا نفرّقُ بين أحدٍ من رسله"[٢٩] . ووصَف أتباعه بـ"الذين آمنوا بالله ورسلِه، لم يفرّقوا بين أحدٍ منهم"[٣٠]، ونَصَحَهُم قائلا : "لا تكونوا من المشركين مِن الذينَ فرّقوا دينَهم وكانوا شِيَعًا"[٣١]، وأيضا : "لا تكونوا كالذينَ تفرّقوا واختلفوا"[٣٢] .

وبوحدةِ الوحي والشريعةِ توحّد المؤمنونَ جميعًا حتى أصبحوا "أمّةً واحِدَةً"[٣٣]، وأعلنوا ايمانَهم بقولهم : "آمَنّا باللهِ، وما أُنزِلَ الينا، وما أُنزِلَ من قبل"[٣٤] .

*****

هذا هو الوحي المحمّدي : لا شيء فيه جديد، سوى انّه خفّف عن كاهلِ هذهِ الأمّةِ العربيّةِ بعضَ عُشرِ شريعةِ أهلِ الكتاب، وذلك بسبب ضَعفِهم[٣٥] . وقصّةُ معراجِ محمّد على السماواتِ شهيرةٌ في سبيلِ الطلبِ من اللهِ التخفيفَ عن أمّتِه[٣٦] .

******

(٢٦) ٤٢/١٣ .
(٢٧) ٣/١٠٣ .
(٢٨) ٢/١٣٦، ٣/٨٣ـ٨٤ .
(٢٩) ٢/٢٨٥ .
(٣٠) ٤/١٥٢ . وآيات أخرى كثيرة . أنظر كتاب "قس ونبي" لأبي موسى الحريري .
(٣١) ٣٠/٣٢ .
(٣٢) ٣/١٠٥ .
(٣٣) ٢٣/٥١ .
(٣٤) ٥/٥٩، ٤/١٣٦ .
(٣٥) ٨/٦٦، ٤/٢٨ .
(٣٦) أنظر قصّة الاسراء والمعراج في تفسير الجلالين، ص ٣٧١ .

ثانياً ـ معنى الوحي

وردت لفظةُ "الوحيّ" ومشتقّاتُها في القرآن حوالي ثماني وسبعين مرّة. وليستْ كلّها بمعنى واحد. وقد نستطيعُ حصرَ معانيها بما يلي:

١ ـ من الوحيِ ما هو بمعنى الالهامِ الفطريِ للانسان، كقوله: "وأوحينا الى أمِّ موسى أن أرضعيه"(١)، وقولِه: "واذ أوحيتُ الى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي"(٢). وهذا الالهامُ هو أيضا بمعنى التوجيه الذى رتّبه الله في نظامٍ محدّدٍ وفقَ طبيعةِ الانسان.

٢ ـ ومن الوحيِ أيضا ما هو بمعنى الالهام الغريزي للحيوان، كقولِه: "وأوحى ربُّك الى النحلِ أنِ اتَّخذي منَ الجبالِ بيوتًا"(٣). وهو يمثّل هدايةَ اللهِ وتوجيهَه للحيوان بما رُكِّبَ فيه من خصائصَ لحفظِ حياته وقيامِه بوظائفِه(٤).

٣ ـ ومن الوحي ما هو بمعنى الاشارةِ السريعةِ التي تكون بالرمزِ والايحاء والرؤيا، كما في قوله عن زكريّا: "فخرج على قومِه من المحراب، فأوحَى اليهم أن سبِّحوا بُكْرَةً وعَشِيًّا"(٥). وقد يكونُ وحيٌ

(١) سورة القصص ٢٨/ ٧.
(٢) سورة المائدة ٥/ ١١١.
(٣) سورة النحل ١٦/ ٦٨.
(٤) الدكتور عبد المنعم النمر، علوم القرآن الكريم، ص ١٤.
(٥) سورة مريم ١٩/ ١١.

زكريا الى الناس : رمزا، أو كتابة، أو اعتبارا، أو اشارة سريعة، أو ايماء...

٤ـ ومن الوحي ما يتعلّقُ بوسواسِ الشيطان وايحائِهِ للانسانِ الشرَّ والغرور. قال : "وكذلك جَعَلنا لكلِ نبيٍّ عَدُوًّا : شياطين الجنِ والانسِ، يُوحي بعضُهم الى بعض زخرفَ القولِ غرورا."[٦]، وقال أيضا : "وانّ الشياطينَ لَيُوحُونَ الى أولِيائِهم لِيُجَادِلوكم."[٧].

٥ـ ومنه أيضا "ما يُلقيه اللهُ الى الملائكةِ من أمرِهِ ليفعلوه من فَورِهِم."[٨] كقولِهِ : "اذ يوحي ربُّك الى الملائكةِ إنّي معكم. فثبّتوا الذين آمنوا."[٩]. هذا الوحي هو الهامٌ سريع، لا اشارةَ فيه ولا رموز.

٦ـ أمّا الوحي الذى يَحمِلُه النبيُ محمّد الى الناسِ ليبلّغَهم مضمونَه فهو كالوحيِ الذي كلّفَ اللهُ به مَلاكَهُ جبريلَ لِيَنْقُلَهُ الى الانبياء. وبذلك يكونُ ما جاء به جبريلُ محمّداً من وحيٍ هو تنزيلٌ عليه من ربِّ العالمين[١٠].

هذا المعنى الاخير للوحي يكونُ من الله على رسلِهِ وأنبيائِهِ، مباشرةً، أو بواسطةِ مَلاكِ الوحي، ويكونُ أيضا بروءيا ليليةٍ أو نهارية، أو يكونُ بظهورِ الملاكِ نفسِهِ بهيئةِ رجلٍ على النبي، أو أيضا بغَير ذلك، كما سنرى.

******

(٦) سورة الانعام ٦/ ١١٢.
(٧) سورة الانعام ٦/ ١٢١.
(٨) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٤.
(٩) سورة الانفال ٨/ ١٢.
(١٠) أنظر سورة الشعراء ٢٦/ ١٩٢ـ١٩٥، والنساء ٤/ ١٦٣ـ١٦٤.

ثالثاً - طرق الوحي

هناك ، بحسب القرآن وكتب السِيَر، عدّةُ طرقٍ أو صُوَرٍ لإبلاغِ الوحي ، بها اتّصلَ اللهُ بأنبيائه، كلٌّ بحسبِ ظروفهِ وأحوالِه. وأشارتْ الى بعضِ هذه الطرق سورةُ الشورى في قولها : " وما كانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ الاّ وحـــيا ، أو من وراءِ حِجابٍ ، أو يُرسِلَ رَسُولاً (ملاكا) فيوحِيَ بإذنِهِ ما يشاء"[1] .

١ ـ أوّلُ الطرقِ اذن : الوحيُ ، بمعنى الالهامِ المباشِرِ، أى ان اللهَ يُلقِي كلمتَهُ في قلبِ رسولِهِ وروحِهِ، وينفثُ المعنى في رُوعِهِ، كقولِ حديثٍ نبويٍّ جاءَ فيه : " ان روحَ القدسِ (أى الملاك جبريل) نَفَثَ في روعي أنّه لن تموتَ نفسٌ حتى تستوفيَ رزقَها ..."[2] .

٢ ـ والطريقةُ الثانية تقوم في أن يوحي اللهُ الى نبيِّهِ كلاماً يسمعُه من وراءِ حجاب ، دون أن يَرى النبيُّ المتكلِّمَ ، وذلك كما نادَى اللهُ موسى من وراءِ الشجرة وسمعَ موسى نداءَه[3] ، وكما حدثَ لمحمّد وهـــو فـــي معراجِهِ على الانبياء[4] .

٣ ـ والثالثة أن يكونَ الوحيُ بوساطةِ المَلَكِ جبريل ، ملاكِ الوحي الامين ، الروحِ القدس ، الذى أرسلَه اللهُ الى محمّد ، والى غيرِهِ من الانبياء ، بصورةِ رجلٍ . ويبدو أن القرآنَ كلَّه نزَلَ بوساطتِهِ ، كما جاءَ : " نَزَّلَ به الروحُ

---

(١) ٤٢/ ٥١ .
(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٢٢٠ حاشية (١) .
(٣) أنظر سورة النساء ٤/ ١٦٤، طه ٢٠/ ١١ـ١٤ .
(٤) ســورة النجم ٥٣/ ٨ـ١٠، سورة الاسراء ١٧/ ١ ...

الامين على قلبكَ لتكونَ من المنذرين بلسانٍ عربيٍ مُبين "[٥] ، وجـاء أيضا :
" قل نزّله الروحُ القدسُ من ربّكِ بالحقِ ليثبّتَ الذينَ آمنوا "[٦] .

وأمّا في كتب الحديثِ والسيرةِ النبوية فهناك صُوَرٌ أخرى لحـــدوث الوحي وتنزيلهِ على محمّد . وهي ، على غَرَابَتِها ، تفسّرُ بعضَ ما جاء في القرآن :

جاء على لسان عائشة قولُها : " أوّلُ ما بُدِئَ به رسولُ اللـهِ صلعم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يَرى رؤيا الآ جاءتْ كَفَلَقِ الصبح "[٧] . وحدثَ مثلُ هذه الرؤيا لابراهيمَ واسمعيل[٨] ، ولكن " لم يثبتْ ثبوتا قاطِعا ان شيئًا من القرآنِ نزلَ عن طريقِ الرؤيا المناميّة "[٩] .

*****

أمّا كيفيّةُ نزولِ الوحي على النبي فكانتْ بأحوال مختلفة ومتعدّدة ، أحيانًا كان يأتيه بعنفٍ وجهدٍ وتعبٍ وثقلٍ وشدّة . وقد عبّرَ الرسولُ عـن ذلك بقوله : " أحيانًا يأتيني مثل صَلصَلة الجَرَسِ ، وهو أشدُّه عليَّ ، فيفصم عنّي ، وقد وعيتُ عنه ما قال "[١٠] ، كما عبّرتْ أيضا عائشة بقولها : " ولقد رأيتُه ينزلُ عليه الوحيُ في اليومِ الشديدِ البردِ ، فيفصم عنه ، وأنّ جبينَه لَيتفصّد عَرَقًا "[١١] ، وكذلك ابنُ عبّاس قالَ : " كان رسولُ الله يُعالِجُ

---

(٥) سورة الشعراء ٢٦ / ١٩٣ـ١٩٥ .
(٦) سورة النحل ١٦ / ١٠٢ .
(٧) صحيح البخارى ١ / ٣ ، ابن هشام ١ / ٢١٦ ...
(٨) سورة الصافات ٣٧ / ١٠٢ـ١٠٥ .
(٩) الدكتور عبد المنعم النمر ، علوم القرآن الكريم ، ص ١٧ .
(١٠) صحيح البخارى ١ / ٢ـ٣ .
(١١) نفس المرجع ١ / ٣ ... أنظر ما جاء في جميع كتب السيرة . فهي على وفاق تام فيما بينها بما يخص كيفية نزول الوحي على الرسول .

من التنزيل شدّة."(١٢) . وعن السيرة الحلبية جملةُ أحوال تنقلها عن مصادرَ عديدة. تقول في وصف حال النبي أنَ يأتيه الوحيُ بأنّه كانَ "يغطّ كغطيطِ البكر المحمَّرة عيناه."(١٣) . وعن زيد بن ثابت قوله : "كان أذا نزلَ الوحيُ على رسولِ الله ثقلَ لذلك، ومرّةً وقع فخذُه على فخذي ، فوالله، ما وجدتُ شيئا أثقلَ من فخذِ رسولِ الله". ويضيف : "ربّما أُوحيَ اليه وهو على راحِلَتِه (ناقته) فترعُدُ حتى يُظَنّ أنّ ذراعَها ينقَصِم . وربّما بُركتْ ... فلم تستطعْ أن تحمِلَه، فينزِل عنها."(١٤)

وفي رواياتٍ كثيرة أيضا جاءَ على لسان رسولِ الله قولُه : "ما من مرّة يُوحى اليّ الاّ ظننتُ أنّ نفسي تُقبَضُ منّي". وعن أسماء بنت عميس: "كان رسول الله، اذا نزل عليه الوحيُ يكاد يُغشى عليه ... ويصيرُ كهيئةِ السُكران."(١٥) . وعن محيي الدين : "كان اذا جاءه الوحيُ يستَلقي على ظهره". وسببُ ذلك "لم يبقَ للجسمِ مَن يحفَظُ عليه قِيامَه ولا قُعُودَه، فيرجِعُ الى أصلِه وهو لُصوقُه بالارض."(١٦) .

وعن أبي هريرة : "كان رسولُ الله، اذا نزل عليه الوحيُ صدَع ، فيُغَلِّفُ رأسَه بالحناء". وعنه أيضا : "كان رسولُ الله، اذا نزل عليه الوحي لم يستطعْ أحدٌ منّا يرفعُ طَرْفَهُ اليه حتى يَنقضي الوحي". وسبب ذلك انّ الرسولَ حين الوحي تستقبله الرعدة، والكرب ، فيتربّدُ وجهُه ويغمضُ عينيه، ويُسمَع عند وجهِه كَدَوِيّ النحل، ويضطرب ارتعاشًا، وينوءُ تحتَ

---

(١٢) صحيح البخارى ١/ ٣ .
(١٣) السيرة الحلبية ١/ ٢٥٧ .
(١٤) نفس المرجع ، ١/ ٢٥٧ .
(١٥) نفس المرجع ، ١/ ٢٥٧ .
(١٦) نفس المرجع ، ١/ ٢٥٧ـ٢٦٣ .

النوبات العصبية والارهاصات العاطفية، ويرزح تحت ثقل ملاك الوحي . وقد جاء في حديث خديجة عن حال النبي ما يلي :

سألت خديجة زوجها قائلة : "أي ابن عم، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك اذا جاءك ؟ قال: نعم . قالت : فاذا جاءك فأخبرني به . فجاءَ جبريل عليه السلام، كما كان يصنع . فقال رسول الله لخديجة : يا خديجة، هذا جبريلُ قد جاءني . قالت : قم يا ابنَ عم، فاجلس على فخذي اليُسْرَى . فقامَ رسولُ الله فجلسَ عليها . قالت : هل تراه؟ قال : نعم . قالت : فتحوّلْ فاجلسْ على فخذي اليُمْنَى . فتحوّلَ رسولُ الله فجلسَ على فخذها اليمنى . فقالت : هل تَراه ؟ قال : نعم . قالت : فتحوّلْ فاجلسْ في حِجْري . فتحوّلَ رسولُ الله فجلَسَ في حجرها . قالت : هل تراه ؟ قال : نعم ... فتحسّرتْ (خديجة) وألقتْ خمارَها ورسولُ الله جالسٌ في حِجرها . ثم قالتْ له : هل تراه ؟ قال : لا . قالت: يا ابنَ عم . أثبتْ . وأبشِرْ . فوالله، انه لَمَلَك . وما هذا بشيطان".[17]

أمّا عبدالله بن حسن فقد سمع أمّه فاطمة تحدّثه عن خديجة، تقول له : "انّي سمعتُها (أي فاطمة سمعت خديجة) تقول : أدخلتْ رسولَ الله بينها وبين درعها . فذهب عند ذلك جبريل . فقالت لرسول الله: ان هذا لَمَلَك . وما هو بشيطان".[18]

هذه الحالاتُ الشديدة التي كانت تنتابُ النبي كشفَ القرآنُ عنها في قوله : "انّا سَنُلقي عليكَ قَولًا ثَقيلاً".[19] هي حقًا كانت عليه شديدةً حتى أنه كان يَنوي القاءَ نفسِه من على رأسِ الجبلِ لمعاناته مع رسولِ الوحي ...

---

(١٧) سيرة ابن هشام ١/ ٢٢٣ .
(١٨) نفس المرجع ١/ ٢٢٣ .
(١٩) سورة المدثر ٧٤/ ١-٥ ، سورة المزمّل ٧٣/ ١-٥ .

رابعاً ـ بدء الوحي

يجمع المسلمون على أنّ أوّلَ ما نزل من القرآن كانَ في غارِ حِـرَاء، في شهر رمضان، في ليلةِ القَدْرِ المباركة. وأوّلُ آية نزلتْ كانتْ مـن سـورةِ العَلَق. وبيانُ المسلمين على ذلك لا يستقصيه عِلمٌ لكثرةِ الشهودِ والاحاديثِ النبويّة المنقولةِ الينا بالطريقِ الصحيح.

١ ـ مكان النزول :

نقل الينا ابنُ هشام عن ابنِ اسحق عن عبدِ الملك بن عبيد الله بن أبي سفيان: "ان رسولَ الله، حينَ أراده الله بكرامتهِ، وابتدأه بالنبوّة، كان اذا خرجَ لحاجتهِ أبْعَدَ حتى تَحَسَّرَ عنه البيوت، ويُفضِي الى شِعابِ مكّة وبطونِ أوديتها، فلا يمرُّ رسولُ الله بحَجَرٍ ولا شَجَرٍ الا قالَ : السلامُ عليكَ يا رسولَ الله. قال : فيلتفتُ رسولُ اللهِ حولَه وعن يمينهِ وشمالِـه وخَلْفَه فلا يَرى الاّ الشجرَ والحجارة. فمكثَ رسول اللهِ كذلك يَرى ويَسـمع، ما شاءَ الله أن يمكثَ. ثم جاءَه جبريلُ عليه السلام، بما جاءَه من كرامـةِ الله، وهو بحِـرَاء في شهرِ رمضان"[(١)].

وعن وهب بن كَيسان قال : سمعتُ من ابنِ الزبير قال : "كـــان رسولُ الله يجاوِرُ في حِـرَاء من كلِ سنةٍ شهرا ... حتى اذا كانَ الشهـرُ

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢١٧، أنظر الروض الانف ١/ ٢٦٦، صحيـح مسلم، وصحيح البخارى، باب : بدء الوحي في الجزء الاول ...

شهرَ رمضان من السنة التي بعثه الله فيها"[٢]. وتشهدُ عائشة على ذلك بقولها: "... وكانَ يخلو بغارِ حِراء، فيتحنّثُ. والتحنّثُ هو التبرّر"[٣]، "والتعبّد الليالي ذوات العدد"[٤].

٢ـ أوّل ما نزل من القرآن:

استمرّ النبيّ يتردد على غار حِراء، طيلةَ خمس عشرةَ سَنة، برفقةِ القس ورقة بن نوفل وعنايته، وكان هناك يتعبّدُ ويصلّي ويرتاضُ ويصوم، الى أن "جاءَه الحقّ، وهو في غار حِراء. فجاءَهُ المَلَك فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذَني فَغَطّني حتى بلَغ منّي الجُهد. ثمّ أرسَلني. فقال: اقرأ. قلتُ: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ منّي الجهد. ثم أرسلني. فقال: اقرأ. فقلتُ: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني الثالثة. ثم أرسلني. فقال: اقرأْ باسم ربِّكَ الذي خلق، خَلَقَ الانسانَ من عَلَق، اقرأْ وربّكَ الاكرم[٥].

"فرجع بها رسول الله يرجفُ فؤادُه، فدخَل على خديجة بنتِ خُوَيْلد، فقال: زمّلوني زمّلوني. فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة، وأخبرها الخبر: لقد خشيتُ على نفسي. فقالتْ خديجة: كلّا. واللّه، ما يخزيكَ اللهُ أبدا. انّك لَتصِلُ الرَحِمَ، وتحمِل الكَلَّ، وتكسبُ المعدومَ، وتَقري الضيفَ، وتُعينُ على نوائب الحقّ.

---

(٢) سيرة ابن هشام ١/٢١٧ـ٢١٩ وما بعد...
(٣) سيرة ابن هشام ١/٢١٨ وما يلي، انظر في مجمل كتب السير...
(٤) صحيح البخاري، ١/٣، انظر صحيح مسلم، في بدء الوحي.
(٥) سورة العلق، رقم ٩٦، وهي باتّفاق المسلمين أول ما نزل من القرآن.

" فانطلقت به خديجة حتى أتتْ به ورقةَ بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عمِّ خديجة وكان امرأ تنصّر في الجاهلية، وكان يكتبُ الكتابَ العبراني فيكتبُ من الانجيلِ بالعبرانية ما شاءَ الله أن يكتب ، وكان شيخًا كبيرا قد عَمي ، فقالت له خديجة : يا ابنَ عمِّ اسمعْ من ابنِ أخيك فقال له ورقة: يا ابنَ اخي ماذا ترى؟ فأخبرَه رسولُ الله خبرَ ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموسُ الذى نزّلَه اللهُ على موسى ، يا ليتَني فيها جذعا ليتني أكون حَيًّا اذ أخرجَك قومُك . فقال رَسول الله: أَوَمُخْرِجيَّ هُمْ ؟ قال: نَعم . لم يأتِ رجلٌ قطّ بمثلِ ما جئتَ به . ألا عودي . وانْ يُدركْني يومُك أنصرْكَ نصرًا موُزّرا. ثمّ لم يَنْشَبْ وَرَقَة أنْ تُوفّيَ وَفَتَرَ الوحيُ "[٦] .

هكذا ابتدأ الوحي ، وهكذا كان أوّلُ ما أُوحي به الى محمّد . ولكنّ موتَ القسّ ورقة لم يكن الاّ بعد ثلاث سنين أو أربع من بدء الرسالة النبوية . والبخاري، الذى نقلنا عنه هذا النص، يتابع في كلامِه ما أُنزلَ من وحي على النبي بعدَ انقطاعِه عنه حوالَي ثلاثَ سنين . وبعد ذلك استمرّ الوحيُ ينزل على الرسولِ بحسب الظروفِ والمناسباتِ طيلةَ ما يقاربُ الثلاثَ والعشرينَ سنة .

٣ـ كيفيّة التنزيل :

من ايمان المسلمين ان القرآن نزل من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا جُمْلةً واحدةً، ولكنّ محمّدا لم يتلقّاه الاّ مُنَجّما ، أى أنّه أنزلَ على محمّد آيةً آية، أو كلّ خمسِ آيات، أو عشر آيات، أو أكثر أو أقل[٧] .

---

(٦) صحيح البخاري، ١/ ٣ـ٤ .
(٧) السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن ١/ ٧٣ .

أمّا الحكمة من تَنْجيمِهِ فهي مُضاعفة : انّها حكمةٌ بالنسبة الى النبيّ ، وذلك لكي " يظلَّ الوحيُ متجاوبًا مع الرسول ، يعلّمه كلَ يوم شيئًا جديدا ، ويرشدُه ويهديه ، ويثبّتُه ويزيدُه اطمئنانا ".(٨) . وفي ذلك شهادةٌ من القرآن نفسه بقوله : " وقال الذين كفروا : لولا نُزِّلَ عليه القرآنُ جملةً واحدة " ، ويجيب الله: أنزلناه " كذلك لنثبّتَ به فؤادَك . ورتّلناهُ ترتيلا ".(٩) . ويقول أيضا : " وقرآنا فرقناهُ لتقرأه على الناسِ على مُكْثٍ . ونزّلناه تنزيلا ".(١٠) .

وهي أيضا حكمةٌ بالنسبة الى الصَحَابة ، حتى يبقَى الوحيُ "متجاوبا مع الصحابةِ يربيّهم ويُصلح عاداتِهم ويجيب عن وقائِعهم ، ولا يفاجئُهم بتعاليمِهِ وتشريعاته ".(١١) . والحكمةُ في ذلك كانت للصحابة " حتى يحفظوه في صدورِهم ، ويكتبوه على الرقاع ، ويتيسّر لهم العملُ بمضمونه شيئًا فشيئا " (١٢) . والغاية من ذلك " تربيةُ الأمّة وترويضُها وهدايتُها ، وتمكينُها من التطبيق والالتزام بالاحكام وما اليه ... ".(١٣)

غير أنّ الخطر في الاسترسال بالقول بالتنجيم يكمن في جعلِ الآيات مفكّكةً غيرَ مرتبطَةٍ بعضها ببعض . وقد لمسَ المسلمون ظاهرةَ التفككِ هذه ، فأوجدوا " علم المناسَبة " الذى يضعُ لِرَبْطِ السُّوَر والآياتِ قواعدَ وأصولًا (١٤) . وعند الامام فخر الدين الرازي أنّ " أكثرَ لطائفَ القرآنِ مُودَعَةٌ في الترتيباتِ والروابط ".(١٥) .

---

(٨) الشيخ صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن ، ص ٤٩ .
(٩) سورة الفرقان ٢٥/ ٣٢ .
(١٠) سورة الاسراء ١٧/ ١٠٦ .
(١١) الشيخ الصالح ، المرجع المذكور ، ص ٤٩ .
(١٢) أنظر الدكتور النمر ، علوم القرآن الكريم ، ص ٨١ .
(١٣) الدكتور داود العطار ، موجز علوم القرآن ، ص ١٠٩ و ١١٤-١٢٤ .
(١٤) انظر فصلا في السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ١/ ٩٦ وما يلي .
(١٥) انظر كتاب تفسير القرآن للامام الرازى .

٤ـ متى نزل القرآن ؟

يحدّد القرآن وقت نزوله في أمكنة ثلاثة منه :
في سورة البقرة قوله : "شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن"[١٦] .
وفي سورة الدخان : "انّا أنزلناه في ليلة مباركة"[١٧] .
وفي سورة القدر : "انّا أنزلناه في ليلة القدر"[١٨] .

لقد رأينا شهادةَ المحدّثين بأنّ النبيَ جاءه الحق في رمضان عندما كان يتحنّث ويرتاض في غار حرّاء . وفي البخاري قوله : "وكان جبريلُ يلقاه في كل ليلةٍ من رمضان فيدارسُه القرآن"[١٩] . وكانت الليلةُ الأولى ليلةَ السابعَ عشر ، المسمّاة بليلة القدْر ، من السنة ١٣ قبل الهجرة ، الموافقة لشهر تمّوز سنة ٦١٠ م . وكان عمر النبي اذ ذاك أربعين سنة .

وممّا يرجّح هذا التاريخ ما نجده في مناسبة أخرى من قول القرآن ، وهي مناسبة التقاء الجُمْعَين : أي المسلمين والمشركين في معركة بَدْر التي حدثتْ في السابع عشر من رمضان السنة الثانية للهجرة . قال : "ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان"[٢٠] .

أمّا ليلة القدر فهي أوّلُ ليلة أنزلَ فيها القرآن . جاء في أهمّيتها : "انّا أنزلناه في ليلة القدر ، وما أدراكَ ما ليلةُ القَدْر ، ليلةُ القَدْر خيرٌ من ألفِ شهر ، تُنزّلُ الملائكةُ والروحُ فيها باذنِ ربّهم من كلِ أمر . سلامٌ حتى مطلع الفجر"[٢١] . ومعنى ذلكَ ان اللهَ أنزلَ "القرآنَ جملةً واحدةً من

(١٦) سورة البقرة ٢/ ١٨٥ .
(١٧) سورة الدخان ٤٤/ ٣ .
(١٨) سورة القدر ٩٧/ ١ .
(١٩) صحيح البخارى ١/ ٣و٤ .
(٢٠) سورة الانفال ٨/ ٤١ .
(٢١) سورة القدر ٩٧/ ١ـ٥ .

اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا".[٢٢] ويشهد على ذلك ما ورد في سورة النجم بانّ القرآنَ كان كلُّه منذ الازل" بالأفقِ الاعلى".[٢٣] "عند سِدْرَةِ المُنْتَهَى، عندها جَنّةُ المأوى".[٢٤] وبعد ذلك أنزله اللهُ مُنَجَّمًا على الرسولِ بحسبِ المناسبات، على ما جاء سابقا.

الاّ أنّ "اللوحَ المحفوظ" قد لا يكون كتابا موجودا في "الافق الاعلى"، بل قد يكون كتاب موسى، من قول القرآن نفسه: "ومن قبلهِ كتابُ موسى إمَامًا ورحمةً".[٢٥] وقوله: "ويتلوه شاهدٌ منه ومن قبلهِ كتابُ موسى إمَامًا ورحمة".[٢٦] وما يرجّح ذلك هو أنّنا نجدُ في القرآن ما نجدُه في "إمامِ موسى": "كلُّ شيءٍ أحصيناهُ في إمَامٍ مُبين".[٢٧] وقد يكونُ كتابُ موسى الموصوفُ بـ"الإمام" هو نفسه "أمّ الكتاب".[٢٨] ويصرّح: "وانّه (أي القرآن) في أمّ الكتابِ لدينا".[٢٩]

ولكنّنا نجد في القرآن ما لا نجدُه في كتاب موسى! فما هو مصدرُه؟ لعلّه "الانجيلُ العبراني" الذي كانَ بين يدي القس ورقة ينقلُه الى العربية، ومحمّد يحضرُ نَقْلَهُ طيلةَ أربعٍ وأربعينَ سنة!! ولعلّ أيضا خبرةَ محمّد خلال حياتِهِ وجهادِهِ وأسفارِهِ ومستجدّاتِ الحياة والمجتمع لَها أيضا في القرآن يَد! وفي كل حال لنا عودة الى مصادر القرآن فيما بعد ...[٣٠].

---

(٢٢) أنظر تفسير الجلالين على ٩٧/ ١، والقرطبي ٢/ ٢٩٧، والزركشي في البرهان ١/ ٢٢٨، والاتقان في فصل "كيفية انزاله"، الجزء الاول ...
(٢٣) سورة النجم ٥٣/ ١–١٢.
(٢٤) سورة النجم ٥٣/ ١٣–١٨.
(٢٥) سورة الأحقاف ٤٦/ ١٢.
(٢٦) سورة هود ١١/ ١٧.
(٢٧) يس ٣٦/ ١٢، الحجر ١٥/ ٧٩.
(٢٨) سورة الرعد ١٣/ ٣٩.
(٢٩) سورة الزخرف ٤٣/ ٤.
(٣٠) انظر كتاب "قس ونبي".

خامساً ـ الوحي والإلهام والنبوّة

لئن كان في اليهودية والنصرانيّة فرق بين الوحي والالهام والنبوّة، فانّ الاسلام لن يميّز بينهما . وسببُ ذلك هو أنّ الله هو مصدرُ كل ما في القرآن من وحي ونبوّة والهام وعلمٍ وشريعةٍ وحقائق . فنبيُّ المسلمين ليس له في القرآن أيّ تدخّل، فهو "لا يصوغُه بلفظه، ولا يلقيه بكلامه"[1] بل هو "لا يملك حتى حقّ استخدامِ ذاكرتهِ في حفظِ القرآن، بل اللـــه يتكفّل بتحفيظه ايّاه"[2] .

ويبدو أيضا من ايمان المسلمين بانّ محمّدا كان يتلقّى الوحي من الله بلفظِ الله وأسلوبهِ ولغتهِ وقراءتهِ وبيانه، ولا يملك محمّد أيّةَ حـــريّةٍ شخصيةٍ أو ارادةٍ ذاتية أو علمٍ من عنده . "انّه الوحيُ ينزل على محمد حين يشاءُ ربُّ محمّد، ويَفْتَرُ اذا شاءَ له ربُّ محمد الانقطاعَ، فما تنفعُ التعاويذُ والاسجاعُ، ولا تُقَدِّمُ عواطفُ محمّد ولا تؤخِّرُ في أمر السماء"[3] .

ويحرصُ محمّد، والله يكلّمه تكليما، أن يصرّحَ باستمرارٍ بانّه بشـــرٌ كسائر البشر، لا يملكُ من علم السماءِ شيئًا، ولا يعرفُ ما في خزائن الله، ولا يعلَمُ الغيبَ، ولا يزعمُ لنفسِهِ صِفةً ملائكيّة، ولا يمكنُهُ أن يدفعَ عـــن نفسهِ، لا خيرًا ولا شرا، بـــل يخافُ ان يبدّلَ بما يُوحى اليه[4] .

(١) الشيخ الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٣٠ .
(٢) نفس المرجع، ص ٣٣ .
(٣) نفس المرجع، ص ٣٨ .
(٤) القرآن: ٧/ ١١٨، ٦/ ٥٠، ١٠/ ١٥ـ١٦ ...

هذا الوحي كان يفاجئ محمّدا في أيّة ساعة : في النهار كما في الليل، في البرد كما في القيظ، في يقظته كما في منامه، في بيته كما في أسفاره، في ساعات الصلاة والعبادة كما في أحضان خديجة وسائر النساء، في عروجه الى السماوات كما في حروبه وغزواته وجمع المغانم ... انها مشيئة الله لا مشيئة محمّد . وانّه عملُ الله في محمّد . فالله " ذاتٌ متكلّمةٌ آمِـرة مُعطِيَة، و(محمد) ذاتٌ مخاطَبَةٌ مأمورةٌ متلقّية."[(٥)] .

ومع هذا التجرّد النبوي عن كل ذاته وعن كل ارادته، لم يسلَمْ محمّد، رغم التدخّل الالهي في كل شيء، من ألسنة المتّهمين الذين حسبوه مجنونًا، فقالوا "معلّم مجنون"[(٦)] ، وردّ اللهُ تهمتهم بقوله : "ما أنت بنعمة ربّك بمجنون"[(٧)] ، وحسبوه شاعرًا، وردّ الله عنه بقوله : "وما هو بقول شاعر"[(٨)] ، وحسبوه حالِمًا وحاكيا الشياطين[(٩)] ، و"ما هو بقول شيطان رجيم"[(١٠)] . وآخرون اتّهموه بانّه يأتي بما في صُحُفِ موسى وابراهيم[(١١)] وأساطير الاوّلين[(١٢)] ، وكان الله يتكفّل بالردّ العنيف .

* * * * *

فانطلاقا من هذا المفهوم القرآني للوحي يستبعد المسلمون ان يكونَ فيما بين الوحي والالهام وما يشبهه من تعابير أيّةُ علاقة . فلا الكشفُ

---

(٥) الشيخ الصالح ، مباحث...، ص ٢٧ .
(٦) سورة الدخان ٤٤ / ١٤ .
(٧) سورة ن والقلم ٦٨ / ١ .
(٨) سورة الحاقة ٦٩ / ٤١ .
(٩) سورة الانبياء ٢١ / ٥ .
(١٠) سورة التكوير ٨١ / ٢٥ .
(١١) سورة الاعلى ٨٧ / ١٨ـ١٩، النجم ٥٣ / ٣٧ـ٤٠، ٢٥ / ١٣٣ ...
(١٢) ٦ / ٢٥، ٨ / ٣١، ١٦ / ٢٤، ٢٣ / ٨٣، ٢٥ / ٥، ٢٧ / ٦٨، ٤٦ / ١٧، ٦٨ / ١٥، ٨٣ / ١٣ . وفيها ردّ التهمة

ولا الحَدْسُ الباطني ، ولا الشعور الداخلي ، ولا العرفان ، ولا الوُجْدُ ، ولا الذَوقُ الصوفي ، ولا العرفان ، أو اللاوعي و اللاشعور ... تستطيع أن تسموا بصاحِبها الى درجةِ الوحي والنبوّة .

ويكون الوحي كلّه من عندِ الله ، فلا بدّ أن يُلِمَّ بكلِ العلوم والحقائق التاريخيّة والكونيّة ، الماضية منها والمستقبلة . لهذا فان القرآن قد "صحّحَ بعضَ أخطاء وردتْ في الكتبِ السابقةِ تتناولُ عصمةَ الانبياء" ، وفنّدَ بعضَ المغالطاتِ التاريخية ، وصوّرَ محمّداً شاهِداً الاحداثَ كلّها ، مراقِباً اياها ، كأنّه يعيشُ في عصرِها بينَ أصحابها"[١٣] .

وامّا أمورُ المستقبل فلا حَصْرَ لها في القرآن ، لقد تنبأ بانتصار الروم على الفرس[١٤] ، وتنبأ بانتصارِهِ في معركة بَدْرِ الكبرى[١٥] ... وتنبأ عن علوم توصّل اليها العلمُ الحديث مؤخّراً ، كما عن علومٍ سيكتشفها في أجيال البشريّة اللاحقة[١٦] . ولو اطّلعَ البشرُ على جوانبِ القرآن "لأدركوا ، مثلَ جميعِ المنصفينَ عجزَ الزمان عن ابطالِ شيء منه ، ولأيقنوا أنّ علومَ الكونِ ستظلُّ جميعًا في خدمتهِ للكشفِ عن آياتِ الله في الآفاق والأنفس ، كما قال الله : "سَنُرِيهم آياتِنَا في الآفاقِ وفي أنفسِهِم حتى يتبيّنَ لهم الحقّ"[١٧] .

******

(١٣) الشيخ الصالح ، مباحث ... ، ص ٤١ وما يليها .
(١٤) سورة الروم ٣٠ / ١ــ٣ .
(١٥) سورة القمر ٥٤ / ٤٤ــ٤٥ .
(١٦) انظر كتاب : "القرآن والعلوم الطبيعية" ، "القرآن والعلم" ، "القرآن والطب" ، القرآن ومحاولة لفهم عصرى" الخ ... ذُكِرَتْ قبلا .
(١٧) الشيخ صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن ، ص ٤٧ .

ان المعجزة الكبرى في الوحي المحمدى هو القرآن نفسه، فهو الوحي ، وهو النبوّة، وهو الاسلام ، وهو كلامُ الله الذى لا يأتيه الباطل . لهذا تحدّى محمّد المشركين والكفّارَ وأهلَ الكتاب والانسَ والجنّ والشعراءَ والعلماءَ والفصحاءَ والبلغاءَ والمقاتلين والمسالمين وأهلَ الحق واليقين وأصحابَ الروح والتصوّف والملائكة والقديسين وكلَّ أصناف العالمين ... بأن يأتوا بمثلِ سورةٍ واحدةٍ من سُورِ القرآن لما استطاعوا ولو كانُ بعضُهم لبعضٍ ظهيرا ومعينا ...

وبكلمة : "القرآنُ هو نفسُ الوحي . وذلك تمامُ اعجازه".[18] . ومن ذلك حديث الرسول في شرف القرآن : "انه ستكون فِتَنٌ كقِطَعِ الليل المظلم . فقلت : ما النجاة منها يا رسولَ الله ؟ قال : كتابُ الله تباركَ وتعالى . فيه نبأُ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم . وهو فَصْلٌ ليسَ بالهزل . من تركه تجبّراً قصَمه اللهُ، ومَن ابتغى الهدى في غيرِه أضلَّهُ الله، وهو حَبْلُ اللهِ المتين، ونورُه المبين، والذكرُ الحكيم، والصراطُ المستقيم . هو الذى لا تزيغُ به الاهواء، ولا تتشعبُ معه الآراء، ولا يُشبَعُ منه العلماء، ولا يَمَلّه الأتقياء، مَن علمَ علمَه سبَق، ومن عَمِلَ به أُجِر، ومَن حَكَم به عَدَل، ومن اعتصَم به فقد هُدِيَ الى صراطٍ مستقيم".[19] .

وبذلك لا شيء من كتبِ الانبياءِ السابقين يضاهي القرآن . تلك الكتبُ كتبَها الانبياءُ بالهامٍ ربّاني ، وهم يحتفظون بشخصيتِهم وأرادتِهم وأسلوبِهم ولغتِهم وحرّيتِهم، وفي القرآن ليس لمحمّد من ذلك شيء ...

---

(١٨) الدكتور مصطفى صادق الرافعي ، اعجاز القرآن ...
(١٩) مقدمتان في علوم القرآن، تحقيق آرثر جفرى، ص ٢٥٦ .

سادساً - بين النبي محمد والأنبياء السابقين

لقد لاحظنا ، من خلال بحثنا ، أنّ بين نبوّة محمّد ونبوّة الأنبياء السابقين علاقةً قريبةً وتشابهًا ظاهِرًا وتداخلاً صريحا . وذلك واضح في نشدان محمّد "تصديقَ" التوراة والانجيل ، وفي اعتبارِ نفسِه نبيًّا من أنبياء العهد القديم . ويقوم هذا التقارب على نقاط عديدة . وكذلك أيضا بين الوحي القديم والوحي الاسلامي خلاف في جملة أمور ، نقف عندها .

١ - وجه المشابهة :

اعتبر محمّد نفسه نبيا من أنبياء الله [١] ، وصدّق أقوالهم [٢] ، واستشهد بهم [٣] ، وعلّم تعاليمهم [٤] ، واستعمل أسلوبهم [٥] ، وصنع المعجزات مثلهم [٦] . لقد بشّر بكلمة الله كما هم بشّروا [٧] ، ووضع الشرائع الألهية والقوانين الاجتماعية كما هم وضعوا [٨] ، وقام بوجه الوثنيين والكفّار كما هم قاموا [٩] . وشدّد مثلهم على وحدانية الله [١٠] ،

---

(١) القرآن ٢/ ١٣٦، ٤/ ١٦٣، ٣٣/ ٧ ...
(٢) ٢/ ٤١، ٩١، ٣/ ٥٠، ٥/ ٦٥ و ٤٨، ٣٥/ ٣١ ...
(٣) ١٩/ ٥١، ٢٨/ ٣، ٤٨، ٤٨/ ٢٩ ...
(٤) ٥/ ١١٠، ٣/ ٤٨ ...
(٥) ٤٢/ ٥١، ١٣/ ١٧، ١٤/ ٢٥، ٢٤/ ٣٥ ...
(٦) ٣/ ٨٦، ٤٠/ ٦٦، ٦١/ ٦، ٧٢/ ١ ...
(٧) ٧/ ٢٥٧ .
(٨) ٤٢/ ١٣، ٤٥/ ١٨ ...
(٩) ٩/ ٧٣، ٦٦/ ٩ ...
(١٠) ٢/ ١٦٣، ١٨/ ١١٠، ٢٢/ ٣٤، ٢١/ ١٠٨، ١٦/ ٥١ ...

وأبرز مثلهم اهتمام الله بالبشر وعنايته بهم وحاجتهم اليه[١١] . وأظهـر صلة الانسان بالله كما هم فعلوا[١٢] ، وأبان كمالات الله كما هم أبانوا : فالله، عندهم ، خالق الانسان والكون[١٣] ، معتن بالخلق أجمعين[١٤] ، عليم بالانسان وبمصيره[١٥] ، سميع لتنهدات صدره[١٦] ، بصير بما يعمل في السرّ وفي العلانية[١٧] ، رحوم غفور لخطاياه[١٨] ...

وشأن الوحي ، في الانبياء كما عند محمّد ، انّه اعلان الله ذاته بذاته بواسطة أنبيائه ، لأنّ الله لا يكشف عن مقاصده الخفية الا لعبيده الانبياء[١٩] ، لانّه الهٌ محتجبٌ عن بصائر البشر ، فلا ينالُه انسانٌ مطلَقا ، ويفوقُ مداركَ كلِ انسان بما لا يُحدّ[٢٠] . فلولا الوحي لبقيتْ ذاتُه مستترةً، وأسرارُه خفيّةً، ومعرفتُه مستحيلةً، وصفاتُه غيرَ مدرَكـة ، واسمُه محتجِبًا على الجميع[٢١] . ولولا الوحي لعجزَ الانسانُ عن تدبير خلاصِهِ، وتنظيمِ حياته الدنيا ، وترتيبِ أمورِ نفسه ، لذلك كانتِ الشريعةُ الالهيةُ نظاما للبشر وقاعدة لسلوكهم[٢٢] .

ثم انّ النبوّة، في الاسلام كانت أم في اليهودية، هي هبةٌ من الله مجّانيّة، تُعطى لبعض الناس فيتكلّمُ بما يمليه عليه الله، لا بما

---

(١١) ٤٠/٤ ، ٦١/١٠ ، ٣/٣٤ ، ٧/٩٩ ...
(١٢) ١٧/٢٦ ، ٥/٣٠ ، ١٢/٤٩ ...
(١٣) ١٠١/٦ ، ٣/١٦ ، ٤ ، ٣/٥٥ ...
(١٤) ٢٩/٢ ، ٣/٦٤ ، ٧/٨٢ ...
(١٥) ٩٧/٥ ، ٥/١١ ، ٧/٣٩ ...
(١٦) ٢٢٠/٢٦ ، ٣٩/١٤ ، ٣٨/٣ ، ٧٧/٢ ...
(١٧) ٣٣/٢ ، ٣٨/١٤ ، ٩٩/٥ ، ١٩/١٦ ...
(١٨) ١٤٩/٧ ، ١٥٥ ، ١٢٩/٣ ، ٣٤/٥ ، ١١٨/٢٣ ...
(١٩) النبي عاموس ٣/ ٦ قابله مع سورة طه ٢٠/ ١٣ .
(٢٠) أيوب ٤٢/ ٣ وأشعيا ٤٥/ ١٥ قابل الانعام ٦/ ١٠٣ و ٧٠/ ٥ ..
(٢١) تثنية الاشتراع ٢٩/ ٢٨ ، دانيال ٢/ ٧ قابل الشورى ٤٢/ ١١ ...

يمليه عليه عقله : جاء في رسالة القديس بطرس: "لم يأت نبوّة قط بارادة بشر، ولكن الروح القدس حمل بعض الناس على أن يتكلّموا من قبل الله"[٢٣]، وجاء في سورة طه : "وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى"[٢٤]، وجاء أيضا في سورة النحل: "قل نزّله روح القدس من ربّك"[٢٥]، وأيضا في سورة الشعراء: "نزل به الروح الأمين على قلبك"[٢٦].

فمبدأ النبوّة، ومواضيعها، وطرقها متّفقة اذن فيما بين القرآن والنبوّات القديمة. ولهذا جاء كتاب محمّد "مصدقا لما بين يديه من التوراة"[٢٧]، أو هو "تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب"[٢٨].

٢ـ أوجه التباين والخلاف :

انّ ما يجعلُ النبوّةَ في الاسلامِ تختلفُ عمّا هي في اليهودية أكثر ممّا يقارب بينها. ونقاطُ التباينِ لأعمقُ من نقاطِ الوفاق. وأهمّ ما يقع عليه التباينُ يكمنُ فيما يلي : في سيرةِ الأنبياءِ مع الله، وفي صراعِهم مع ما لا يستطيعون حَمْلَه، وفي ضغطِ كلمةِ الله عليهم، وفي شعورِهم بثقلِ الرسالة الملقاة على عاتقهم، وفي تردّدِهم المستمرّ في اتّباعِ طرق الله حتى نهايتها، وفي غير ذلك ... كل هذه لم يتعرّضْ محمّدُ لِمَتاعِبها في سيرتِه مع الله. فلننظر :

(٢٢) خروج ٢٠ / ١ــ١٧ وتثنية الاشتراع ١٢ــ١٦ / ١٥ ــ معظم سور القرآن.
(٢٣) ٢ بطرس ١ / ١٩ــ٢١
(٢٤) طه ٢٠ / ١٣.
(٢٥) ١٦ / ١٠٢.
(٢٦) ٢٦ / ١٩٣.
(٢٧) ٥ / ٤٦، انظر ٢ / ٤٨، ٤١، ٩١، ٩٧، ٣ / ٣ و ٣٩ و ٥٠، ٤ / ٤٧، ٣٥ / ٣١، ٤٦ / ٣٠، ٦١ / ٦ ...
(٢٨) ٢ / ١٠١، انظر ٢ / ٨٩، ٣ / ٨١، ٦ / ٩٢، ٤٦ / ١٢ ...

* لقد تلقّى النبيّون الوحيَ من عند الله مترددين، لانّهم غيرُ جديرين بالقيام بعبء الوحي الثقيل، ولأنّ عيوبهم البشريّة كثيرةٌ لا تخوّلهم الامتثالَ أمام الله، ولأنّ الخوفَ يعتريهم عندما يسمعون كلمةَ الله : لقد قال موسى انّه غيرُ جدير بمثلِ هذا العمل : "لستُ أنا صاحبَ كلامٍ منذ أمس ولا أوّل من أمس... بل أنا ثقيلُ الفم واللسان".[٢٩] وشعرَ أشعيا بأنّ عيوبَه أمامَ الرب كثيرةٌ : "ويلٌ لي انّي هلكتُ لأنّي انسانٌ نجسُ الشفتين، وأنا ساكنٌ بين شعبٍ نجسِ الشفتين، لانّ عينيّ قد رأتا المَلِكَ ربَّ الجنود".[٣٠] وأحسّ أرميا بخوفٍ كبير عندما دعاه الله، وكان لا يزالُ فتى، فقال : "آه يا سيّد الرب، أني لا أعرفُ ان أتكلّم لاني ولد ...".[٣١]

* وفوق ذلك، يظهر الوحيُ وكأنّه محنةٌ ابتلىَ اللهُ بها عبيدَه الانبياء : فهذا موسى الذى ابتلاه الله بشعبٍ قاسي الرقبة[٣٢]، وايليّا الذي التمس لنفسِه الموت[٣٣]، وأرميا الذى أمرَه الربّ أن يصنعَ "رُبُطاً وأنياراً ويجعلَها على عُنُقِه"[٣٤]، ويُعلِنُ موقفَه بقولِه : "قد خَدَعْتَني يا ربّ فانخدعتُ، ألححتَ عليّ فغُلِبْتُ".[٣٥]، وأشعيا يُثيرُ النزاعَ بينَه وبين الله[٣٦]، ويكلّمه اللهُ بالقاءِ يدِه عليه وبانذارِه اياه[٣٧]، وحزقيال يرضخُ ليدِ الربِ القديرةِ تدفعُه الى الهربِ والاستنكار[٣٨] وغيرهم ...
لكأنّ الوحيَ مصيبةٌ تثقّلُ كاهِلَهم وتجعلُ منهم "انسانَ خصامٍ ونزاعٍ للارض كلّها".[٣٩]

---

(٢٩) سفر الخروج ٤/ ١٠ .
(٣٠) نبوة اشعيا ٦/ ٥ .
(٣١) نبوة ارميا ١/ ٦ـ٨ .
(٣٢) سفر العدد ١١/ ١١ .
(٣٣) سفر الملوك الثالث ١٩/ ٤ .
(٣٤) ارميا ٢٧/ ١٨ .
(٣٥) أرميا ٢٠/ ٣ـ٩ .
(٣٦) اشعيا ٦/ ٨ .
(٣٧) اشعيا ٨/ ١١ .

* وفوق ذلك أيضا ، يدفع الوحي بالأنبياء أحيانا الى الاستشهاد والموت في سبيل الله . فلا الهرب ، ولا الثورة، ولا الشكوى المريرة، ولا أيّ شيء آخر يستطيع أن ينجّي النبيَ من ضغطِ الله عليه . وبقدر ما يرفضُ النبيّ مهمّتَه ووحيَه بقدر ما يستحثّه الوحيُ للخضوع: فغضبُ الله أجبرَ تعنّتَ موسى لقبولِ الرسالة، والعاصفةُ والتنّين أعادَا يونانَ بالقوّة إلى النبوّة، وايليا أعِدَّ مرغَماً لرسالة جديدة، وأرميا بقي أسيرًا لكلمة الله ...

وليس من نبيّ استطاعَ التفلّتَ من يد الله . وقد عبّرَ النبي عاموس باسهابٍ عن هذه الملاحَقةِ الالهية، ومثّلَ نفسَه مع اللهِ بقوله : "كالاسدِ وفريستِه، والعصفورِ وفخِه، والبوقِ في الحرب . تكلّمَ الله فمَنْ لا يتنبأ ؟" (٤٠) . وشهد التاريخُ النبوي على استشهادِ الانبياء شهادةً واقع : لقد أُعدِمَ الأنبياءُ في أيام آخاب (٤١) ، وفي أيّام منسّا (٤٢) ، وفي أيّام يواكيم (٤٣) . ولم يرَ ارميا ذلك أمرًا غريبا (٤٤) ، اذ أصبحَ الموت في سبيل الله أيّامَ نحميا شيئًا عاديا (٤٥) . وقد أشارَ المسيح الى هذه الحالة النبويّة التعيسة بوضوح ، فقال : "أورشليم قاتلة الانبياء وراجمة المرسلين اليها" (٤٦) .

---

(٣٨) حزقيال ٣/ ١٤ .
(٣٩) ارميا ٥/ ١٠ .
(٤٠) عاموس ٣/ ٣ـ٨ .
(٤١) ٣ ملوك ١٨/ ٤ و ١٣، ١٩/ ١٠ .
(٤٢) ٤ ملوك ٢١/ ١٦ .
(٤٣) ارميا ٢٤/ ٢٠ـ٢٣ .
(٤٤) ارميا ٢/ ٣٠ .
(٤٥) نحميا ٩/ ٢٦ .
(٤٦) متى ٢٣/ ٢٧ .

* يجب أن نقرّ ونعترف : ان محمّدا كان مع الله مرتاحا ومرتاحا جدّا . بل كان على "سكينة" واطمئنان تامّين . جاء في القرآن : "أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين"(٤٧) ، و "أنزل الله سكينته عليه وأيّده بجنود لم تَروها"(٤٨) . وليس في القرآن صلاةٌ واحدة بها يتضرّع النبي الى الله ليبعد عنه ثقل الرسالة والمهمّة . بل انّه آمنٌ من كل خوفٍ ورعدة أمام عظمة الله وجبروته . وجلّ من نرى من متاعبَ أنهكتْ قوى النبي كان يأتيه ذلك من الكفّار والمشركين . أمّا مع الله فهو يرى نفسَه أهلا لذلك ، وبمقدوره أن يقومَ بهذه الدعوة . وما نراه في كتب السيرة والاحاديث شيء لا يعتدّ به ولا يحسب له حساب .

* أمّا التباين الأشدّ عمقا فهو في موضوع النبوّة . من المعروف أنّ موضوعَ النبوّة انما يكون من طبيعةٍ دينية ، ايمانيّة ، خلاصية ، لا بحث فيه عن المعضلات العلمية ، والامور التاريخية ، ولا معالجة في نظريّات ماورائيّة أو فلسفية أو اجتماعيّة . موضوع النبوّة الاساسي هو اعلان الله عن مقاصده ، التي فيها يعلن عن عمله الخلاصي . الخلاص ، خلاص الانسان هو موضوع الوحي والنبوّة ، وهو مقصود الله ، وتدبيره ، ومشيئته ... ولن نجد ، في القرآن ، شيئا من ذلك ، بل لا ورود ، في القرآن ، لكلمة "خلاص" ... في حين أنّ موضوعَ نبوّاتِ العهد القديم الاساسي هو الاعلانُ عن مجيء "المخلّص" ، الذى تحقّقَ ، في المسيحية ، بـ "المسيح" . لذلك ، فبالنسبة الى المسيحية ، عندما جاء المخلّص ، انتهت النبوّة ، أى عندما تحقّقت النبوّات في المسيح بطلتْ . وأحداثُ النبوّات القديمةِ لم تكنْ لِتدرَك

---

(٤٧) ٩/ ٢٦ ، ٤٨/ ٢٦ .
(٤٨) ٩/ ٤٠ ... انظر المقدمة ص ٢١ـ٢٣ .

معانيها لولا أحداثُ المسيح وتعاليمه وأعمالُه التي فسّرتها وأعطتها المعاني الحقيقيةَ لها : فالمسيح ، بالرؤية المسيحية، أظهرَ كلَّ سرّ مكتوم منذ الأزل(٤٩) ، وأوحى معنى الكتب المحتجب(٥٠) ، وانتهى به الناموس وعَمَلُ الناموس(٥١) ، وانكشفَ به كلُّ مستور : "لا شيء يبقى مستورا بعد اليوم، كلُّ شيء يجبُ أن يظهر، ولا شيء يجبُ أن يبقى غيرُ معروف"(٥٢) . ولولا المسيح لما انكشف سرّ الله للناس(٥٣) ...

هذه الحقائق النبويّة، في اليهوديّة كما في المسيحية، لا نجد لها مثيلا في الاسلام، لأنّ موضوعَ النبوّة المحمّدية وغايتَها يختلفان تماما عن موضوع النبوّة وغايتِها عمّا هي في المسيحية. ولئن أعلنُ محمّد بأنّه "خاتَم النبيين"(٥٤) ، فلا شيء يشير الى أنّه من طينتِهم وجبلتِهم ورسالتِهم ومهامّهِم، كما لا شيء يشير الى أنّه يُتِمُّهم ويكمّلُهم .

* ومن حيث أساليب النبوّة فهناك أيضا تباينٌ واضح في الاسلام عمّا هي في اليهوديّة . لقد أتى الوحيُ الأنبياءَ بطرقٍ شتى وأساليبَ مختلفة(٥٥) ، وذلك بحسب قدرةِ الناس على فهمها، وبحسب مقاصدِ الله في اعلان الحقائق الموحاة . وأهمّ ما في التوراة من أساليب الوحي هو كما يلي :

---

(٤٩) انجيل مرقس ٤/ ١١ ...
(٥٠) انجيل متى ١٦/ ٢١ ...
(٥١) انجيل يوحنا ١٩/ ٢٨، رسالة غلاطية ٤/ ٤ ..
(٥٢) انجيل مرقس ٤/ ٢٢ .
(٥٣) انجيل متى ١١/ ٢٧ .
(٥٤) سورة الاحزاب ٣٣/ ٤٠ .
(٥٥) الرسالة الى العبرانيين ١/ ٢ .

أ ـ الاحلام والرؤى · هي أولى أساليب الوحي التي أوحى بها الله الى أنبيائه · وقد استعملها الانبياء بعد أن أخذوها عن الشعوب الشرقيّة القديمة وجرّدوها من بقايا السحر والشرك والتنجيم [٥٦] ، وبعد أن أضافوا اليها بعض القيم الروحية الخاصّة بهم وبالشعب اليهودى · وقد رضي الله ذاته عن هذه الطرق التقليدية البدائية : فالكهنة كانوا يطلبون قضاء أوريم وتوميم لمعرفة قصد الله [٥٧] ، ويوسف كان يملك قدحا للكهانة [٥٨] ، وهو خبير في تفسير الاحلام [٥٩] ، لكأنّ الاحلام هي ، عند اليهود ، علامات السماء [٦٠] · وبقي هذا حتى جيل متأخر [٦١] · ولكن عرف بنو اسرائيل فيما بعد كيف يميّزون الاحلام الصادقة التي تأتي من الله [٦٢] من الاحلام الكاذبة التي يقوم بها الكهان المحترفون [٦٣] ، وقد نقضها الانبياء واعتبروها غير صادقة [٦٤] ·

أمّا بالنسبة الى الاسلام ، فلن تكون الاحلام من أساليب النبوّة الصحيحة : لقد اعتبر النبي محمّد الاحلام كوسوسة شيطانيّة يقوم بها الشيطان ليبعد النبي عن مهمّته ، لذلك نرى القرآن يقول : "وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين" [٦٥] ، وينسب الاحلام الى الشعراء : "قالوا : أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر" [٦٦] · أمّا بالنسبة الى الرؤيا فيختلف الحال · انها صادقة وحقّ : "قد صدقت الرؤيا" [٦٧] أو

---

(٥٦) أحبار ١٩/ ٢٦، تثنية الاشتراع ١٨/ ١٠، ١ملوك ١٥/ ٢٣، ٢٨/ ٣٠·
(٥٧) سفر العدد ٢٧/ ٢١، تثنية الاشتراع ٣٣/ ٨ ·
(٥٨) سفر التكوين ٤٤/ ٢ و ٥ ·
(٥٩) سفر التكوين ٤٠/ ٤٠ و ٤١ ·
(٦٠) تكوين ٢٠/ ٣، ٢٨/ ١٢ـ١٥، ٣١/ ١١، ٣٧/ ٥ـ١٠ ·
(٦١) قضاة ٧/ ١٣، ٢ ملوك ٢٨/ ٦، ٣ ملوك ٣/ ٥ـ١٤ ·
(٦٢) عدد ١٢/ ٦، تثنية الاشتراع ١٨/ ٢ ·
(٦٣) أحبار ١٩/ ٢٦، تثنية الاشتراع ١٨/ ٢ ·
(٦٤) اشعيا ٢٨/ ٧ـ١٣، ارميا ٢٣/ ٢٥، جامعة ٥/ ٢، سيراخ ٣٤/ ١ ···
(٦٥) سورة يوسف ١٢/ ٤٤ ·
(٦٦) سورة الانبياء ٢١/ ٥ ·

" لقد صدق الله رسول الرؤيا بالحق".[٦٨] لهذا فهي فتنة للناس لانهم لا يدركون كنهها : " وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس".[٦٩]

ب ـ ثم تخطّى الأنبياء هذه الطرق البدائية في تقبّل الوحي، وأصبحت النبوّة معهم في مرحلتها الثانية تعتمد على الرؤية والسماع[٧٠]. الاّ أنّ الرؤية بقيت لغزا لا يكشف عن حقيقة النبوّة، لذلك استتر برموز من الاديان الشرقية القديمة وبأشارات غامضة لا يدركها عامّة الناس[٧١]، ولذلك أيضا استتر برموز واشارات ابتكرها الانبياء ليخفوا عن الناس كيفية رؤيتهم لله وحصول الوحي والنبوّة[٧٢]. ولكن بعض الاحيان يكون سماع ولا تكون رؤية، لان رؤية وجه الله أخطر من سماع صوته، بل لا يستطيع انسان أن يرى وجه الله ويبقى حيّاً[٧٣].

أمّا بالنسبة الى الاسلام فلم يذكر القرآن أنّ محمدا رأى الله أو سمع صوته. جل ما يذكره ان الله أعطى محمّدا أن يرى آياته فقط[٧٤]، ولا يحقّ للنبي أو لأى انسان آخر أن يرى وجه الله بحال من الاحوال[٧٥]، كما لا يحقّ له أن يسمع صوته. وما يسمعه هو آيات من الله[٧٦]. فليست الرؤية اذن ولا السماع من طرق الوحي في القرآن. هناك فقط المَلَك جبريل، ساعي البريد النبوى الامين، والواسطة التي قامت بالمهمّة.

(٦٧) سورة الصافات ٣٧/ ١٠٥.
(٦٨) سورة الفتح ٤٨/ ٢٧.
(٦٩) سورة الاسراء ١٧/ ٦٠.
(٧٠) سفر العدد ٢٣/ ٣ و ١٥
(٧١) املوك٢٢/ ١٦، اشعيا ٦/ ١، حزقيال ١/ بمجمله.
(٧٢) ارميا ١/ ١١، حزقيال ٩ بمجمله، عاموس ٧/ ١ـ٩.

جـ - ثم هناك وحي بطرق أخرى : باعمال الفكر، وميل القلب، والاعتماد على الفطنة[٧٧]، والاخذ بالحكمة[٧٨]، فهي كلّها من جوهر الله ومن طرقه في الوحي[٧٩] ... هذه الاساليب النبويّة، بمعناها الكتابي، لا يوجد منها شيء في الاسلام . ولئن رأينا بعضها في القرآن فذاك يكون تلميحا، ومن باب التعليم الذى اتّخذه النبي محمّد ليفهم الناس مدى علاقتهم بالله . -

* ثم انّ بين نبوّة العهد القديم ونبوّة الاسلام فرقا آخر، وهو من صميم الحياة النبويّة . ويقوم على أنّ النبي لا يستفيد لنفسه من نبوّته، بقدر ما يفيد الآخرين . ألنبوّة عطاء وتضحية تتعدّى شخصيّة النبي . قد يجلب النبي على نفسه العذاب والآلام الكثيرة في سبيل الخدمة . وقد تقوم عليه قيامة البشر أجمعين، لأنّه لا يراعي أميالهم وأهواءهم . انّه "انسان خصام ونزاع للارض كلّها"[٨٠] . انّه سائح في الارض تائه من أمام وجه الله، لا يعرف راحة ولا لذّة ولا هدوء، مضطهَد لا عزاء له فيما بين البشر . يهمّه الخدمة حتى التضحية في سبيل شعب الله[٨١] ...

غير ذلك أمر النبيّ العربي : لقد خاض معارك كثيرة، وجاهد في سبيل "مغانم كثيرة"، وأسّس حكما ودولة، واضطهد الناس بالسيف

---

(٧٣) سفر الخروج ٣٣/ ٢٠، انظر : ١٩/ ٢١، أحبار ١٦/ ٢، عدد ٤/ ٢٠
(٧٤) القرآن : ١٧/ ٦١، ٢٠/ ٢٣، ٥٦، ٧٩/ ٢٠ ...
(٧٥) القرآن : ٦/ ٧٦-٧٨ .
(٧٦) القرآن : ٢٠/ ١٨ .
(٧٧) سفر الامثال ٢/ ١-٥، ٨/ ١٢ و ١٤ .
(٧٨) سفر الحكمة ٢/ ٦ .
(٧٩) سفر الحكمة ٧/ ١٥-٢١ .
(٨٠) نبوة ارميا ٥/ ١٠ .
(٨١) انظر : أيوب ٤٠/ ٤، اشعيا ٦/ ٨، حزقيال ٢/ ٢، ارميا ٢/ ٦ ...

والعنف. وهو يَعِدُ أصحابَه بـ" مغانم كثيرة يأخذونها" (٨٢)، و"عند الله مغانم كثيرة" (٨٣). و"أغناهم الله ورسوله من فضله" (٨٤)... لقد كان محمّد، على الناس، حَكَمًا وقائدًا وقاضيا يقسّم الارزاقَ والمغانم فيما بينهم، ويستفيد منها "الخمس" (٨٥). في حين ان المسيح أجاب رجلا يريد اقتسام الميراث مع أخيه: "يا رجل، من أقامني عليكم قاضيا أو قسّاما؟" (٨٦).

* وفرق آخر: لقد كانت أمنيةُ الشعب اليهودى أن تكون النبوّة مشتركة وعامّة بين كل أفراده. لهذا صلّى موسى وتمنّى على الله: "ليت جميع أمّة الرب أنبياء، يجعل الرب روحه عليهم!" (٨٧). ورغب اسرائيل أن يكون لله "مملكة أحبار وشعبا مقدّسا" (٨٨). فلا يعود هناك تمييز في مملكة الله، أو تباين بين أفراد الأمّة اليهودية في علاقتهم بالله.

أمّا في الاسلام فالأمر يختلف تماما: لن تكون النبوّة في المسلمين الآ لمحمّد، ولن تعطى النبوّة بعد محمّد لأحد. لقد أُغلِقَ البابُ وأُحكِمَ غُلقُه، وكان "خاتَم النبيين" (٨٩). ولن تكونَ كلمةُ الله على انسان واحد بعد محمّد يستحقّ أن يكونَ وسيطا أو شفيعا أو قدّيسا غيره لدى الله. فالنبوّة، في الاسلام، حَكَرٌ لمحمّد، رغم ان صفاتِ النبوّة تنطبقُ على

(٨٢) سورة الفتح ٤٨/ ١٩.
(٨٣) سورة النساء ٤/ ٩٤.
(٨٤) سورة التوبة ٩/ ٧٤.
(٨٥) سورة الانفال ٨/ ٤١.
(٨٦) انجيل لوقا ١٢/ ١٣-١٤ ولكن موسى كان قائدا وقاضيا: خروج ٢/ ١٤.
(٨٧) سفر العدد ١١/ ٢٩.
(٨٨) سفر الخروج ١٩/ ٦.
(٨٩) سورة الاحزاب ٣٣/ ٤٠.

كثيرين من الناس المتفوّقين . ولهذا كثير منهم ادّعى ، في الاسلام ، النبوّة لنفسه : " فمن أولئك مسيلمة بن حبيب الكذّاب ... وعبهلة بن كعب ... وطليحة بن خويلد الاسدى ... وسجاح بنت الحارث التميمية ... والنضر ابن الحارث ... وابن المقفع الكاتب البليغ ... وابن الراوندى ... وشاعر الاسلام ابو الطيّب المتنبّي ... وأبو العلاء المعرّى ... "(٩٠) .

* وأخيراء ان النبوّة في اليهوديّة لها قيمةُ ادراكِ المطلَق أكثرُ من كونها استباقَ معرفةِ المستقبل ، أو تنظيمَ أحوال المجتمع ، أو تأسيسَ دولةٍ الهيّة على الارض ، أو سنّ شرائعَ وقوانين ، أو ادراكُ وقائعِ العلوم قبل اكتشافها ، أو معرفةَ حلولِ عِقَدِ الانسان ومشاكلِه ، أوغيرَ ذلك ممّا نراه في الاسلام . ولئن كان للنبوّاتِ القديمة معنى اكتشافِ المستقبلات قَبْلَ حدوثها ، فانّها تطمعُ بذلك في اكتشافِ المطلَق ومعرفتِه . فالنبوّة كانتْ حَنيناً الى معرفةِ الله أكثرَ منها حنينٌ الى معرفةِ الغد . وجوهرُ النبوّة يقوم على ادخال الله في تاريخ البشر ، وعلى اعلان مقاصدِ الله الخلاصية ، وفي النتيجة على تجسّدِ الله فيما بين البشر ليتمكّنوا من سعادتهم به . وهذه كلها أمور لا شأن لنبوّة محمّد ووحي القرآن فيها .

****

بعد هذا كلّه ، يجب أن نعرف جملة أمور هامّة في مفهوم الاسلام للوحي والنبوّة . هذه الأمور هي من خصائص المسلمين دون سواهم من الناس :

---

(٩٠) أنظر الدكتور مصطفى صادق الرافعي ، اعجاز القرآن ، ص ١٧٢ـ ١٨٧ حيث يستعرض المتنبئين وسيرتهم واعمالهم في منافسة القرآن ...

أوّلا ــ ان الاسلام مؤسّس على القرآن، لا على محمّد . وقد يزول محمّد ويبقى القرآن فيبقى الاسلام ما بقي القرآن .

ثانيا ــ ان القرآنَ دليلٌ على رسالة محمّد وبرهان وحيد على نبوّته، وليس العكس . ولو كان العكس صحيحا لكان الرسول أسمى من الرسالة، ولكان محمّد أعظم من القرآن . والحال ان الرسالة هي الأصل . ولم يكن محمّد الاّ بشيرا ونذيرا ومبلّغا . قال القرآن: "وما على الرسول الاّ البلاغ المبين."(٩١) و "ان لم تفعل فما بلّغت رسالته."(٩٢) .

ثالثا ــ ان القرآن لا يُظهرُ شيئا عن الرسول: عن سيرتِهِ وأعماله وأقواله، وان فعلَ شيئا من ذلك فبالعَرَض. ولا يُعْقَل ان يكونَ الأمرُ غيرَ ذلك، لأنّ القرآنَ، في معتقدِ المسلمين، كتابٌ أزليٌّ سابقٌ وجودُه على وجودِ محمّد .

رابعا ــ انّ العِلمَ في الاسلام هو "عِلمُ القرآن"، لا "عِلمُ الله" أو ما يسمّى اليوم بـ"اللاهوت"، لأنّ الله، في الاسلام، لا يُدْرَك، ولا يُوْصَف. ولئن نرى، اليوم، عند المسلمين، بعضَ دراساتٍ عن مواضيعَ الهيّة، فبتأثيرٍ من الآدابِ المسيحية واللاهوتِ المسيحي . الأصلُ في علوم الاسلام هو "علومُ القرآن"، اذ القرآنُ هو "كلامُ الله"، وعليه تدور المباحثُ والابحاثُ والعلمُ والمعرفةُ والخلاصُ والادلّةُ والاطمئنان ... وان صحَّ لدينا انشاءُ كلمةِ "كُورَانُولُوجي" فتكونُ متناسِبةً مع ما يُسمّى بالمسيحية بـ"الكريستولوجي"، وليس لـ"علم الانجيل" من مكان في اهتمام المسيحيين .

خامسا ــ ان الاحداثَ التي ألزمتْ نزولَ الآياتِ زالتْ. ولكنّ

(٩١) القرآن : ٢٩/١٨، ٢٤/٥٤، ٥/٩٢ ...
(٩٢) القرآن، سورة المائدة ٥/٦٧ ...

الآيات لا تزول. وكيف يكون ذلك: الاحداث تتغيّر والآياتُ الحاكيةُ عنها لا تتغيّر!! كيف يتغيّرُ المجتمعُ والعصرُ والعلم والناسُ، ونظمُ القرآنِ هي هي لكل مجتمعٍ وعصرٍ وعلم!! لئن جازَ للنبي نَسْخُ آياتٍ بآياتٍ طيلةَ ثلاثٍ وعشرينَ سنة، أفلنْ تكفي ألفُ وأربعُمائةِ سنة وسنتان لِنَسْخِ آياتٍ، وتنزيلِ أخرى من لدن الرب الرحيم!!

ولكن، اذا عرفنا منطقَ القرآنِ والاسلام والمسلمين، نتأكّد أنّ العالَم القرآني يدورُ في زمن دائري، على طريقةِ الميتولوجيّة اليونانيّة، وبوحي من الصحراءِ المترامية الاطراف، وبالهامِ السماء اللامتناهية. كل ما في الاسلام على نَحْوٍ سَبَق. لهذا فتطوّرُ الحياةِ وتغيّرُ الاحداثِ لا قيمةَ لهما البتة في نظرةِ المترامي الابعادِ واللامتناهي الحدود. فالكلُّ في القرآن يدور على نفسه وعلى مثالٍ سابقٍ محتّم.

سادسا — انّ القرآن هو كتابُ عقيدةٍ وتشريعٍ ونُظُم حُدِّدَتْ وثُبِّتَتْ من لدنِ العليّ العليم، ولا شأنَ فيه للوقائعِ الزمنيةِ المتبدلّة. هو كتابُ دينٍ فيه من الفرائضِ والواجباتِ المنزَلةِ ما لا يستطيعُ الانسانُ، في ظروفه الراهنة، تبديلَ شيءٍ فيها. انه كتابٌ يشيدُ بـ تَعَالِيَةِ الله، وبُعْدِه عن الانسان، ووحدانيته المطلقة، حتى لم يبقَ له بالانسانِ الضعيفِ أيّةُ علاقة. ومن هنا كانتْ بعضُ الفِرَقِ التي نشأتْ في الاسلام وَنَمَتْ تَرَى نفسَها مضطرَّةً لبعضِ التجسّداتِ الالهيةِ، فكانتِ الدرزيةُ تقول بتجسّدِ اللهِ في الحاكِم، والنصيريةُ في عليّ، وغيرها ... حتى المسلمونَ أنفسُهم اضطُرّوا الى أن يُعطُوا لمحمّد دورًا الهيًّا وصفاتٍ كماليّةً حتى كادَ يلامس التأليه ...

****

خاتمة الفصل

اذا أردنا استقصاءَ معجزاتِ الله مع نبيّه، في هذا الفصل، لعجزنا عن حصرِها وتعدادها، بل انّها فائقةُ الوصف والحدّ : فمن معجزةِ اختيارِ الله لمحمّد منذ الأزل، الى معجزاتِ استقبالِه الظافر قَبْل مجيئه، الى معجزاتِ مولدِه، وطفولتِه وزواجِه من خديجة، الى معجزاتِ جبريل ساعي البريد النبويّ الأمين، الذى استمرَّ على اتّصالٍ دائم مع النبي طيلةَ ثلاثٍ وعشرين سنة، الى معجزةِ اشتراكِ خديجة بتفسير الرؤى والاحلام وبتأكّدها من الوحي ينزلُ على زوجها، الى معجزةِ تنقّلِ خديجة فيما بين بَعْلِها وابنِ عمّها القسّ ورقة، الى معجزاتِ الوحيّ ينصبُّ على النبيّ فتتعثّرُ الجنُّ والشياطينُ لِهَول ما يسمعون فاذا الواحدُ منهم يتسمّع ويقول لأخيه : "انّا سَمِعْنا قرآنا عجبا" (٧٢/ ١) ...

لقد تفتّحتْ أبوابُ السماء، ونشطتِ الملائكةُ تسعى فيما بين الله ومكّة، وجندُ الله يحرسون طريقَ جبريل على الصفّين، وهو يحملُ الى محمّد أعظمَ هديّةٍ من السماء الى الارض، ألَا وهي كلامُ الله. واستمرَّ جبريلُ محظوظًا بهذه الرسالة، ويتشوّفُ على خَلقِ الله أجمعين. ومن حظِ جبريل العظيم ألاَّ يُسَلِّمَ الهديةَ دفعةً واحدة، لئلا تنتهي مهمّتُه سريعا، بل راحَ يقسّطُ الآياتِ، واحدةً فواحدة، لتطولَ مدّةُ تنقّلِه السعيدِ فيما بين اللهِ والنبيّ، أو لأنّ جبريلَ استلذَّ دفءَ بيتِ النبي، أو أيضا لانّه سَئِمَ من البطالةِ التي طالَتْ مدّتُها أكثر من ستّمائة سنة ...

وبعد خمسة عشر جيلا ما الذى حدث لجبريل! ألم يعد الينا نحن المساكين! ألم يسئمْ من تسابيحَ رفاقِه الأطهار! ألا يعودُ ليرى ماذا صار برسالته النبويّة! ألا تلذُّ له العودةُ الى الأرض، وقد أصبحَ كلُّ شيء فيها جميلا، منظّما، كاملا، بتلك الآياتِ التي نزّلها قديّما الينا! أليسَ عنده شيءٌ جديدٌ يريدُ ارسالَه الينا! ألعلّ الله لم يَعدْ يَثقُ به! أو لعلّه خانَ اللهَ وحرّفَ فيما نزّلَه علينا منذ مدّة! لماذا اختفى صديقُ الارضِ القديم! ما معنى هذا الاختفاء السرّيّ، ونحنُ بأمسّ الحاجة اليه!

ألم يرَ جبريلُ في كتابِ الله فسادًا! وانّه يقعُ في أيدٍ غيرِ مطهّرة، وهو قد حذَّرَنا منذ البدءِ بان "لا يَمَسُّه الاّ المطهّرون" (٥٦/ ٧٩)! أليس من رسالةٍ جديدة تُزيلُ الفساد، أو تُعطينا من عندِ الله شيئًا جديدا! أم ليس عند الله، بعد القرآن، شيءٌ جديد! هل حصَرَ الله كلَّ ما عنده، بين دفّتي الكتابِ المجيد! أم عندَه أشياءُ وأشياءُ ضَنّ بها علينا! هل في القرآنِ كلُّ ما يكفينا الى الاجيالِ القادمة! أم أنَّ عند الله مفاجأةٌ قرآنيّةٌ أخرى، قد تَنزلُ علينا غدًا أو بعدَ غد! ويعودُ جبريل الى مَسعاهُ القديم في نقلِ الكلامِ والهروبِ من السماء الى أحضانِ مَنْ في الارض! علّ جبريل يحظى بمحمّدٍ آخر! فلماذا نوصد بوجهه الابواب! ونمنع على الله القدير وحيا جديدا يستطيعه!

أقول لكم: لا تيأسوا! سيعود جبريل، ولكن بلا جناحَين، ليمكث بيننا، ويحلّ فينا، ويهتمّ بكل واحد منّا. وهكذا تعمّ رسالتُه، ويرفرف وحيه، فيكون كلُّ شعب الله أنبياء. أيّ حظّ يكونُ لنا ان كان هذا مطلبُنا! ألا فلينعم المؤمنون بحبّ لله جديد. ولتأخذ المعجزة مجراها في عالم المعجزات!

* * * * * * * *

الفصل الثاني

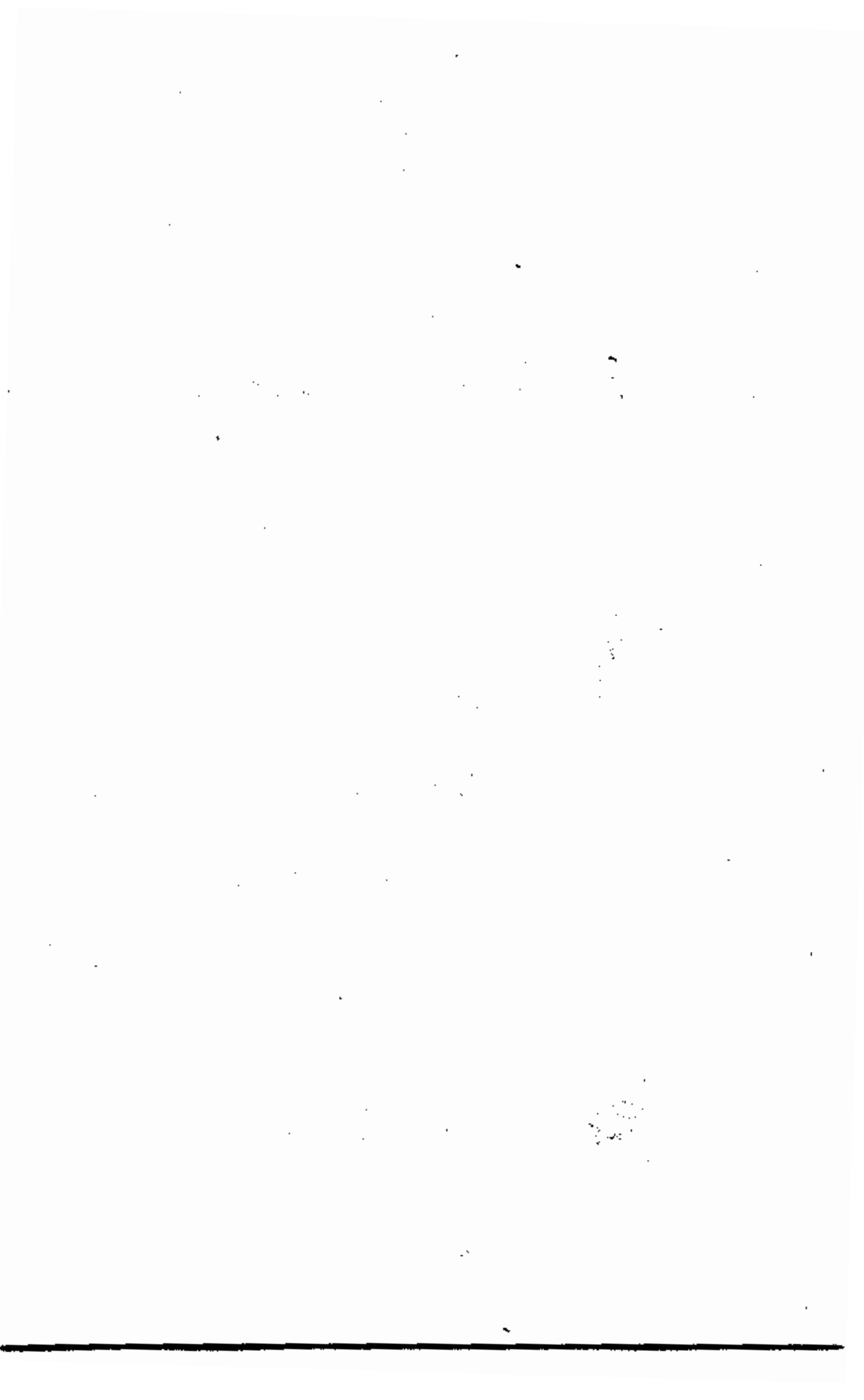
مُعجزة أمّيّة محمّد

أولاً ـ القلم العربي

ثانياً ـ القراءة والكتابة في مكة

ثالثاً ـ وسائل الكتابة

رابعاً ـ أمّيّة الرسول



مقدّمة الفصل

في ايمان المسلمين انّ النبيّ محمّدا كان "أميّا"، لا يعرف الكتابةَ ولا القراءة، وانّ مكّة كانت غارقةً في "جاهليةٍ" متمكّنةٍ بعقولِ أهليها. واستدلّوا على رأيهم في "أميّة" محمّد بما جاء في القرآن عن "الرسول النبيّ الأمّي"[١]، واستدلّوا على "جاهليّةِ" مكّة بحديثٍ نبويٍّ جاء فيه: "إنّا أُمّةٌ أُميّةٌ، لا نكتُبُ ولا نحْسُبُ"[٢].

وتمسّك المسلمون مُذْهُولِينَ بهذه الحقيقةِ، وذلك قَصْدَ الدلالة على معجزةِ النبوّة، وجدّيّةِ الاسلام. وفي ظنّهم انّ اختيارَ اللهِ محمّدا "أميّا لا يقرأ ولا يكتب "يضيفُ الى اذعانِ الناس له وايمانهم برسالته سببًا"[٣]، علماً بانّ الله كان باستطاعتهِ اختيارَ نبيٍّ عالمٍ متقّفٍ، اذ "لم يكن اختيارُ محمّدٍ قارئاً وكاتبا شيئاً يَعِزّ على السماء، ولكنّه كانَ شيئًا إنْ تَمَّ يُهوّنُ من حجةِ السماءِ في نفوسِ الناس"[٤].

وبسبب الاعتقاد بـ"أميّة" محمّد، أصبحَ كلُّ العرب فيما قَبل الاسلام أميّين جاهليين. ولم يكن الأمرُ كذلك لولا "عاطفة دينية – عندهم – شدّدوا – بها – في أميّة العرب، فجعلوهم أميّين، لاظهارِ معجزة

(١) سورة الاعراف ٧/ ١٥٧ و ١٥٨.
(٢) البيان والتبيين ٣/ ٢٨، الصاحبي ٨/ ١١، تفسير القرطبي ٢/ ٥، لسان العرب ١٢/ ٣٤ (أمم)، تاج العروس ٨/ ١٩١ (أمم) ...
(٣) ابراهيم الابياري، تاريخ القرآن، ص ٥١.
(٤) نفس المرجع.

للرسول ... في انه ظهر بالنبوة في أمة أمية، وجاء من الله بأحسن بيان ، وهي حجة له على أهل الكتاب والمشركين"(٥) .

ان "جاهلية" مكة و "أمية" محمد هما أمران مستحكمان في الدين؛ فكلما كانَ في الدين معجزاتٌ وعجائبُ ، كان نموُّ الدين وانتشارُه أسرع . ومن جملة عجائب الله في خلقه أنْ يُنْبِتَ "العلمَ" حيثُ "الأمية"، وأنْ يُشِعَّ "المعرفة" حيثُ "الجهلُ"، وأنْ يُرَسِّخَ "الايمانَ" حيثُ "الكفر" . وفي الاسلام كان ذلك : لقد قرر المتدينون تدخّلَ الله المباشر لصنع عجائبَ في الدين . قرروا "جهلَ" مكة، وكُفْرَ أهلها ، وشركهم ، وعبادتهم الاوثان، واخترعوا ، اكرامًا لـ "فتح مكة"، ثلاثمائة وخمسة وستين صنما ، حطمها محمد يوم النصر المبين تحطيما . وقرروا "أمية" محمد ، اكرامًا لبلاغة القرآن وفصاحته وبيانه المعجز، وذلك ليقولوا بانّ اللهَ سبحانه هو صاحبُ الكتاب ومؤلّفه وكاتبه ومُنَزِّله وضامِنه وقارئه وحاميه ...

ونحن نسأل : هل ما قرره المتدينون هو الواقع والحقيقة ؟ لننظر فيما اذا كانت مكة على "الجهل" أم "العلم"، وفيما اذا كان محمد على "الأمية" أم بعض الثقافة! ولنبحث في الخط العربي الذي كتب به القرآن، وفي انتشار الكتابة والقراءة في مكة، وفي أساليب الكتابة، وفي الأدلة على معنى "الأمية" المنسوبة الى النبي .

******

(٥) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٨/١٤٢، الا ان صاحب الكتاب لا يعتقد بأمية محمد ، ولكنه ينقل هنا رأى معظم المسلمين في القديم والحديث . من جملة هؤلاء : الشيخ صبحي الصالح ، في كتابه "مباحث في علوم القرآن"، ص ١٨٦، حاشية ٢، والابياري ، في "تاريخ القرآن"، ص ٤٧ــ٥٥، والزنجاني "تاريخ القرآن" ص ٣٥ ...

أولاً – القلم العربي

من "الثابتِ علمياً، وبصورةٍ لا تقبلُ المراء، أنّ الخطّ العربي الذى كان مستعمَلاً في بيئة النبي وعصرِه، يمتدّ وجودُه الى عشرات السنين قبل بعثتِه، كما انّه متطوِّرٌ عن أشكال لخطوطٍ أخرى، كان يستعمِلها عربُ الشام واليمن . وكذلك من الثابتِ علميا ان ذلك الخطَّ كان منتشِرًا بمقياسٍ غيرِ ضيّقٍ في بلادِ الشام واليمن والحجاز والعراق، حتى كان يشملُ بَدْوَ هذه البلاد، ولو بمقياسٍ ضيّق . وما جاء في بعضِ الكتبِ العربيةِ عن نشأةِ الخط العربي ووصولهِ الى الحجازِ وضيقِ انتشارِه فيه ضِيقًا شديدا، هو تخليطٌ لا يتحمّل نقدا"[١] .

ويتبيّن من نصوص جاهلية ان العربَ كانوا يُدَوّنون، قبلَ الاسلام، بخطِ "المِسْنَد"، أو بـ"قَلَمِ حِمْيَرَ"، الذى جِيءَ به من ناحيةِ اليمن مع القوافلِ التجاريّة التي كانتْ تجوبُ الجزيرةَ العربيّة، تبتدِئُ باليمن، وتمرُّ بمكة، وتتوزّعُ على بلادِ الشام وفلسطين والعراق والساحل الفينيقي . وكانت مكّةُ محطَّ رحالِها، وبيتَ استراحتِها، وانتعاشِها لتكمّل اجتيازَها العنيد عبر الصحارى الملتهبة .

وبحركة التجارة هذه دخلَ مكّةَ "قَلَمٌ" آخر، "أسهلُ وألينُ في الكتابة من القلم المِسنَد، أخذوه من القلمِ النبطي المتأخر، وذلك قبيل الاسلام"[٢] .

---

(١) محمد عزّة دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٥، وهو يعتمد على "كيتاني" *
(٢) الدكتور جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ٨/ ١٥٢ ...

وكذلك أيضا انتشر القلم الارمي بواسطة المبشّرين بالنصرانية الذين دخلوا جزيرةَ العرب وانتشروا في مختلفِ الاماكن، ونشروا معهم دينَهم ولغتَهم وقلمَهم .

فمن "القلم المسند" ومشتقاتِه، و"القلمِ النبطي" وتفرّعاتِه الى "القلم الارمي"، و"الاسترانجيلي"، تكوّن "القلمُ العربي" الذى كُتب به القرآن . ويبدو ان قبيلةَ قريش تعلّمتِ الكتابةَ من الحيرةِ والأنبار ، حيثُ راجت تجارتُها ، وعقدتْ مع قبائلِها المعاهداتِ الامنيةَ[٣] .

****

ومهما كان الأمر من تفرّعِ الخطوط فانّ آثارًا كثيرةً تدلّنا على وجود الخطِ العربي في مكة والحجاز، في عصورٍ ما قبلَ الاسلام . فهناك "أثرٌ" كتابةٍ عُثِرَ عليها مدوّنةٌ باللهجةِ العربيةِ الشمالية القريبةِ من لهْجةِ القرآن ، وكتبتْ بالقلمِ النبطي المتأخر، وبأسلوبٍ متأثرٍ بالارمية[٤] ، ونجدها في أمّ الجمال في النمارةِ في الحرّةِ الشرقية من جَبل الدروز، على قبرِ أمرئ القَيْس الأوّل ابنِ عمرو ملكِ العرب من سنة ٣٢٨ ميلادية .

ونصٌّ آخر في خرائب زبد بين قنّسرين ونهر الفرات جنوبي شرقي حلب، كتبت بثلاث لغات: اليونانية والسريانية والعربية، ويرجع تاريخها الى سنة ٦١٢ للميلاد[٥] .

---

(٣) أنظر: ابن رستة، الاعلاق، ص ١٩٢، لسان العرب ١٢/ ٣٤ (أمم) ، جواد علي، المفصل ... ٨/ ١٦٩، العقد الفريد ٣/ ٣٠٢ ...

(٤) جواد علي، المفصل ... ٨/ ١٧٦ حيث تجد المراجع والنص .

(٥) جواد علي، نفس المرجع ٨/ ١٧٦، حيث النص والمراجع . انظر: بلاشير، في "مدخل الى القرآن"، ص ٤ .

ونصّ آخر يسمّى بـ "نقش حرّان" في المنطقة الشمالية من جبل الدروز، فوق باب كنيسة، ويعود تاريخه الى سنة ٥٦٨ للميلاد . وهو باللغتين اليونانيّة والعربية[٦] .

وهناك نصوص أخرى كثيرة ترى اثباتا لها في "المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام"، الجزء الثامن، ص ١٤٤ـ٢٢٠، والجزء الاول، ١٠٧ـ١٣٩، للدكتور جواد علي ، وكتاب "عصر النبي وبيئته قبل البعثة" ص ٦٠ـ٧٠، ٣٨٨ـ٥٢٨، لمحمّد دروزة .

و "يُلاحظ ـ الدكتور جواد علي ـ ان الذين كتبوا بالقلم العربي الشمالي ، الذى أُخذ منه قلمُ مكة، هم مِنَ العَرَبِ النَصَارَى في الغالب ، فأهل الأَنبار، والحِيرة، وعينِ الشمس ، ودَومَةِ الجَنْدَل ، وبلاد الشام ، كانوا من النصارى"[٧] .

وفي رأى المستشرق "ويل Weil" ان نظرية اشتقاق الخطوط تشير "بكل جلاء" الى اشتقاق القلم العربي من القلم النبطي المتفرّع عن الخط الارامي"[٨] .

ولذلك فانّ ما ذكره المؤرّخون من "ان الحروف العربية لم تخترع الا قبيل البعثة النبوية ... هو قول جزاف لا يثبت على التمحيص والتدبّر"[٩] .

---

(٦) جواد علي ، المفصّل ... ٨/ ١٧٧، حيث النصّ والمراجع .
(٧) نفس المرجع ، ٨/ ١٧٨ـ١٧٩ .
(٨) Weil, Encyclopédie de l'IslamI/68
(٩) محمد عزّة دروزة، عصر النبي ، ص ٤٤٨ـ٤٤٩، حيث يتوسّع في ذكر اكتشاف الاف النقوش في اعالي والحجاز والمنطقة العربية ، ويذكر جملة مؤرّخين عرب جهلوا الحقيقة وأضلّوا سواهم ...

والجدير بالذكر "انّ البيئة الحجازية ... وخاصّة مكّة والمدينة، كانت بيئةً تجارية، متّصلةً بالبلادِ المجاورة التي كانت تتمتّع بحظٍ غيرِ يسير من الحضارة والثقافة. وكان فيها جالياتٌ كتابيةٌ نصرانية ويهودية نازحة من تلك البلاد، وكانت تتداولُ الكتب الدينية وغيرَ الدينية قراءة وكتابة. فلا يعقلُ ان يظلَّ العربُ أهلُ هذه البيئة غافلين عن اقتباسِ وسيلةٍ من أشدّ الوسائل ضرورة الى الاشغال التجارية، ومن أعظم مظاهر الحضارة التي اقتبسوا منها من البلاد المجاورة الشيء الكثير"[10].

ولكن ممّا يؤسف له حقا "اننّا لا نملك اليوم كتابة واحدة من الكتابات المدونة في ايّام الرسول. ولا نملك أىّ نسخة من نسخ القرآن أو من صحفه المدوّنة في أيامه. فلا نملك اليوم نسخة حفصة للقرآن الكريم، ولا نسخة عثمان بن عفّان، ولا النسخ التي دوّنت بأمره لتوزّع على الامصار، ولا أيّة نسخ أخرى من النسخ التي دوّنها الصحابة لأنفسهم، ولا نملك النسخ الاصلية للمراسلات التي كان يأمر الرسول بتدوينها لترسل الى الملوك أو سادات القبائل والأمراء"[11].

وقد تكون صرخة مدويّة، نطلقها، مع بلاشير،[12] بدعوة المسلمين والدول الاسلامية الغنيّة، بان يبذلوا جهدهم في البحث عن آثار النبي وصحابته وكتابه العزيز. لعلّ الله يمنّ علينا بنسخة من يد الرسول تتبارك بها رمال مكة والصحراء، والمسلمون بعجزهم يباركون الجهل.

****

(١٠) محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٥ـ٧٦.
(١١) جواد علي، المفصل ...، ٨/ ١٨٣.
(١٢) Régis Blachère, Introduction au Coran, 196.

ثانياً - القراءة والكتابة في مكة

ان حديث "إنّا أمةٌ أميّةٌ لا نكتبُ ولا نحسُبُ" تعارضه أحاديثُ نبويّة أخرى مثل "قريشٌ أهلُ الله، وهُم الكَتَبَةُ الحَسَبَةُ"(١) ومثل "حقُ الوالدِ على وَلَدِه ان يعلّمَه الكتابةَ والسباحةَ والرماية ..." وشبيه به: "حق الوالد على ولده ان يحسّن اسمَه، ويزوّجه اذا أدرك، ويعلّمه الكتابَ"(٢).

ومع هذا، لا نقفُ لاثباتِ القراءةِ والكتابةِ في مكّة، على مثل هذه الاحاديث المتضاربة، مهما كان انتسابُها الى النبيّ صحيحا. فانّ التاريخَ الموثوقَ والحفرياتِ الأثريةَ والقرآنَ نفسه هي لدينا خيرُ دليل. فلا الاحاديثُ النبوية ولا رواياتُ الصحابة تُمكنُ أن تضعَنا على خطِ العلمِ القويم، لان ما كتبَه أصحابُ الرواياتِ والمُحدّثون كان في خدمةِ الدفاعِ عن الدينِ أكثرَ ممّا كانَ في خدمةِ العلمِ والحقيقةِ والواقعِ التاريخي.

ففي القرآنِ مَثلًا آياتٌ كثيرةٌ "تدلُ دلالةً صريحةً على أنّ القراءةَ والكتابةَ كانتا منتشرتَين في الكتابيينِ بوجهٍ عام ... بمقياسٍ يصحُ أن يُقال عنه انّه كانَ واسعا بعضَ الشيء". وأنتَ اذْ تقرأُ ما جاء في الآياتِ المكيّةِ التي هي في الذين كانوا في مكّة من الكتابيين ... يَحصلُ

(١) الصولي، أدب الكتاب، ص ٢٨، حكمة الاشراق، ص ٦٧.
(٢) الجامع الصغير، رقم ٣٧٤٢ و ٣٧٤٣، حكمة الاشراق، ص ٦٦ وما بعدها، وهي عن ابي هريرة المحدّث الثقة.

عندك ترجيح بان أكثر الكتابيين في مكة كانوا يقرأون ويكتبون.[٣]

ثم انّ القرآنَ قد "احتوى آياتٍ عديدةً ذُكِرَتْ فيها أدواتُ الكتابةِ والقراءة مِن كتبٍ وقرطاسٍ وورقٍ وصحفٍ وأقلامٍ ومِدادٍ وسجلات"[٤]. وننبّه على ان هذه الآيات جميعَها مكّيةٌ ومن تحصيلِ الحاصلِ أن نقولَ انأهلَ مكةَ الذين كانوا أوّلَ مَنْ سمعوها كانوا يفهمون مدلولاتها. ولقد وردتْ كلماتُ الكتابةِ ومشتقاتها في القرآن نحو ثلاثمائة مرّة ونيّف، وكلمة القراءة ومشتقاتها نحو تسعين مرّة ونيّف، وباساليب متنوعة.[٥]

وآية ٢٨٢ من سورة البقرة، كغيرها، "تحتوى أسماء ورسائل وأدوات القراءة والكتابة، وتحتفي بالقراءة والكتابة هذه الحفاوة الكبيرة دليل راهن على انّ العرب في بيئة النبي وعصره قد عرفوا تلك الوسائل والادوات، واستعملوها، وعلى ان القراءة والكتابة فيهم كانتا منتشرتين في نطاق غير ضيّق. فكثرة الترديد تدلّ على الالفة، وهذه لا تكون الا حيث يكون المألوف ذائعا ذيوعا غير يسير".[٦]

وبالاضافة الى هذا التنويه بالقراءة والكتابة، نرى القرآن يحضّ التجّار على تدوين المعاملات التجاريّة نقدا ودينا وصغيرة وكبيرة... ومن الارجح ان محمّدا لم يوجدها بنفسه، بل كانت موجودة قبله في اللغة العربية. ومن المعروف ان المجتمع المكّي كان مجتمعا تجاريا هامّا، يتّصل اتّصالا حميما ومستديما بالبلاد المجاورة كالشام وفلسطين والعراق ودولتي

---

(٣) أنظر الآيات: ٦/ ٢٠و١١٤، ٧/ ١٥٧، ١٠/ ٩٤، ٢٦/ ١٩٧، ١٦/ ٧٦و١٠٣، ٢٨/ ٥١_٥٢، ٤٢/ ١٠، ٤٦/ ١٠، ٢٥/ ٤_٥...

(٤) أنظر: ٦/ ٧و٩١، ١٧/ ١٣_١٤و٩٣، ١٨/ ١٠٩، ٢١/ ١٠٤، ٣١/ ٢٧، ٥٢/ ١_٣، ٦٨/ ١_٢، ٧٤/ ٥٢، ٨٧/ ١٨، ٩٦/ ١_٤...

(٥) انظر: ١٠/ ٩٤، ٢٥/ ٥، ٢٦/ ١٩٨_١٩٩، ٢٩/ ٤٨، ٣٤/ ٤٤...

الفرس والروم . وهذه كانت تنعم بحظ من الثقافة كبير[(٧)] .

وبالاضافة الى ذلك أيضا نرى في القرآن كلمات مستوردة يربو عددها على المئات ، وهي مأخوذة عن اليونانية والسريانية والعبرية والحبشية والفارسية والنبطية ... وقد أثبت المسلمون الأقدمون هذه الكلمات وكتبوا فيها المجلدات الطوال[(٨)] .

ثم انّ القرآن احتوى الكثير من الالفاظ والاسماء المعرّبة، ممّا يدلّ على شيوعها واستعمالها عند أهل عصر النبي وبيئته . "هذه الاسماء جاءت في القرآن بصيغة عربية فصحى ، أى غير ما هي عليه في لغاتها الاصلية، وبعبارة أخرى انّها معرّبة"[(٩)] .

أضف الى ذلك أيضا "ان النبي كان يتّصل بمختلف الطبقات والشخصيات المكية، ثم بمختلف الطبقات والشخصيات والقبائل التي كانت تفد على مكّة ، في المواسم والاسواق ، ويتحدّث اليهم ، ويتلو عليهم آيات القرآن ، ويتفاهم معهم بلغته التي هي لغة القرآن بطبيعة الحال"[(١٠)] .

ثم ان الذين آمنوا في بدء الدعوة، لم يؤمنوا لاجل فصاحة القرآن اللغوية ومعجزته البيانية وبلاغته الاعجازية، بقدر ما آمنوا لسبب آخر من الاسباب. وذلك لأنّ المؤمنين الأوّلين في مكّة آمنوا بالنبي قبل أن ينزل من القرآن شيء يذكر ــ هذا اذا سلّمنا بنظرية التنجيم كالمسلمين!

---

(٦) محمد دروزة، عصر النبي ، ص ٤٤٤، انظر : ٤٣٦ــ٤٤٥ ...

(٧) Lammens, La Mecque à la veille de l'Hégire, p.120...; Torrey, The Commercial Théological Terms in the Koran; v.Nöldeke, GdG,II,24....

(٨) انظر : الراغب الاصبهاني ، المفردات في غريب القرآن ، والسيوطي، الاتقان ، فصل فيما وقع فيه بغير لغة العرب، وفي معرفة غريب القرآن، ١/ ١١٣ــ١٤١ .

وأيضا لو كانت لغة القرآن هي سبب ايمان المؤمنين لاجل بلاغتها وفصاحتها فلماذا بقي أكثر المكيين والحجازيين جاحدين! ألعلّهم لم يفهموا مضمونها! أم لانهم فهموا وأنكروا! والارجح انّهم أدركوا وفهموا والا ما معنى قول القرآن: "لقد بعثنا في كل أمّة رسولا"[١١] ؟

******

لم يَخْفَ على أئمّةِ المفسرين كونُ لغةِ القرآن هي لغةُ أهلِ الحجاز كلّهم، بكل ما فيها من بلاغةٍ وفصاحة: قال الطبرسي في مجمع البيان: "انّ الله خاطبَ قوما عقلاء فصحاء، قد بلغوا الغايةَ القصوى من الفصاحة، وتسنّموا الذروةَ العليا من البلاغة". وقال الزمخشري في الكشّاف: "انّهم كانوا من صحةِ التميز بين الصحيح والفاسد، والمعرفةِ بدقائقِ الامور وغوامض الاحوال والاصابةِ في التدبيرِ والدهاءِ والفطنةِ بمنزلٍ لا يُدفَعُون عنه". وقال النيسابوري في تفسير ٢/٢٢، القائلة: "فلا تجعلوا للهِ أندادًا وأنتم تعلمون"، أي وانتم أهلُ العلمِ والمعرفة بدقائقِ الامور وغوامضِ الاحوال. وهكذا كانت العربُ خصوصا قطانُ الحَرَمِ من قريشٍ وكِنَانَةٍ لا يشقُ غبارهم في الدهاءِ والفطنة"[١٢].

وفي كتب السير خبرٌ مشهور عن أسرى قريش الفقراء الذين قبض المسلمون عليهم في معركة بَدْر، والذين لم يستطيعوا دفعَ الفدية عن أنفسهم، كُلِّفوا بتعليمِ بعضِ أطفالِ المسلمين القراءةَ والكتابة...[١٣]. "فاذا كان فقراءُ أهلِ مكة يقرأون ويكتبون فأولى أن يكونَ كذلك أغنياؤُها

---

(٩) محمد دروزة، عصر النبي، ص ٦٢ و ٦٨، ٤٢٩، ٤٦٥.
(١٠) نفس المرجع، ص ٦١.
(١١) سورة النحل ١٦/ ٣٦، أنظر سورة يونس ١٠/ ٤٧...
(١٢) انظر هذه الاقوال في مراجعها، وفي عصر النبي ٤٣٢.
(١٣) طبقات ابن سعد ٢/ ١، وسائر كتب السير...

وتجّارُها ونبهاؤُها ، وان تكونَ القراءةُ والكتابةَ مما هو مألوفٌ ومنتشِرٌ بنطاقٍ غيرِ ضيّق.[١٤]

وعند أهل الاخبار روايات عن جملة أسماء لَمَعُوا في القراءة والكتابة والشعرِ والقَصَصِ والخطابةِ والوَعظِ والامثال وغير ذلك من أنواع الأدب. وفي كتاب "المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام" سردٌ واسعٌ عن بعضهم، في الصفحات ١١٢ـ١٤٣ من الجزء الثامن. وفي ذلك ما يكفي للدلالة على العلم الكثير والمعارف الواسعة بالقراءة والكتابة في مكّة والحجاز.

******

بقي ان تكونَ آثارُ ما قبل الاسلام دليلاً على ما وَرَدَ في القرآن والاحاديثِ وكتبِ السِيَر. والحقيقة، كما قال دروزة : "لقد اكتُشِفَتْ آلافُ النقوشِ السبئية والمعينية والحضرموتية والقتبانية والحِميرية في اليمن والثمودية واللحيانية في مناطق العلا ومدائن صالح في أعالي الحجاز والصَفوية في منطقة الصفا في جبل حوران، فضلاً عن النقوش النبطية والتدمرية المكتشَفة في البَلقاء وسيناء وتَدمر، وكثيرٌ منها يعودُ الى القرون القريبة من عصر النبي ، بل منها ما هو عائدٌ لهذا العصرِ وبخاصة من النقوش الصفوية. وحروف هذه النقوش خاصة مماثلةٌ للحروف العربية".[١٥]

وفي "المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام" نموذجات عن آثار جاهليّة كثيرة، تشير كلها الى اتّساعِ نطاقِ المعرفة في مختلَفِ الامكنة.[١٦]

---

(١٤) محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٥ـ٧٦.

(١٥) محمد دروزة، عصر النبي، ص ٤٤٨ـ٤٤٩.

(١٦) انظر : جواد علي، ١/ ٤٢ـ٥٣، ٨/ ١٧٥ـ١٧٩.

من الواضح اذن، استنادا الى انتشار الخط العربي فيما قبل الاسلام، والى كثرة الاثارات الجاهلية وتوزّعها في مختلف مناطق الحجاز والجزيرة العربية، والى شمولية الكتابة والقراءة في مجتمع مكّة التجارى، والى نصوصِ القرآن التي تقرّره بمفرداتها ومصطلحاتها وتراكيبها واستعاراتها وتشابيهها، انّ اللغةَ العربيةَ كانتْ مألوفةً ومفهومةً ومستَعمَلةً في بيئةِ النبيِ وعصرهِ بنطاقٍ واسع .

كل هذا الذى رأينا يقرّر بوضوح معرفةَ المكيين الواسعة بالقراءة والكتابة، فيما المذْهُولُونَ بجدّيّة النبوّةِ والذين يَرونَ مكّةَ على جهلٍ وغباوة، تغرقُ في "جاهليّة" دكناء . لهذا نقول، مع جواد علي : " لا نتمكّنُ من الاطمئنانِ الى هذه الاخبار والروايات المدوّنة في الموارد الاسلاميّة عن الجاهلية"[١٧] .

وعدمُ الاطمئنانِ اليهم أمرٌ يدعو الى التساؤلِ عن الاسباب : هل يقصدُ المسلمون طمسَ أخبارِ الجاهليّة ؟ هل يريدون القولَ بأنّ الاسلامَ كان أوّلَ مَنْ دعا الى العلمِ والمعرفةِ والكتابةِ والحسابةِ والقراءةِ والتدوينِ والتدريس؟! هل يقصدون اظهارَ جدّيّةِ الاسلامِ فقالوا بجاهليّةِ ما قبله، كمنْ يُظهِرُ الضوءَ في ليلٍ بهيم ؟

في الحقيقةِ يُخشَى أن يكونَ في الاسلامِ رغبةٌ في استئصالِ كلِ ما يمتُّ الى أيّامِ الجاهليّة بصلة . ويُخشى أن يكونَ الحديثُ القائلُ : بأنّ "الاسلامَ يهدمُ ما قبله"[١٨] حديثًا ثابتًا مُسنَدًا الى النبي ؟! وهو على ما يبدو صحيحُ الاسنادِ لثبوتهِ عند "مُسْلِم" أحدِ المحدّثين الثقاة!!!

(١٧) المفصّل ... ، ١/ ٧٣ .
(١٨) صحيح مسلم ١/ ٧٧–٧٨ .

ثالثاً – وسائل الكتابة

من مسلّمات المسلمين انّ النبيّ اتّخذ كتّابا للوحي ، وأمرَهم بكتابةِ كلِ ما ينزلُ من القرآنِ على "الرِقَاعِ"(١) "واللِخَافِ" و "العُسُبِ" و "الأكْتَافِ" و "الأقْتَابِ" و "قِطَعِ الأدِيم"(٢) . وقد جاء على لسان زَيْد بن ثابت أشهر مَن كَتَبَ للنبي قولهُ : "كنّا عند رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم نؤلّف القرآنَ من الرِقاع"(٣) .

قد تكون هذه الوسائل البدائيّة صحيحة، لندرةِ الوَرَق والشجر في الجزيرة العربية، ولبهاظَةِ ثَمَنِهِ في حال استيراده من البلاد المجاورة. ولكن، اذا كانتِ الكتابةُ والقراءةُ مألوفةً في مكة والحجاز، كما رأينا ، فلا بدّ أن تكونَ وسائلُ الكتابةِ هي الاخرى مألوفةً وسهلةَ الاستعمال . وخيرُ ما يرجّحِ هذا القولَ ما وَرَدَ في القرآنِ من اشاراتٍ الى هذه الوسائل .

* يذكر القرآن أكثرَ من مرّة كلمةَ "قرطاس" و "قراطيس"، ممّا يدلّ على أنّها كانت معروفةً ومألوفةً كوسيلةٍ للكتابة والتدوين . جاء في القرآن : "ولو نزّلنا عليك كتاباً في قرطاسٍ فلمسوه بأيديهم ..."(٤) ، و "قل من

---

(١) الرقاع ، جمع رقعة، قد تكون من جلد أو ورق أو كاغد ...
(٢) اللخاف، لخفة وهي الحجارة الدقاق أو صفائح الحجارة . والعسب ، جمع عسيب وهو جريد النخل . والاكتاف ، أى عظام أكتاف الجمال وغيرها من الحيوان . الاقتاب ، جمع قتب وهو الخشب الذى يوضع على ظهر البعير ليركب عليه . وقطع الاديم ، أى الجلد . - - - - - -

أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ..."[٥] هذان النصّان يلهمان "ان الكتابة على القرطاس وكون الكتب مؤلّفة من قراطيس هو الشيء المألوف الذي لم يكن ليُتصوّر غيره".[٦]

وفي لسان العرب ان "القرطاسَ معروفٌ، يُتّخذ من بردّي يكون بمصر ... وهو الصحيفة الثابتة التي يُكتب فيها".[٧] وقد ورد ذكره على لسان كثير من شعراء ما قبل الاسلام وبالمعنى نفسه.

* ويحتوى القرآن على كلمة "الصُحُف" أكثرَ من مرّة (٨ مرّات) في معرض الاشارة الى القرآن والكتب السماوية. جاء فيه: "في صحف مكرّمة، مرفوعة مطهّرة".[٨] ، "انّ هذا لفي الصحف الاولى صُحُف ابراهيم وموسى"[٩] ، "بل يريد كل امرئٍ منهم ان يُؤتَى صحفًا منشرة".[١٠] ... الخ.

"لم يذكر أحد ان كلمة الصحيفة كانت تطلق على تلك الوسائل البدائيّة، وانّما كانت تطلق على ما كان معروفا من وسائل الكتابة التي تُحْمَلُ بسهولة، وتُطوَى بسهولة، ويُجْمَعُ بعضها الى بعض بسهولة. ولعلّ في آية المدّثر قرينةً على انّ الصحفَ كانت تُنشَرُ وتُطوى، وهو ما لا يمكنُ أن يُتصفَ به الا وسائلُ الكتابةِ اللينةِ كالقماشِ وورقِ القماشِ وورقِ الحرير والرقوقِ الناعمةِ

---

(٣) أنظر: الاتقان ١/ ٩٩، البرهان ١/ ٢٣٧. ومن المعاصرين من يأخذ بنظرية هذه الوسائل البدائية: صبحي الصالح، مباحث ...، ص ٦٩، الزنجاني، تاريخ القرآن، ص ٤٤-٤٩، الابيارى، تاريخ القرآن، ص ٨٦، شحاته، تاريخ القرآن والتفسير، ص ٢٥و٣٦، الرافعي، اعجاز القرآن، ص ٣٤-٣٧ وغيرهم الكثير ...

(٤) سورة الانعام ٦/ ٧.

(٥) سورة الانعام ٦/ ٩١.

(٦) محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٧.

(٧) لسان العرب، ٦/ ١٧٢ (مادة: قرطاس).

المُسَوَّاة الخ».[١١]

* وفي قولِ القرآن : «يومَ نَطوي السماءَ كطَيِّ السِجِلِّ للكتبِ».[١٢] «دليل على انّ طَيَّ الوَرقِ، أو ما كانَ يقومُ مقامَه من وسائلِ الكتابة الليّنة ليكون سجِلاً للكتابة والتدوين كان مألوفاً شائعاً . وهذا لن يكونَ الآ حيثُ تكونُ الكتب والقراطيسُ والوسائل الكتابية اللينة الاخرى ...».[١٣]

* وحين يتكلّم القرآن على «القَلَم»[١٤] وعلى الله «الذى علّم بالقلم»[١٥] والذى يُقسِم بـ«القَلَم وما يسطرون»[١٦]، وعلى «شجرةٍ أقلام»[١٧] ... فانّه يشير الى انّ هذه الوسيلةَ للكتابة كانتْ موجودةً في المفردات الجاهلية، وهي ، بحسب علوم اللغة، مأخوذةٌ عن السريانية التي أخذتْها بدورها عن اليونانية .

* وفي القرآن أيضا ذكرٌ لـ«المُدَاد»[١٨] وهي المادة المستخرَجة من الفحم المستعمَلة للكتابة؛ وذكرٌ لـ«الدواة» أو «المحبرة»، الاداة التي تحفظ الحبر . ومن المفسّرين من رأى في آية «ن والقلم»[١٩] معنى الدواة والقلم[٢٠] .

---

(٨) سورة عبس ٨٠/ ١٣ـ١٤، أنظر ٢٠/ ١٣٣، ٩٨/ ٢ ...
(٩) سورة الاعلى ٨٧/ ١٨ـ١٩ .
(١٠) سورة المدثر ٧٤/ ٥٢ .
(١١) محمد دروزة، القرآن المجيد ، ص ٧٨ .
(١٢) سورة الانعام ٦/ ١٠٤ .
(١٣) محمد دروزة، نفس المرجع .
(١٤) ترد في القرآن ٤ مرات ، مفردة وجمعا .
(١٥) سورة العلق ٩٦/ ٤ .
(١٦) سورة القلم ٦٨/ ١ .
(١٧) سورة لقمان ٣١/ ٢٧ .
(١٨) سورة الكهف ١٨/ ١٠٩ .

* وفي القرآن أيضا ذكر للرقِّ في قوله : " والطور . وكتابٍ مسطور . في رقٍّ منشورٍ "[(٢١)] . والرقُّ هو جِلْدٌ رقيق ، " وقد اشتهرتْ جملةُ مواضعَ في الحجاز وفي اليمن بترقيقِ الجلد ودباغته ... وأجودُه هو المعمول من جلد الغزال . وذُكِرَ ان الصحابةَ أجمعوا على كتابةِ القرآن في الرقِّ ، لتيسُّرِه عندهم ، ولطولِ بقاءِ الكتابة فيه "[(٢٢)] . ويبدو ان شعراءَ ما قبل الاسلام كانوا يكتبون عليه بكثرة[(٢٣)] ...

******

يتحصّل من كل هذا ان " بيئةً هذه صِلاتُها بالبيئات المجاورة المتمدِّنة التي تتيسّرُ فيها وسائلُ الكتابة والقراءةِ المألوفةِ على تنوعها ، وفيها كثيرون من أهلِ هذه البيئات يقرأون ويكتبون ويتداولون الكتب ، وحركتها التجارية قويّة واسعة، وقد احتوى القرآن من أوصافِ حياتها ، ومعايشِها ، وحضارتِها ، ووسائلِها ما فيه الدلالةُ الوافيةُ على انها هي أيضا كانتْ على دَرجةٍ غير يسيرة من الحضارةِ ووسائلِها ، والكتابةِ والقراءة فيها منتشرتان بمقياس غير ضيق لا يعقل في حال ان لا يكون فيها وسائل مدنية للكتابة وان لا يوجد ما يُدوَّن عليه القرآن الاّ ألواحُ العِظَامِ ورقائقِ الحجارة وأضلاعِ النخيل وقِطَعِ الخَشَب "[(٢٤)] ...

---

(١٩) سورة القلم ٦٨/ ١ .
(٢٠) لسان العرب ١٣/ ٤٢٧، الفيروزبادى، تنوير المقياس... ص ٤٥١ .
(٢١) سورة الطور ٥٢/ ٢_٣ .
(٢٢) جواد علي ، المفصّل ... ٨/ ٢٦٢_٢٦٣ .
(٢٣) انظر صبح الاعشى ٢/ ٤٧٥ .
(٢٤) محمد دروزة، القرآن المجيد ، ص ٧٦_٧٧ .

ومما يرجح كتابة القرآن على وسائل حضارية لينة كالورق والقماش وما أشبه، ما ذكره البخاري وأهل الاخبار عن احراق عثمان للمصاحف أو تمزيقها. والوسائل البدائية لا تحرق ولا تمزّق بالسهولة التي أرادها عثمان.

ومن الارجح أيضا ألاّ تكون هذه الوسائل البدائية يحملها كتبة الوحي، ويتبعون النبي أينما حلّ ورحل، ليسجلوا ما ينزل عليه من آيات... ومن المعروف ان النبي كان في بدء بعثته يدعو الناس بخفاء وخفر وبعض السرّية... وليس من الممكن أن يحمل كتّاب الوحي أحمالاً من الألواح والعظام والحجارة ليكتبوا عليها، وهم مع النبي على سفر دائم وربّما مفاجىء!

وبالنتيجة، "انّ ما رُوِيَ من أنّ القرآن كان يُدوّن على قطع عظيمة الحجم ثقيلة الوزن، صعبة الحمل والحفظ والترتيب، كأضلاع النخيل، وأكتاف العظام، ورقاق الحجارة والخشب، لا يمكن أن يكون هو الواقع على اطلاقه..."(٢٥).

واذا تمسّك المسلمون المتديّنون بهذه الوسائل البدائية لكتابة القرآن فانّ لهم عند محمّد صبيح جوابًا فيه بعض خفّة الروح. يقول: "كتابة القرآن المكي على هذه الادوات الخشبة كان مصحفًا يحتاج الى عشرين بعيرًا لحمله. ولم نعلم من أنباء الهجرة أنّ قافلة من الاحجار فرّت قبل النبي، أو مع النبي، ومعها هذا الحمل الغريب"(٢٦).

---

(٢٥) محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٥.
(٢٦) محمد صبيح، بحث جديد عن القرآن، ص ٨٧-٨٨.

****

الذى يهمنا من كل ما تقدم قوله، هو انّ مكّة لم تكن في "جاهليّة" وغباوة، كما يطمئنّ اليه المسلمون . فتلك المدينة المنفتحة على اليَمَن ذاتِ اليُمْنِ والخيرات جنوبًا، وعلى بلادِ الشام ودولَتي الروم والفرس شمالًا، وعلى فلسطين مهدِ النبوّاتِ والانبياء والتوحيدِ غربًا، وعلى بلادِ ما بين النهرين مهدِ الحضارات القديمة شرقًا ... هذه المدينة التي يُحاصِرُها العِلمُ والحضارةُ من كل جهة، لا يمكن أن تبقَى غريبةً عنه، تتخبّطُ في الجهل والغَبَاوَة.

ولئن كانَ مقصودُ المتدينينَ انذهالَهم أمام فصاحةِ القرآن وبلاغته، فانَّ اللهَ لا يُعجزُه خَلقُ مثلِ هذه الفصاحةِ في عالَمٍ فصيح . ولن يكونَ شأنُ النبي أعظمَ في حالِ اثباتِ الجهلِ والكفرِ والغباوةِ حواليه من أنْ نجعلَه ينعمُ في مجتمعٍ فيه من الوعيِ ما يكفي لمجادلته ومقارعته .

وما اتّهامُ الكافرين لمحمد بأنّه افترَى القرآنَ افتراءً الا لانّهم "رأوا انّ القرآنَ، في مادّتِه وتراكيبِه، وفنونِه اللفظية، انما هو مِثْلُ تراكيبِهم وموادتِهم وفنونِهم اللفظية، وانّ هذا في متناوَلِهم"(٢٧) . وما تحدّى النبيُّ بأن يأتي الناسُ بمِثْلِ ما أتى الا "اعترافٌ واضحٌ بانّ لغةَ القرآنِ في مادّتِه واسلوبِه ونُظُمِه وفنونِهِ اللغوية، كان ممّا يدخلُ في متناوَلِ العربِ الاتيان بمثلِه، لو لم يَصْرِفْهم اللهُ عن ذلك"(٢٨) .

****

---

(٢٧) محمد دروزة، عصر النبي، ص ٤٠٠ ... انظر آيات الافتراء في القرآن .
(٢٨) نفس المرجع، ص ٤٠١ ... انظر آيات التحدّى في القرآن .

رابعاً - أُمِّيّة الرسول

إنْ لم تسلَمْ مكةُ من تهمةِ الجهلِ والغباوة، فمحمّدٌ، وهو منهـا، لم يسلَمْ من تهمةِ "الأمّيّة" وجهلِه القراءةَ والكتابة. و"على ذلك أجمـع المسلمون" (١). وهم، بما أجمعوا عليه، مذهولون، وقصدُهم، بذهولهم، واضح، وهو التثبّتُ من أنّ القرآنَ "كله من عند ربّنا" (٢)، وليس لمحمّد فيه صنعة. نزّله اللهُ على قلبِه تنزيلا، وأوحاه اليه وحيًا والهاما، وبلّغـه اياه منجّما ...

ومُعْتَمَدُ إجماعِ المسلمين آيتان في القرآن، كلتاهما تصفُ محمّدًا بـ"الرسول النبي الأمّي" (٣). والأمّية، برأى المسلمين قاطبةً هي الجهل بالقراءة والكتابة، و"الأمّي هو الذى لا يكتب ولا يقرأ من كتاب" (٤)، وهو "العَييّ الجِلْفِ الجافي القليلِ الكلام. قيل له أمّي لانه على ما ولدتْـه أمّه عليه من قلّةِ الكلام وعُجْمَةِ اللسان" (٥). والأمّيون، في أحسن حال، هم الذين كانت الكتابة فيهم عزيزةً عديمة" (٦). والرسول أمّي أيضا لنسبته

---

(١) الدكتور جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ٨/ ٩٢.
(٢) سورة آل عمران ٣/ ٧.
(٣) سورة الاعراف ٧/ ١٥٧، و ١٥٨.
(٤) الراغب الاصبهاني، المفردات في غريب القرآن ٢٢، وجميع مفسّرى القرآن لسورة الاعراف، أمثال: الزمخشرى والبيضاوى والنسفي والقرطبي والطبرى والخازن وابن عباس والنيسابورى والطبرسي والسيوطي ...
(٥) لسان العرب ١٢/ ٣٤ (مادة: أمم).
(٦) تاج العروس ٨/ ١٩١ (مادة: أمم).

الى "أمّ القرى" ، أى مـكّة، وذلك لجهله وجهلها على السواء[٧] .

لقد عالجنا في كتاب "قسّ ونبيّ . بحث في نشأة الاسلام" معنى الأمّيّة، وأعطينا الأدلّة على معرفة محمّد بالقراءة والكتابة من القرآن نفسه، ومن تربية محمّد الدينية على يد القسّ ورقة ابن عمّ زوجته خديجة، ومن اطلاع النبيّ على "الانجيل العبراني" الذى كان القسّ ينقله الى العربيّة بحضور محمّد[٨] . أمّا الآن فلا بدّ من اثبات ذلك بما ورد في الحديث النبوى وكتب السيرة :

جاء في صلح الحديبية ان الرسول "هو الذى كتبَ الكتاب بيده الشريفة، وهو ما وقع في البخاري"[٩] . وجاء في سيرة ابن هشام: "فبينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يَكْـتبُ الكتابَ هو وسُهَيْل"[١٠] . وجاء في البخاري : "وأخذَ رسولُ الله(ص) الكتابَ لِيَكْتُبَ ، فَكَتَبَ : هذا ما قاضى عليه محمّد"[١١] . وفي آخر حياته "لمّا اشتدّ وجعُه قال : ائتوني بالدواةِ والكتبِ ، أَكْتُبُ لكم كِتَابًا لا تضلّون معه بعدي أبدا"[١٢] . وفي حديث أبي بكر انّ رسول الله "دعا في مَرَضِهِ بدَوَاةٍ ومِـزْبَرٍ (قلم) فَكَتَبَ أسمَ الخليفةِ بعدَه"[١٣] . وذكر الهمداني ان العربَ كانتْ "تُسمّي كلَّ مَـنْ قَرَأَ الكتبَ أو كَتَبَ ، صابِئًا ، وكانتْ قريشٌ تسمّي النبيَّ (ص) أيّامَ يدعو الناسَ بمكة ويتلو القرآن: صابِئًا"[١٤] .

---

(٧) الراغب الاصبهاني ، المفردات في غريب القرآن، صـ ٢٢ .
(٨) انظر كتابنا "قس ونبي" صـ ٤٦ـ٥١ .
(٩) الروض الانف ٢/ ٢٣٠، السيرة الحلبية ٣/ ٢٣ ...
(١٠) انظر ذلك نقلا عن "نولدكه" في "تاريخ القرآن" جزء ١ صـ ١٣ .
(١١) الروض الانف ٢/ ٢٣٠، الطبرى ٣/ ٨٠، الحلبية ١/ ٢٤ .
(١٢) البلاذري ١/ ٥٦٢، الطبرى ٣/ ١٩٢: بعض الخلاف في الرواية .
(١٣) تاج العروس ٣/ ٢٣١ (مادة : زبر) .
(١٤) الهمداني ، الاكليل ١/ ٤٤ .

بسبب هذه الروايات المعارضة لموقف المسلمين واجماعهم على أمّية محمّد ، رأى بعضُ الماهرين بالتفسير وصياغةِ الكَلِم أنّ النبيّ تعلّمَ القراءةَ والكتابة بَعْدَ النبوّة . جاء على لسان الحافظ بن حجر ان النبي كان أميّا وذلك "بسبب الاعجازِ ولمّا اشتهرَ الاسلامُ وأمِنَ الارتيابَ عَرَفَ حينئذ الكتابَةَ" . وقال ابن ابي شيبه : "ما مات رسول الله (ص) حتى كَتَبَ وقرأ" . وقال مجالد وابن دحية والنيسابوري والباجي والبغوي : "ان معرفةَ الكتابةِ بعد أمّيتِهِ لا تُنافِي المعجزة ، بل هي معجزةٌ أخرى بعدَ معرفةِ أمّيته وتحقق معجزته" .

وقال الطبرسي : "فأمّا بعد النبوّة فلا تعلق به بالريبة والتهمة ، فيجوز أن يكون قد تعلّمها (أي الكتابة) من جبريل عليه السلام ، بعد النبوّة" .(١٥)

وعند بعض المفسّرين ان رسولَ الله كتبَ مع عدم علمهِ بالكتابة وتمييزِ الحروف(١٦) . وهذا أيضا معجزة(١٧) .

وفي شروح الباجي لهذا الخلط بالتفسير قوله : كل ما ورد في الحديث من قوله : كَتَبَ ، فمعناه أَمَرَ بالكتابة .

ولكنّنا لحسنِ الحظ نجد بعضَ المسلمين المتقدّمين يفسّرون كلمةَ "الاميّين" بـ "الذينَ لا كتابَ لهم من مشركي العرب" ، وذلك بمقابل "الذين أُوتُوا الكتابَ من اليهودِ والنصارى" .(١٨) وفي تفسيرِ القرطبي

(١٥) الطبرسي ، مجمع البيان في تفسير القرآن ٨/ ٢٨٩ .
(١٦) هذا الرأي للقاضي أبي جعفر السماني .
(١٧) تاج العروس ٨/ ١٩١ (مادة : أمم) .
(١٨) الطبري في تفسيره على آية ٣/ ٢٠ ، صـ ١٤٣ من الجزء الثالث ، انظر : روح المعاني ٢١/ ١٧ .

الذى نقل عن ابن عبّاس رأيٌ جازمٌ حَسَنٌ قال : "الأمّيّون العربُ كلُّهم ، مَن كَتَبَ منهم وَمَنْ لم يكتبْ ، لانهم لم يكونوا أهلَ كتاب" [19] .

****

خـــاتمـــة الفصـــل

ان الايمان بمعجزة أميّة الرسول فيه من الغرابة ما يجعل المسلم المؤمن في حيرة : لقد كان مقصودُ المسلمين في اثباتِ الاميّة لمحمّـد سبيلاً واضحا لأثباتِ معجزةِ القرآن ومصدرِه الألهي . وهذه المعجـزة جرّتْ معها ووراءها تزويرًا للتاريخ وتحويرًا صريحا . بسببها سقطتْ مكّـةُ في الجهلِ والغباوة ، وبسببها عُمّ الجهلُ والكفرُ على عصر ما قبل الاسلام ، وبسببها قَلَبَ الله نظام الكون ، فوضَع الفصاحةَ على لسانِ جاهلٍ ، ووضَعَ العلمَ حيثُ الجهلُ ، والايمانَ حيثُ الكفرُ ، والمعرفةُ حيثُ الغباوة ...

أمن حقِّ المسلمين ، لأثباتِ بلاغة القرآن ، تهمةُ الناسِ بالجهل ! أهي معجزةٌ للدين أن يَعجزَ الناسُ عن الاتيان بفصاحته ! أمنْ كِبَرِ اللـهِ وعظمتِه أن يأتي بنبيٍّ جاهل ! هل من شأنِ الدين أن يُبنى على بدائيّـةِ البشر ، وَيفتخرَ بتعاليه على بداوتهم ! هذا ، وان التاريخَ يثبتُ عكـسَ ما يريدُه المتديّنون : فالقراءةُ والكتابةُ ووسائلهما كانتْ في مجتمع مكّـة في غايةِ الانتشار والمألوف . فلماذا التغاضي عن فخرٍ بالجدودِ هو حقٌّ لهم علينا !

ان الايمان بمثلِ هذه المعجزة يُعجزُ البشرَ عن رؤيةِ وجهِ الحق *

---

(١٩) الجامع لاحكام القرآن ١٨ / ٩١ .

الفصل الثالث

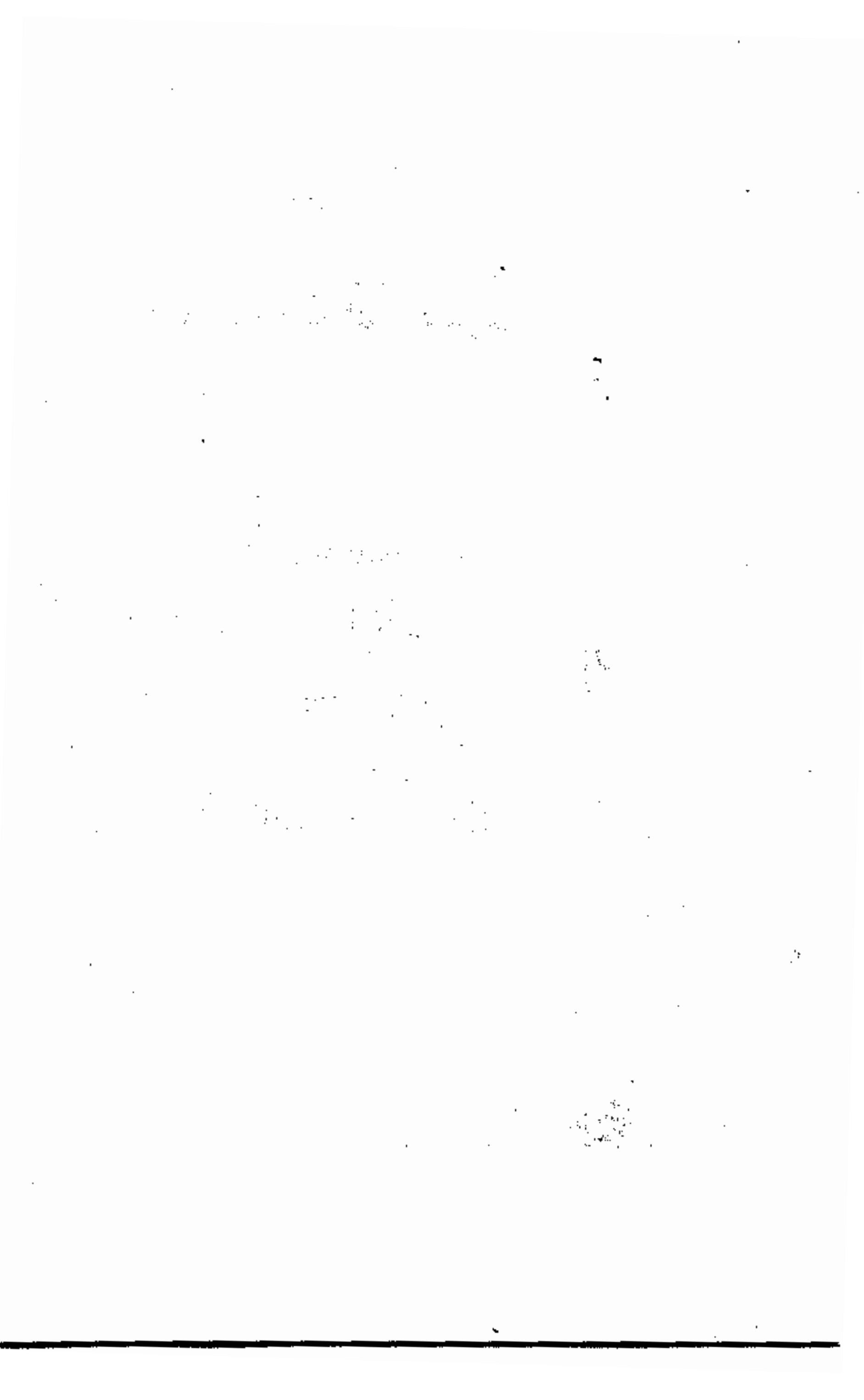
معجزة حفظ محمد للقرآن

أولاً - النسيان النبوي

ثانياً - النسخ في القرآن

ثالثاً - إجازة التبديل في القرآن

رابعاً - دس الشيطان في الوحي



مقدمة الفصل

في ايمان المسلمين أنّ الله تولّى ويتولّى بنفسه شؤونَ كتابه الكريم . فهو الذى "أوحاه"، وهو الذى "نزّله" من الأفق الاعلى ، وهو الذى "أنزله" على محمّد منجما ، وهو الذى "جَمَعَه"، و"رتّبه"، وقرأه" لمحمّد ، وهو الذى "يَحْفَظُه"، ويعمل على "بَيَانه"... وبالتالي ، لا شأن فيه لمحمّد ؛ فلا ذاكرةُ محمّد تفيدُ في حفظِه، ولا علمُه يزيدُ القرآنَ علما ... لا اتّقادُ ذاكرةِ النبيّ حفظتِ الكتابَ ، ولا ضَعفُها أثّرَ على صيانته ...

ولئن كان اللهُ يتدبّر أمرَ القرآن فأحرى به أن يتدبّر محمّدا لكي يحفظَه ويبلّغَه بأمانةٍ ودقّةٍ متناهية . وهكذا عَصَمَ اللهُ النبيّ من نقيصةِ "النسيان"، وعَصَمَه من الأهواءِ والنَزَعاتِ الشخصيةِ، وعَصَمَه من أن يُبدّلَ ويحرّفَ في الكتاب ، وعَصَمَه من أن يُنقِصَ منه أو يزيد ، وعَصَمَه من دسائسِ الشيطانِ وحِيَلِه ... لقد أنعمَ اللهُ على نبيّه بالعصمةِ لأنّه تعالى حَمّلَه حِملا ثقيلا : "انّا سَنُلقي عليكَ قولاً ثقيلا".(١)

ولكنَّ عصمةَ الله هذه لم تمنع الرسولَ من أن يَنعمَ بكل ما له من عواطفِ الحبِّ والغضبِ، وأميالِ النفسِ والجسد ، ونزعاتِ القلب والشهوات، ووهنِ الطبيعة ومتطلّباتها ؛ لقد عرفَ النبيّ الحبَّ والشهوةَ، واختارَ له نساءً ، وميّزَ بينهنّ ، فأحبَّ واحدة أكثرَ من واحدة، وكانَ له أولاد ، وهَمٌّ

---

(١) سورة المزمل ٧٣/ ٥ .

تربية الاولاد ، وكان له أصحاب أوفياء ، وأعداء نَزّلَ عليهم اللعنات. كان كسائرِ البشرِ في كل شيء ، في تَعبِهِ ومَرضِهِ وآلامِهِ وأكْلِهِ وشربِهِ ومَشيِهِ في الاسواق (٢) ... في هذه كلّها لم يَعصمِ الله نبيّه ، ولم يقيّدْ حريّته ...

الّا انّ الله عَصمَ نبيّه من ارتكابِ الفواحشِ والاخطاءِ والاغلاط وكلِّ ما يمتّ الى الاخلاقِ بصلة . وعصَمه أيضا وخاصّةً فيما يتعلّق بتبليغ كتابه وكلامه . وهذه العصمة هي أمرٌ قديم جدّا في تاريخِ الله مع الانبياء ، لقد كانَ النبيّون في اسرائيل معصومين ، وفي المسيحية عصمةٌ تمتدُّ بعيدا ، بل كلُ صاحبِ عقيدةٍ أو نفوذٍ أو قيادةٍ يتمتّع ، عندَ أتباعه ، بعصمةٍ ما ... ويبدو انَ الانسانَ ، في ضياعِهِ في خضمّ هذا العالم المضطرب ، يحتاجُ الى بعض العصمة يجدُها في مكانٍ ما ، ليطمئنّ . بل كل امرىءٍ يُسعى لأن يكونَ في مسعاه معصوما ...

وكم في التاريخِ عُصِمَتْ أنبياءُ وأولياءُ وقدّيسون وائمّةٌ وأصحابُ عقيدةٍ وزعماءُ سياسيون وثوّارٌ ومنظّرون ومنظّمون ... وكم عُصِمَتْ شرائعُ وقوانينُ وكتبُ ورسائلُ ومبادىء ... فَمَنْ يستطيعُ تغييرَ حرفٍ واحدٍ من كتبِ السماءِ دونَ أن تنهالَ عليه ويلاتُ الارضِ وأهوالُ السماوات! ومَنْ يمكنُه ألاّ يرى في كتابهِ كلَ عصمةٍ وكلَ حقّ ! ومَنْ يتمكّنُ من ازالةِ حرفٍ واحدٍ من الناموس ، حتى ولو كانَ كلُ حرفٍ من الناموس من صنعِ رجالٍ تعساء!

لكأنّ العصمةَ هي ، عندَ البشر ، نزعةٌ نحوَ الأبديّة ، والحقيقةُ هي أنّ كلَ شيء على الارضِ يَمُج ، والأرضُ كلّها تموج بكلِ شيء ، والحياةُ غيرُ مستقرّة ، وعواملُ الكونِ في تغييرٍ مستمرّ ، ومعالمُ البشريّةِ تُمحَى سريعا ، وعلومُ الانسان تَنقلبُ من عصرٍ الى آخر ، والأمرُ الواحد حقيقةٌ هنا وضلالٌ

(٢) سورة الفرقان ٢٥/ ٧ ، وغيرها .

هناك، ودُولٌ تدول، ومجتمعاتٌ تزول، وعالَمٌ يبور، والكلُ في اضطراب. وليسَ على الارض ثابتٌ الاّ ما لا يُثبت... تجاهَ هذا الواقع المائج، خَلَقَ الانسانُ لـه حَبْلاً مَتيناً رَبَطَ بهِ الأرضَ المائِجَةَ بعُمُدِ السماءِ الثابتة، فكانتِ العصمةُ خيرَ ما أوْجَد.

ملايينُ الكتبِ في المكتباتِ حاوَلَ أصحابُها وَضْعَ بعضِ العصمةِ فيها. وليسَ في الارض مِن مفكّرٍ أو صاحبِ رأيٍ أو مُنظّرٍ الاّ ويَدمَغُ ما عندَه بالعصمة. بل ليسَ من ساعٍ نحو عصمةٍ ما لديه الاّ ويريدُ دَفْعَ الآخرينَ الى عصمتِهِ دفعًا. وبات الجميعُ ينوءُ تحت عبءِ نقلِ العصمةِ وأصحابِها. وقد لا تكونُ مشاكلُ الارضِ والانسانيةِ الاّ من هذا القبيل. فلولا خَفَّفَ الانسانُ عن أخيه ضَغْطَ عصمتِهِ لَهانَتْ بين الناسِ سُبُلُ المحبةِ والوفاقِ والسلام. ولكنّ ميلاً في عمقِ كلِ انسان يَجْمَحُ بهِ نحوَ العصمة. فلهذا كان في الارض حروبٌ وثوراتٌ وبغضٌ وكفرٌ وبلبال. وأجلى صُوَرِ العصمةِ رُقِمَتْ في الدين. فلا الدينُ يزول، ولا العصمةُ فيه تَخِفُّ حِدّتُها، لا المؤمنُ يتزحزحُ عن عصمةِ دينه، ولا لاعنُ الأديان يستطيعُ النجاةَ من دغدغةِ عصمته!

يهونُ الايمانُ بالعصمة في ما يتعلّقُ بأمورِ السماء والاديان... ولكن كيف يهونُ معَ رجالٍ عَصَمُوا أنفسَهم وعَصَمَهم الناس؟ وقد يهونُ الأمرُ أيضا اذا تمتّعَ هؤلاءِ الرجالُ بعصمةِ أهلِ زمانهم، ولكن كيف يهونُ متى انقلبَ ذاكِ الزمان، وتَبَدَّلَتْ معالمُ الحضارة، وانقلبَ التاريخُ على نفسِه، وقَلَعَ مجتمعٌ حضاريٌّ مجتمعًا بدائيًا بدويًا، وأطاحتِ الأرضُ الخضراءُ بالصحراءِ الملتهبة، وأخذتِ الطائراتُ تملأُ آفاقَ البرِّ والبحرِ مكانَ الابلِ والحمير...

متى حدث كلُ هذا، نسأل: هل تبقى العِصمةُ في مجدِها؟ وهل نبقى تحتَها رازحين الى الأبد؟ هل يبقى الرجالُ أحياءً بعصمتِنا لَهم،

وقد أماتَهمُ اللهُ رحمةً بنا؟ هل يتسنّمُ كلُ معصومٍ بمجدِه على رؤوسِنا وفي عرشِ قلوبِنا، وعظامُه في الترابِ بُليتْ وصيّرتْها الأرضُ الحنونةُ هَبَاء؟ هل يحقُّ لنا تخليدُ رجالٍ أفناهُمُ الله؟... ليتَ الوثنيةَ تعودُ بوجهِها الصريح من أن تكونَ على مثلِ هذا الوجهِ الخبيث!!!

مَن هو الكافرُ بالله، أعابدُ الأصنامِ الذي بها يَسعى نحوَ الله، أم الذي يسرقُ من اللهِ عصمتَه ليغرزَها في رَجُلٍ مائتٍ كالرجال؟ مَن هو المشركُ بالله، ذاكَ الذي أطلقَ سَراحَ الله، أم ذاكَ الذي حصَرَ اللهَ في هيكلٍ من حجارةٍ أو في كتابٍ من وَرَقٍ وحروف؟

ومع هذا يجب أن يبقى عند بعضِ الناسِ لبعضِ الرجالِ بعضُ العصمة. لولاها لَضَاعَ الناسُ في ضَياعٍ محتوم. بعضُ العصمة يخلّصُ الانسانَ من القلق، ولكنَّ العصمةَ كلَّها تُريحُ العقلَ الذي خُلِقَ حرّاً باحثاً متحركاً ناشطاً عامِلاً في كلِ أمرٍ من أمورِ الخَلق. بعضُ الاتزانِ يكفي لبعضِ الخلودِ على أرضِ الفناء. وبعضُ الحرّيةِ من معصوميّ السماء يَكفلُ لنا أَجْرَين: أجرَ الباحثِ وأجرَ مَنْ يحافِظ على كرامةِ الانسان. فأطلِقوا الحرّيةَ، وقيّدوا اتساعَ رقعةِ العصمةِ والمعصومين، ولكم منّي، بعد هذا، نشيدُ الظفر.

ونشيد الظفر هو هذا: أن تحرّرَ اللهَ، وأن تتحرّرَ بفضلِ الله. أن تسأل: كيف عَصَمَ اللهُ نبيَّه محمّدا من النسيانِ ومن أهواءِ الطبيعة ومن دَسِّ الشيطان ومن التحريفِ والتصحيفِ في الكتابِ الذى بين يديه. وكيف رُبِطَ هذا الكتابُ بعُمُدِ السماء، وكيف نزّلَه ملاكٌ من السماء، وكيف يتمتّع هذا الملاكُ بعصمةِ الله؟ وأن تسأل: هل حَفَظَ محمّدٌ كلَّ القرآن، أم نسيَ بعضَه؟ هل في حفظِ القرآن معجزةٌ الهيّة، أم اللهُ تركَ التاريخَ يَسعى بموجبِ نظامِه المتأرجحِ بين الحقِ والباطلِ؟ فلننظر.

أولاً ـ النسيان النبوي

يعترف القرآنُ نفسُه بأنّ كثيرًا منه قد نُسِيَ . ولئن كان الأنبياء معصومين في رسالتهم وأخلاقهم ، فانّهم ، على ما يبدو ، لم يُعصَموا من الضعفِ والوهَن الحاصِلين في الطبيعة البشريّة . ونجدُ القرآنُ والسنّةَ يُقرّان بهذا الضعفِ النبوى . ولا بدّ للمسلمين أن يُقرّوا بهذا الضعف في ذاكرةِ النبي الذى أساء في حفظ كل القرآن .

فمنذ مطلع الوحي حذّر اللهُ محمّدا من نسيان شيء من القرآن ، قال : " سَنُقرِئُكَ فلا تَنسى إلاّ ما شاء الله . انّه يعلَمُ الجهرَ وما يخفى . ونُيَسِّرُكَ لليُسرى "(١) . وجاء في تفسير الجلالين : سنقرئك القرآنَ فلا تنسى ما تقرؤه الاّ ما شاءَ الله أن تَنْسَاه ، بِنَسْخِ تلاوتِهِ وحكمِهِ . وكان الرسولُ يجهرُ بالقراءةِ مع قراءةِ جبريل خوفَ النسيان ، فكأنّه قيل له : لا تعجلْ بها ، انّك لا تَنسى فلا تُتعِبْ نفسَك بالجهر بها ، انّه تعالى يعلم الجهرَ من القولِ والفعلِ وما يخفى منهما ... "(٢) .

فاذا كان "الجلالان" يُقرّان بامكانيّةِ النسيان عند محمّد ، فانّ محمّدُ الكلبي يجيزُه فيقول : " ان النسيانَ جائز على النبي (ص) فيما أرادَ الله أن يَرْفَعَهُ مِنَ القرآن ، أو فيما قضَى اللهُ أن يَنْسَاه ، ثم يُذْكره . ومن هذا قول النبي (ص) حين سَمع قراءةَ عباد بن بشير رحِمَهُ الله : لقد أذكرَني

(١) سورة الاعلى ٨٧/ ٦ــ٨ .
(٢) تفسير الجلالين على سورة الاعلى ، ص ٧٩٥ .

كذا وكذا آيـة كنتُ قد نسيتُها.[٣]

أمّا تفسير الزمخشرى فيتوقّف على معجزة قراءة جبريل للنبي لئلا ينساه. "وقيل : كان يعجلُ بالقراءة اذا لقّنهُ جبريلُ، وقيل: لا تعجل فانّ جبريلَ مأمورٌ بأن يقرأه عليكَ قراءةً مكرّرةً الى أن تحفظَه ثم لا تَنساه الاّ ما شاءَ الله، ثم تذكرُهُ بعد النسيان ... وروى انّه أَسْقَطَ آيةً في قراءتهِ في الصلاة فحَسِبَ أُبيٌّ (بن كعب) انّها نُسِخَتْ، فسأله، فقال : نَسِيتُهَا".[٤]

وجاءَ في تفسير الطبرى : "أخبر انّه يُنسي (الله) نبيَّه منه (من القرآن) ما شاء ؛ فالذي ذَهَبَ منه هو الذي استثناه الله".[٥] ونجد أيضا في "كتاب مجموعة من التفاسير" للبيضاوى والنَسَفي والخازن وابن عبّاس اقرارا بالنسيان النبوى وبحدوثه مِرَارًا على ما روى المحدِّثون ومنهم الصحيحان.[٦]

****

وفي سورة الكهف قوله : "واذكر ربَّكَ اذا نَسِيتَ. وقلْ : عَسَى أَنْ يَهْدِيَني رَبِّي لِأَقْرَبَ من هذا رشدا".[٧] فسّر البيضاوى ذلك بقوله : "اذا فرطَ منكَ نسيانٌ ذلك ... اذكر ربَّك وعقابَه اذا تركتَ بعضَ ما أمرَكَ بـه، ليبعثَكَ على التداركِ. واذكره اذا اعتراكَ النسيانُ ليُذْكِرَكَ المَنْسِيَّ".[٨]

---

(٣) محمد الكلبي، كتاب التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٩٣-١٩٤ .
(٤) الزمخشرى، الكشاف ٤/ ٢٤٣ .
(٥) تفسير الطبرى ٢/ ٤٨ .
(٦) انظر "كتاب مجموعة من التفاسير"، ٦/ ٤٩٤ .
(٧) سورة الكهف ١٨/ ٢٤ .
(٨) تفسير البيضاوى للقرآن على سورة الكهف.

وفي تفسير الزمخشرى اشارةٌ الى منفعة النسيان وضرورته . يقول :
"واذكرْ ربَّك اذا تركتَ بعضَ ما أمرك به ... واذكره اذا اعتراكَ النسيان ليذكّرك المنسيَّ ... والظاهر أن يكونَ المعنى : اذا نسيتَ شيئا فاذكرْ ربّك . وذكرُ ربّك عند نسيانه أن تقولَ : عَسَى ربّي أن يَهديَني لشيءٍ آخرَ بدلَ هذا المَنسيّ أقرب منه "رَشَدًا" وأدنى خيرًا ، ولعلُّو منفعةِ النسيانِ خيرة ، كقوله ـ أو نُنْسِهَا نأتِ بِخَيرٍ منها ".[9]

وهو أيضا تفسيرُ النسفي والخازن وابن عباس[10] .

****

وفي سورة البقرة قوله : " وما نَنْسَخْ مِن آيةٍ أو نُنْسِهَا نأتِ بخير منها أو مثلِها ".[11] نتكلّمُ الآن على فعل "نُنْسِهَا" ونرجىءُ الكلامَ على "النَسْخ" الى ما يلي . لقد اختلفتْ قراءاتُ فِعْلِ "نُنْسِهَا" ، فمنَ المفسرين من قرأها بمعنى " نؤخّرُها فلا نُنزلُ حكمَها ونَرْفَعُ تلاوتَها ، أو نؤخّرُها في اللوحِ المحفوظ ".[12] ومنهم من رأى " معناها : نُثْبِتُها على قلبِك ... (فيكون) الإنْسَاءُ نَسْخٌ من غيرِ اقامةِ غيرهِ مقامهِ (من أحكام) .

أمّا الرأى المرجَّح فهو : " إنساؤُها : اذهابُها عن القلوبِ " أى نسيانِها . " أى نُنْسِكها : أى نُمْحِها من قلبك ".[13] ويعتبر الطبري أنّ " نسيانَ الوحيِ ظاهرةُ نبويّةٌ الهيّةٌ في القرآن ".[14]

---

(٩) الزمخشرى ، الكشاف ٢/ ٤٨٠ .
(١٠) كتاب مجموعة من التفاسير ، ١/ ١٠٠ على سورة الكهف .
(١١) سورة البقرة ٢/ ١٠٦ .
(١٢) تفسير الجلالين على ٢/ ١٠٦ ، مجموعة من التفاسير ، ص ١٧٤
(١٣) تفسير الجلالين على ٢/ ١٠٦ .
(١٤) تفسير الطبرى ، ٢/ ١٠٦ .

بأىّ معنى جاءت لفظة "نُنْسِهَا" فلا اعتراضَ عليه . ولكنّ كُتُبَ الحديثِ والسنّة تعترفُ بظاهرةِ النسيان المحمّدي بما لا يبقى لدينا أىُّ شكّ في ذلك :

لقد نَقَل الطبري عن قتادة قوله : "يَقرأُ نبيُّ اللهِ الآيةَ أو أكثرَ من ذلك، ثم تُنْسَى وتُرْفَع". وأيضا : "كانَ الله يُنسي نبيَّه ما شاء". وعن مجاهِد : "كان عُبيدُ الله بن عُمير يقول : "نُنْسِهَا، نرفَعُها من عندكم". وعن الحَسَن : "انّ نبيَّكم أقرئ قرآناً ثم نَسِيَه". وعن الربيع : "نُنْسِها، نرفَعُها . وكانَ الله أنزلَ أمورا من القرآن ثم رَفَعَهَا" (١٥).

والحقيقة ان ما ورد على لسان المفسّرين من معانٍ لفعل "نُنْسِهَا" تتقارب : فَرَفْعُ أحكامِ آيةٍ ما من آياتِ القرآن، أو تأخيرُها، أو نسيانُها، أو محوُها من قلبِ النبي ... كلُّها تدلّ على طَعْنٍ في صميم العصمة . ان الله الذى عَصَمَ نبيّه ليَعصِمَ بعصمتِه القرآنَ "يرفَعُ" الآنَ عصمَتَه، وذلك بسببِ تبدّلِ ظروفِ النبيّ وأحوالِهِ وأحداثِ التاريخ . ويثبتُ ذلك ما سيتّفقُ عليه عامّةُ المسلمين من جوازِ نَسْخِ آيةٍ بآية، كما سيأتي ...

وفي صلاةِ النبيّ لربّهِ خيرُ ما نختمُ به مقالَنا : "أللهمّ! ذكّرني منهُ ما نَسِيْتُ، وعلّمني منه ما جَهِلتُ". ويعترفُ المحدّثون بأهمّيةِ هذه الصلاة، فيفسّرون : "ربّما نزَل على النبيِ الوحيُ بالليلِ ونَسِيَهُ بالنهار".

****

---

(١٥) انظر مقالة : الطبرى، في دائرة المعارف بمصر، ٢/ ٤٧٤ — ٤٨٠، تخريج الاخوين شاكر...

ثانياً ـ النسخ في القرآن

في ايمان المسلمين انّه "لا يجوز لأحد أن يفسّرَ كتابَ الله الاّ بعد أن يعرفَ منه الناسِخَ والمنسوخ . وقد قال عليٌّ لِقاضٍ: أتعرفُ الناسخَ من المنسوخ ؟ قال : لا . قال : هلكْتَ وأهلكْتَ".[١]

وللنسخ معانٍ :

"منها معنى الازالـة، ومنه قوله : "فينْسَخُ اللهُ ما يُلقي الشيطـانُ، ثم يُحكِمُ اللهُ آياتِه".[٢]

ومنها معنى التبديل، ومنه : "اذا بدّلنا آيةً مكانَ آية".[٣]

ومنها معنى التحويل، كتناسخِ المواريثِ بمعنى تحويلِ الميراثِ من واحدٍ الى واحد[٣].

ومنها معنى النقلِ من موضعٍ الى موضعٍ، ومنه : "نَسَخْتُ الكتابَ"، اذا نقلتَ ما فيه حاكياً للفظِه وخطِّه. وهذا الوجهُ لا يصحّ ان يكـونَ فـي القرآن".[٤]

والنسخُ هو من خصائصِ الأمّةِ الاسلاميّة، وقد خصّها اللهُ به لحِكَمٍ

---

(١) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ٢ / ٢٠ .
(٢) سورة الحج ٢٢ / ٥٢، نفس المرجع السابق .
(٣) سورة النمل ٢٧ / ١٠١، نفس المرجع .
(٤) الاتقان ٢ / ٢٠ ـ ٢١، البرهان ٢ / ٢٩ .

منها التيسير، وقد أجمعَ المسلمون على جوازِه، ولكنّهم اختلفوا في وجوهِ. وأحدُ وجوهه "ان القرآنَ نَسَخَ جميعَ الشرائعِ والكتبِ القديمةِ كالتوراةِ والانجيلِ وغيرهما. ألوجه الثاني: المرادُ من النسخ هو نَسْخُ القرآن وَنَقْلُه من اللوحِ المحفوظ الى سماءِ الدنيا. والوجهُ الثالث، وهو الصحيح، الذى عليه جمهورُ العلماء، ان المرادَ من النسخِ هو رَفْعُ حكمِ بعضِ الآياتِ بدليلٍ آخرَ يأتي بعدَه. وهو المراد بقوله تعالى: "ما ننسخُ من آيةٍ أو نُنسِها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلِها".[٥]

وبتعبيرٍ استساغَه الشيخُ صبحي الصالح: ألنسخُ هو "رَفْعُ الحكمِ الشرعي بدليلٍ شرعي"، وهو، بنظرِه، "أدقّ تحديدٍ اصطلاحيٍ لهذه اللفظة".[٦] وهو، كغيرِه من المسلمين المتأخّرين، يعتمد على أئمّة المفسّرين[٧].

ثم اختلفَ المسلمون في تعيينِ الآياتِ الناسِخة والمنسوخةِ، وفي تعيينِ الاحكام الناسِخةِ، فاذا ببعضِهم يغلو فيقول بأنّ معظمَ سُوَرِ القرآن يَجْتَمِعُ فيها الناسِخ والمنسوخ، وبعضِهم الآخر يفرّ من النسخ ويقول بان ليسَ في القرآن ناسِخٌ ومنسوخ، وذلك خوفًا من أن يقعَ هؤلاء بالقول بـ"البداء"، وهو القول بانّ الله يغيّرُ أحكامَه ويبدّلُها بحسَبِ الظروفِ والمناسبات، وحاشاه من ذلك. الاّ أن المعتدلين أجمعوا على القول بأنّ الاصلَ في القرآن هو "الاحكام"، ولكن يوجَد فيه بعضُ "النَسْخ"، ولكنّه قليل. وقد عدّ السيوطي أحدَى وعشرين آية ناسِخة ومنسوخة[٨] والشيخ صبحي لا يرى أكثر من عشرِ آياتٍ فقط[٩].

---

(٥) سورة البقرة ٢/ ١٠٦، كتاب مجموعة من التفاسير، ص ١٧٥.
(٦) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٦١.
(٧) انظر فصل في حكم النسخ في كتاب مجموعة من التفاسير، ص ١٧٥.

ثمّ ان النسخ في القرآن على ثلاثة أضرب : أحدها ما نُسِخَ تلاوتُه وحكمُه معاً ، أى انّ آياتٍ ، بحسب تعبير أبي موسى الاشعرى ، " نزلتْ ثمّ رُفعت".[١٠] الثاني : ما نُسِخَ حكمُه دونَ تلاوته . وهو قليل جداً ، لانّ من حقّ الناسخ والمنسوخ أن تكونَ آيةٌ نَسَخَتْ آيةً".[١١] والضرب الثالث : ما نُسِخَ تلاوتُه دون حكمه ، أى انّ كثيراً من القرآن قد ذهب وسَقَطَ وبقي حكمه[١٢] .

****

أمّا الحكمة ، برأى المسلمين ، في معرفة الناسخ والمنسوخ " تظهرنا على جانب من حكمة الله في تربيةِ الخلق ، وتقفنا على مصدر القرآن الحقيقي : وهو الله ربّ العالمين ، لانه يمحو ما يشاء ويثبتُ ، ويرفع حكما ويبدّلُ آخره من غير أن يكونَ لأحدٍ من خلقِهِ عملٌ في ذلك ولا شأن ، حتى ولا خاتَمُ النبيين نفسه".[١٣]

وحكمة ذلك من وجهين : أحدهما انّ القرآن يُتلى ، ولو كانتْ بعضُ أحكامِهِ منسوخةً ، لكونِهِ كلامَ الله فيثابُ الانسان على هذه التلاوة ؛ والثاني : ان النسخَ ، غالباً ، يكون للتخفيفِ ، فأُبقيتِ التلاوةُ تذكيراً للنعمةِ ورَفْعُ المشقّة".[١٤]

---

(٨) السيوطي ، الاتقان ، ٢ / ٢٣ ، وقد نظمها في أبيات شعر .
(٩) الشيخ صبحي ، مباحث... ، ص ٢٧٤ .
(١٠) السيوطي ، الاتقان ، ٢ / ٢٢ .
(١١) السيوطي ، الاتقان ، ٢ / ٢٢ .
(١٢) السيوطي ، الاتقان ، ٢ / ٢٢ـ٢٥ .
(١٣) الشيخ صبحي الصالح ، مباحث... ، ص ٢٥٩ .
(١٤) السيوطي ، الاتقان ، ٢ / ٢٣ .

انّ المهمّ بالنسبة الينا الآن هو الاعتراف بأنّ اللـه، نظرا لاختلاف الحال ووضع الناس وتبدّل المجتمع من مكّي الى مدني ، ومن بدوى الى حضرى، ومن دعوة بالسلم الى دعوة بالجهاد ، ومن وعظ وتبليغ الى سنّ شـرائع وقوانين ...، ان الله أجاز لمحمّد تبديلَ مواقفه، كما أجاز له، تبريرا لهذا التبديل، أن يُرْفَعَ الاحكامَ ويبدّلها بغيرها . فيكون معنى ذلك :

انّ "اللهَ سبحانه وتعالى يعلّمنا انّ تغيّرَ الزمن والظروف يقتضي تغيّرَ الاحكام . فليست المسألةُ متعلّقةً بعلم الله شيئا الآن لم يكن يعلمه من قبل . حاشا الله . ولكنّ المسألةَ أنَ الحِكمَ يتّفقُ مع الظروف في فـترة من الفترات فيقضي الله به، ثم تتغيّرُ الظروفُ أو يريدُ الله التخفيفَ عن عباده فيتغيّرُ الحكم . فالمسألةُ لا علاقةَ لها بعلم الله الواسع الشامل ، ولكن علاقتها بحاجة الناس من جهة، وبتعليمهم التطوّرَ حسبَ الظروف من جهة أخرى ..." (١٥).

****

ولكنّنا نسأل : اذا كان الله أجازَ لمحمّد نسخَ بعضِ الاحكام في مدّة ثلاث وعشرين سنة من البعثة النبويّة، نظرا لتبدّل الظروف وحال الناس وللتخفيف عن المؤمنين ... أفلا يُجوّزُ لنا الدكتوران أحمد الشلبي وصبحي الصالح وصاحبا الاتقان والبرهان وكلُّ المسلمين نَسْخًا آخرا! وكل شيء يدعو الى ذلك! انّ تبدّلَ ظروف البشر، وتطوّرَ العلم، وتغيـيرُ وجه الكون، وانقلابَ نظريّات كثيرة في العالَم رأسًا على عقب... تستحقّ نسخا آخر قد يكون أوسعَ وأشملَ من النسخ الاوّل!

---

(١٥) الدكتور أحمد شلبي ، هل هناك قرآن منسوخ ؟ في كتاب "القـرآن نظرة عصرية جديدة"، لجملة مؤلّفين، ص ١٥٠ .

اذا كان أهل مكّة والمدينة استحقّوا خلالَ ثلاث وعشرين سنة أحكاماً تَنسخُ أحكامًا، وآياتٍ تُبدّلُ آيات، بسببِ أوضاعٍ جديدة وأحوالٍ مستجدّة، الا نستحقّ نحن، في مدةٍ تزيدُ على الثلاثِ وعشرينَ سنةٍ بأكثر من ألفٍ وأربعِ مائةٍ سنة وسنتين، رحمةً من اللهِ تَرْفَعُ عنّا أحكامًا وسنَنًا بُليتْ كما بُليَ المجتمعُ البدائي الصحراوي !

اذا كانت أحكامُ القرآن وسننُه في متناوَلِ بُدْوِ الحجاز، وقد آمَنَ بها مَن فهِمَها منهم، وأنكرَها من فهِمها منهم أيضا، وقد نُسِخَتْ وتَغَيَّرَتْ بالنسبةِ الى تبدّلِ أحوالِهم، الا يستحقّ متحضّرو العصرِ الخامسَ عشر أن يكونَ لهم أحكامٌ وسننٌ هي في متناوَلِ حضارتِهم !! أيعقلُ ألاّ يكونَ متحضّرو هذا الجيلِ أكثرَ وعياً وعلمًا ومعرفةً من بدائيي الصحراء !! وكيف كان لهؤلاء أحكامٌ تُنْسَخُ ولأولئك أحكامٌ تبقَى مدى الدهر !!

أيحكمُ القرآن على الناس بأنّهم مهما علا كعبُهم في العلمِ والمعرفة يظلّون بمستوى ما فهِمَه البدوى منه ! اذا كان الفرقُ بين المدني والمكيّ من القرآن واسعا الى هذا الحدّ الذي يقرّه المسلمون، ألا يكون هناك فرقٌ أوسع بين المدنيّ اليثربي والحضريّ الرياضي أو النَجْدي !!

لقد كان النبيُّ أرحمَ بالنسبةِ الى أهلِ زمانه منه بالنسبةِ الينا اليوم ! لقد أنزلَ اليهم أحكامًا، ثم رَفَعَهَا، ثم أنزلَ أحكامًا أخرى، ثمّ نَسَخَهَا ... الى أن استقرّتِ الاحكامُ وجُمّدتْ ووَصلتْ الينا وستصِلُ من بعدنا الى أبنائِنا في الجيلِ الألف للبشريّة ... فلا نبيّ يأتي بعد خاتم النبيين، ولا حكمٌ يصدر من جبريل يوقِفُ به حكمًا آخر ... وسنظلّ مع أهل مكّة والحجاز بمستوى واحد من العلم والمعرفة، وهم أخواننا في كلّ حال !!

لقد أقرّ المسلمون النسخَ في القرآن، وأجازوا لمحمّد أن يبدّلَ في أحكامِ الله. وفي هذا معجزةٌ لا مثيلَ لها، انّ اللهَ يسايرُ نبيّهُ المختارَ ليكونَ على مستوى الرسالةِ التي دعاهُ اليها. وبدَلَ أن يُقال إنّ هناكَ تناقضاً في الاحكامِ والشرائع قيل: هناكَ آياتٌ تَنْسَخُ آيات. وأقول مع الدكتور أحمد شلبي: "لا أفهم معنى لآيةٍ أنزلَها اللهُ تُفيدُ حكماً، ثم يرفَعُها مع بقاءِ حكمِها، لأنّ القرآن يقصد افادةَ الحكمِ والاعجازَ بنُظُمِه. فما هي المصلحة في رَفْعِ آيةٍ منه مع بقاءِ حكمها! ان ذلك غير مفهوم. وفي رأيي انّه ليس هناكَ ما يلجئني الى القول به"[16].

ومن غير المفهوم أيضا رفعُ الحكمِ معَ بَقاءِ آياته! ولا رفعُ الحكمِ والآياتِ معاً، كما قالت عائشة. وكما قال المكّي: "فيه المنسوخ غيرُ متلوّ والناسخُ أيضا غيرُ متلوّ"[17]... واختلط علينا بهذا المعتقد كل شيء. ولكن يبقى لنا الايمانُ بالله الذى أرادَ الانسانَ حرّاً، لا تقيّدهُ شريعة، ولا ينحصِرُ في عصمةِ الانبياء.

****

(١٦) أحمد شلبي، هل هناك قرآن منسوخ؟ ص ١٥٤.
(١٧) السيوطي، الاتقان ٢/٢٢.

ثالثاً - إجازة التبديل في القرآن

يتأرجح المسلمون في ايمانهم بين وجود تعديل في القرآن وعدم وجوده. فمن جهة يؤمن المسلم بأن "لا تبديل لكلمات الله"[١]، "ولن تجد لسنّة الله تبديلا"[٢]. ومن جهة ثانية يعترف القرآن بامكانيّة تبديل آية مكان آية، ويقول: "اذا بدّلنا آيةً مكانَ آيةٍ والله أعلم بما ينزّل ..."[٣].

والارجح عند المسلمين عامّة ألاّ يكونَ في القرآن شيءٌ من التبديل أو التحريف أو التناقض. ولذلك أجمعَ المفسّرون على أنّ التبديلَ في الآية السابقة يُفادُ منه النَّسْخ، فيكون معناها اذاً: "اذا بدّلنا آية ناسخَة بآيةٍ منسوخة".

ولكنّ الآية بكاملها: "واذا بدّلنا آيةً مكانَ آية ــ والله أعلم بما ينزّل ــ قالوا: انّما أنتَ مُفْتَرٍ ــ بل أكثرُهم لا يعلمون ــ. قل: نزّله روحُ القدس من ربّك بالحقّ، ليُثبّتَ الذين آمنوا، وهدًى وبشرى للمسلمين". انّما تعني، بحسب أهل التفسير، "بأنّ المشركينَ من أهل مكّة قالوا انّ محمّدا يَسْخَر بأصحابه، يأمرُهم اليومَ بأمرٍ وينهاهُم عنه غداً، ما هو الاّ مفترٍ يتقوّلُه من تلقاءِ نفسه. فأنزلَ الله هذه الآية"[٤].

---

(١) سورة يونس ١٠/ ٦٤، أنظر أيضا: ٦/ ٣٤ و ١١٥، ١٨/ ٢٧.
(٢) سورة الاحزاب ٣٣/ ٦٢، وايضا: ٣٥/ ٤٣، ٤٨/ ٢٣ وغيرها.
(٣) سورة النحل ١٦/ ١٠١ـ١٠٢.

ولكن يبدو انّ هذه التهمة في التبديل والتحريف قد لاحقت محمّدا طيلةَ رسالته. ونحن مع القرآن نجاري بين تهمة وردّ تهمة، وبين طعنٍ وطعنٍ مضاد. واننا لنجدُ آياتٍ كثيرة يجهد محمّد بها في رفعِ التهمة والطعن عنه. منها قوله:

"قال الذين لا يرجون لقاءنا: ائتِ بقرآنٍ غير هذا، أو بدّله... قل: ما يكونُ لي أن أبدّله من تلقاءِ نفسي..."[5]. وقال أيضا: "لا تبديلَ لكلماتِ الله. ذلك هو الفوز العظيم"[6]. وقال: "سنّةُ الله في الذين خلوا من قبل. ولن تجدَ لسنّةِ الله تبديلا"[7]. وقال: "فلن تجدَ لسنّةِ الله تبديلا، ولن تجدَ لسنةِ الله تحويلا"[8]... الخ.

وممّا يرجّح صحّةَ تهمةِ التبديلِ أيضا ما قرّره القرآنُ نفسُه في تخفيفِ سنّةِ الله التي أصبحتْ فيه مبدأً قرآنياً وعقيدةً اسلاميّةً في يُسْرِ الشريعةِ وخفّتِها على الناس. واننا نجدُ آيات كثيرة تشير الى ذلك. قال:

"الآنَ خفّفَ اللهُ عنكم، وعَلِمَ انّ فيكم ضعفاً"[9]. وقال: "ويريدُ اللهُ أن يخفّفَ عنكم، وخُلقَ الانسانُ ضعيفا"[10]. وقال أيضا: "ويريدُ الله بكم اليسرَ، ولا يريدُ بكم العسرَ"[11] الخ...

---

(٤) كتاب مجموعة من التفاسير ٣/ ٤٤١.
(٥) سورة يونس ١٠/ ١٥.
(٦) سورة يونس ١٠/ ٦٤، انظر: ٦/ ٣٤و١١٥، ١٨/ ٢٧.
(٧) سورة الاحزاب ٣٣/ ٦٢.
(٨) سورة فاطر ٣٥/ ٤٣، انظر أيضا: الفتح ٤٨/ ١٥ و ٢٣، البقرة ٢/ ٥٩ و ١٨١.
(٩) سورة الانفال ٨/ ٦٦.
(١٠) سورة النساء ٤/ ٢٨.
(١١) سورة البقرة ٢/ ١٨٥.

وحجة ذلك ان محمدا هو رسول لأمة معينة، لها ظروفها وأوضاعها الخاصة: "لقد بعثنا في كل أمة رسولا"[١٢]، ورسول العرب الأميين يجب ألا يكون كرسول اهل الكتاب الراسخين في العلم ... وليست قصة الاسراء والمعراج الا سعي محمد الى الله يطلب منه تخفيف الصلاة عن أمته، لتكون ثلاث مرات في النهار، لا خمسين مرة كما هي حال أمة موسى ... سأل موسى محمدا، بعد رجوعه من عند الله: "ما فرض ربك على أمتك؟ فقلت: خمسين صلاة في كل يوم وليلة. قال موسى: ارجع الى ربك، فاسأله التخفيف. فان أمتك لا تطيق ذلك ... فرجعت الى ربي فقلت: إي رب خفف عن أمتي. فحط عني خمسا. فرجعت الى موسى. قال: ما فعلت؟ فقلت: قد حط عني خمسا ... الخ"[١٣]. ولم يزل محمد يرجع الى الله ويلتقي بموسى حتى حط الله عنه كل الصلاة ما عدا ثلاثا ...

وهكذا جرى بين الله والأمة الاسلامية نوع من التعاطف والرحمة بسبب ضعف الانسان ... والمسلمون، اليوم، يفتخرون ويتباهون أمام شعوب الارض وأديانهم، عندما يعلنون باستمرار سهولة الشريعة الاسلامية وخفتها ويسرها ومسايرتها الطبيعة البشرية وأميالها، حتى غدا "الاسلام، بنظرهم دين الفطرة، والفطرة دين الاسلام"[١٤]. وهذا من قول الله: "فطرة الله التي فطر الناس عليها"[١٥].

*****

---

(١٢) سورة النحل ١٦/ ٣٦، انظر أيضا: يونس ١٠/ ٤٧.
(١٣) أنظر قصة الاسراء والمعراج في تفسير الجلالين على سورة ١٧.
(١٤) محمد جواد مغنية، الاسلام بنظرة عصرية، صد ٥١.
(١٥) سورة الروم ٣٠/ ٣٠.

ومن مسايرة أميال الطبيعة وأهوائها ما نجده في الاسلام من تحريمه للرهبانيّة، اذ هي بدعة نكراء[١٦] . وفي الحديث : " لا رهبانيّة في الاسلام ". ومن حبّ شهيّ للطعام والشرب ولكن دون الاسراف[١٧]، ومن حبّ الشهوات من النساء والبنين[١٨] ، اذ هي زينة الحياة الدنيا .

وفي الاحاديث ما روى عن النبي : " ليس خيرُكم من تَرَك الدنيا للآخرة، ولا الآخرةَ للدنيا، ولكن خيرُكم من أخذَ من هذه وهذه". وأيضا " انّما حبّبَ اليّ من دنياكم النساءَ والطيب ، وجعلتُ قرّةَ عيني في الصلاة". وقال لرجل ابتغى العزوبة : " فأنتَ اذن من أخوانِ الشياطين . ان كنتَ من رهبانِ النصارى فألحقْ بهم . وان كنتَ منّا فمن سنّتِنا النكاح "...ألخ .

*****

مهما حاول المسلمون في ابعادِ شبهة التبديلِ والتحويلِ في القرآن، فانّ شريعةَ الاسلام بَدّلَتْ وحوّلتْ في شرائعِ الانبياءِ السابقين . ولئن كانَ محمّدُ يفتخرُ بالانتماءِ اليهم فانّه أعجزَه الاخذُ بشريعتِهم التي حرّفَ فيها وبدّل . وأيضا : لم يبدّلْ محمّد في شرائع الانبياء وحسبُ ، بل بدّلَ فيما أُنزلَ عليه بين مكّة والمدينة . ولذلك اتّهمَه المتّهمون بالغشّ والافتراءِ على الله . وكان، بالطبعِ ، يردّ كلَ تهمة ، وحجّتُه انّه رسولُ أمّةٍ أمّيةٍ بدائيّة، يعجزُها اللحاقُ بأهلِ الكتاب وشرائعِهم .

****

---

(١٦) انظر سورة الحديد ٥٧/ ٢٧ .
(١٧) سورة الإعراف ٧/ ٣١ .
(١٨) سورة آل عمران ٣/ ١٤ .

رابعاً ـ دسّ الشيطان في الوحي

هناك في القرآن ظاهرةٌ عجيبةٌ غريبةٌ مثيرةٌ فريدةٌ من نوعها في الكتب السماوية، وهي امكانيّةُ تدخّلِ الشيطانِ في إِلقاءِ التحريفِ والفسادِ على لسانِ النبي بغيرِ علمِه. يقول :

"وما أرسلنا من قبلِك (يا محمّد) من رسولٍ ولا نبيٍّ الآ اذا تمنّى (قرأ) ألقى الشيطانُ في أمنيّته (قراءته ما ليس من القرآن) ثم يُحكِمُ اللهُ آياتِه . والله عليم حكيم . ليُجعَلَ ما يُلقي الشيطانُ فِتنَةً (محنة) للذين في قلوبِهم مَرَضٌ (شقاق ونفاق) والقاسيةِ قلوبُهم . وان الظالمينَ لَفي شِقَاق بعيد . وليعلمِ الذينَ أُوتُوا العلمَ انّه (القرآن) الحقُّ من ربّك فيؤمنوا به فَتُخبِتَ له قلوبُهم (تطمئنّ)".[1]

في تفسير الجلالين لهذه الآيات ما يثبت دسَّ الشيطان هذا :

" قرأ النبي في سورةِ النجمِ بمجلسٍ من قريش بعد " أفرأيتمُ اللاتَ والعزّى ومناة الثالثة الاخرى".[2] بالقاء الشيطانِ على لسانِه من غير علمه بـه : تلكَ الغرانيق العُلاء، وان شفاعتَهنّ لَتُرتجى ، ففرحوا بذلك، ثم أخبرَه جبريلُ بما ألقاهُ الشيطانُ على لسانِه من ذلك، فَحزِنَ ، فَسُلِّيَ بهذه الآية (من سورة الحجّ)".[3]

---

(١) سورة الحج ٢٢/ ٥٢ـ٥٤ .
(٢) سورة النجم ٥٣/ ٢٠ .
(٣) انظر الزمخشري ٣/ ١٩، وكتاب مجموعة من التفاسير ٤/ ٣١٥ـ٣١٩ .

وفي القرآن أيضا قوله : "... وامّا يُنسِيَنَّكَ الشيطانُ، فلا تَقْعُدْ بعدَ الذكرى"[٤] . معنى ذلك : وان أنساكَ الشيطانُ بعضَ ما أُنزِلَ عليك، فلا تَقْعُدْ حتى يذكّركَ الله به... ويفسّر الزمخشري بقوله : "ان شغلَكَ يا محمد بوسوسةِ الشيطان حتى تَنْسَى النهيَ عن مُجالَسةِ المستهزئين من قريش، فلا تَقْعُدْ معهم بعد أن تذكر النهي"[٥] .

الا أنّ بعضَ المسلمين المعاصرين لا يقبلون بحالٍ من الاحوال أن يكونَ للشيطانِ سلطانٌ أو تدخّلٌ في حياةِ النبي وفي وحيِ اللهِ اليه . لهذا يعلّقُ خالد الحمصي الجوجا على مثلِ هذه التفاسير لأئمّةِ المفسرين بقوله: "وهذا الحديث، من ناحيةِ موضوعه، يصادِمُ أصلاً من أصولِ العقيدةِ الاسلاميّة، وهو عصمةُ النبي من أن يَدسّ عليه الشيطانُ شيئاً في تبليغِ رسالته"[٦] . وهو يحيلنا الى تفسيرٍ معاصر لسيدِ قطب في "ظلال القرآن" حيث يعصم النبي من دسائس الشيطان وحِيَلِه .

ولكنّ محمّداً كان يَعي تدخّلَ الشيطانِ في ضميرِهِ ووجدانِه، فكان يلجأ مرارا وتكرارا الى خديجة لتفسّرَ له عمّا اذا كانَ ما يحدثُ له من الله أم من الشيطان[٧] . وقد تعجزُ خديجةُ عن تفسيرِ كل شيء، أو قد لا تطمئنُ كثيراً الى تفاسيرها، فكانتْ تذهبُ بابنِ عمّها الى القسِّ ورقة[٨] ، وكان القسُّ ورقة يتدبّرُ بعلمِهِ ومعرفتِهِ النبيَّ وما يحدُثُ له . وكم مرة رَجَعَ النبيُ الى منزلِهِ مطمئناً"[٩] .

(٤) سورة الانعام ٦/ ٦٨ .
(٥) الزمخشري، الكشاف ٢/ ٢٦ـ٢٨ .
(٦) تعليق الجوجا على تفسير الجلالين، ص ٤٤٧ .
(٧) انظر كتاب قس ونبي والمراجع على ذلك، ص ٥٢ـ٦١ .
(٨) نفس المرجع، وانظر ص ٥٢ من هذا البحث.
(٩) سيرة ابن هشام ١/ ٢٢٢، تفسير الطبري ٢/ ٤٩ ...

تجاه هذا الواقع المحزن الذى كان يتعرّضُ النبي له، أمرَ اللهُ رسولَه بالاستعاذة، قبل كل عملٍ وكلِ صلاة. ولقد يَفْتُكُ الشيطانُ بالنبيّ فَتْكًا، ويطعنُه طعنًا، ويَنخَسُه، ويُفسِدُ عليه الوحيَ والتنزيل، ويستحثُّه على صنعِ الشرِّ والمفاسد، ويحملُه على المعاصي ... وقل مع القرآن وبأسلوبه: ينزغنّه نزغا، أى يلقي الفسادَ فيه ... قال: "وامّا (ان ما) يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشيطانِ نَزْغٌ فاستعِذْ باللهِ انه هو السميعُ العليم".[١٠]

وعلى النبي، حيالَ أمرِ الشيطان معه، ان يصلّي الى الله لينجّيَه من تجاربِ الشيطان: "قل: ربِّ، أعوذُ بكَ من همزاتِ الشياطين".[١١] وعند قراءة القرآن لا بدّ من الاستعاذة من الشيطان: "فاذا قرأتَ القرآنَ فاستعذْ بالله من الشيطانِ الرجيم".[١٢] والأمر بالاستعاذة جاء قبلَ الأمرِ بالاستفتاحِ باسم الله الرحمن الرحيم. وحتى اليوم يستهلّ القارئ قراءته بـ"أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيم"، ثم يكمّلُ البسملة...

وخشيةُ تدخّلِ الشيطانِ في الوحيِ لم تكنْ عندَ النبي وَهْمًا، فمحمّد يردُّ التهمةَ عنه باستمرارٍ، ويَدْفَعُ عن القرآنِ تهمةَ دسائسِ الشيطان فيه. يقول: "وما تنزّلتْ به الشياطينُ، وما ينبغي لهم، وما يستطيعون. انّهم عن السمْعِ لَمَعْزولون".[١٣] ويقول أيضا: "وما هو بقولِ شيطانٍ رجيم"[١٤]، وأيضا: "وكذلك جعلنا لكلِّ نبيّ عدوًّا شياطينَ الانسِ والجنّ، يوحي بعضهُم الى بعضٍ زخرفَ القولِ غرورًا. ولو شاءَ ربّك ما فَعَلُوه".[١٥]

(١٠) سورة فصّلت ٤١/ ٣٦.
(١١) سورة المؤمنون ٢٣/ ٩٧.
(١٢) سورة النحل ١٦/ ٩٨.
(١٣) سورة الشعراء ٢٦/ ٢١٠_٢١٢.
(١٤) سورة التكوير ٨١/ ٢٥.
(١٥) سورة الانعام ٦/ ١١٢.

×××××××××

لو أنّ للشيطان سلطاناً على النبي وَحَسْبُ، لَهَانَ الأمرُ، فالنبيّ انسانٌ كسائرِ الناس، له أمياله وشهواته ورَغَباته وأهواؤه الطبيعيّةُ كلّها كاملةٌ. انه أيضا كسائر الأنبياء والرسل، يتعرّضُ لمفاسدِ الشيطان وحِيَلِه، فالملائكة في الجنّة نَزَغَ الشيطانُ بينهم، وآدمُ أسقطَه الشيطان في حبائِله، وداوودُ وسليمانُ وأيّوبُ ومعظمُ النبيين حثّهم الشيطانُ الى المعاصي … والمسيحُ، فيما هو بنظر المسيحيين أله كلّيُّ الكمال، جرّبَهُ الشيطانُ في البريّة … ومحمّد لن يكونَ أحسنَ حالاً منهم … انه أمر واقعٌ لا محالة.

الاّ أنّ للشيطان تدخّلاً في القرآن! له كلامٌ مدسوس في كلام الله! أو أقلّهُ يُخشَى ان يكونَ له ذلك، لأنّ النبيّ نفسَه خشيَ ذلك … وخشيتُنا اليومَ أكبر. أهيَ محنةٌ لنا منَ الله لكي نعملَ باستمرارٍ على تمييزِ الحقِّ من الباطل! أهيَ رفعةٌ للانسانِ لكي يكونَ متأهّبًا حَذِرًا! أهيَ فضيلةٌ للانسان بأنْ يَسعى الى طردِ الشيطانِ كلَّ مرّةٍ قامَ للصلاة!

ما رأيُ المسلمين اليوم اذا كانَ هذا الشيطانُ المسكينُ هو نفسُه الانسانُ المتشيطِن! أليسَ الانسانُ بحيَلِهِ أمهرَ من أمهرِ شيطان! ألحقيقةُ ان ذكاءَ الانسانِ أوجَدَ الشيطانَ ليريحَ صاحِبَه. بهذا رفعَ عنه مسؤوليّةَ كلِ شرٍّ وفساد. ولعلَّ الشيطانَ الرجيم اسْوَدَّ وجهُهُ لكثرةِ ما حمّلَهُ الانسانُ من شرورِه! مَنْ يُدري اذا لم يكنِ الشيطانُ قابعًا في نفس كلّ انسانٍ يُدغدِغُه ليتحمَّلَ عنهُ مسئوليّةَ شرّه! في ظنّي أنّ أجملَ ما خلقَ الله هو الانسان، وأجملَ ما خلقَ الانسانُ هو الشيطان. وقد يتحمّلُ محمّدٌ نفسُه ما دسّهُ الشيطانُ في كتابِ الله.

خاتمة الفصل

انّ مَن يستعرضُ حياةَ النبيّ محمّد في صَخَبِها ونشاطِها وكثرةِ التحرّكِ فيها لَيَعجَبُ تمامَ العجَب من رجلٍ "أميٍّ" يجهلُ الكتابة والقراءة ــ على ما يقوله المسلمون ــ كيفَ استطاع حِفْظَ ٦٦٣٦ آية مؤلّفة من ٧٧٩٣٤ كلمة ومن ٣٢٣٦٧١ حرفاً ... لو لم يكن هناك معجزةٌ من السماء لما استطعنَا فهمَ حَدَثٍ هو بهذه الاهمّية في التاريخِ البشرى!

لقد تمّتِ المعجزةُ رغمَ صعوباتٍ عديدة. ولكثرةِ الصعوباتِ كانت المعجزة. فبعد الذى رأيناه من ضَعفٍ في ذاكرةِ النبي وعقلِه، ومن نَسخِه بعضَ الآيات ليأتي بغيرها، ومن تدخّلِ الشيطانِ ودسّه في الوحي الالهي، ومن اجازةِ محمّد للتبديلِ في الوحي بحسبِ ضَعفِ الانسانِ العربي ووهنِ طبيعتِه وكثرةِ أهوائها وأميالها ... كلّ هذه جعلتِ المعجزةَ جائزةً بل واجبةً على اللهِ لكي يتمكّنَ محمّدٌ من حفظِ كل الوحي.

وبعد حياة كانت مليئةً بالحروبِ والغزوات والجهادِ والمغانم والاسرى والسبايا ... وبعد حياة بيتيّة فقيرةٍ تعيسة، تتعدّد فيها الزوجاتُ والنساءُ فتتعدّدُ طبعاً المشاكلُ والخصومات ... وبعد هجراتٍ الى الحَبَشة مرّتين والى الطائفِ ثم الى المدينة، والهربِ ليلا بخدعة ماكرةٍ لكفّار قريش... بعد كلَ هذا الصَخَب لا بدّ من معجزة لكي يتمكّن النبيّ من حفظ ما يوحي الله اليه ...

انّ مثل هذه المعجزة اقتضت من الله أن يُفَرِّغَ جبريلَ من كل عملٍ أو رسالةٍ أو مهمّة ليتفرّغَ لمحمّد . وقد اقتضى لجبريل ثلاثٌ وعشرون سنة ينزّلُ القرآن فيها منجمّا ، آيةً آيةً ليتمكّنَ محمّدٌ من حفظها . وكم نَحْسدُ صَبْرَ جبريل وَتَصَبُّرَهُ على رجلٍ أمّي يُلَقِّنُ كلامَ الله وَيتعلّمَ كلَّ ما عند الله من علوم وقوانين ...

ليس منّا مَن ينكر قولَ الله تعالى : "انّا نحنُ نزّلنا الذكرَ وانّا له لحافظون" (١٥/ ٩)، ولكن هل هذا يعني انّ محمّداً حفظَ الذكرَ كلّه بقوّةِ عقلهِ واتّقادِ ذاكرته، أم انّ اللهَ استحفظَه ايّاه، فكانَ محمّدٌ وفيّا لما استحفظَه من جبريل، ولم يبدّلْ فيه، بمعجزةٍ لا مثيلَ لها ، أمراً من أمور الوحي ! انّ المعجزةَ تمّت ولكن لا نعرف كيف وأين !

هناك معجزة وهي ذاك "اللوح المحفوظ". ولكن هذا اللوح يحفظ الوحي حفظا تامّا كاملا . وكل مرّة كانت الذاكرة تخونُ محمّدا كان محمّد يرجع الى ذلك اللوح ، فيقرأ وينزّل منه ما يناسب... ومن السهل على المسلمين القول بان هذا اللوح موجود في "الافق الاعلى" ، ولكن ليس من السهل علينا الوصول الى "الافق الاعلى" قبل البحث في هذا الافق التاريخي الادنى لنرى حقيقةَ معجزةِ حفظ القرآن!

وبتعبير أوضح : ان المسلمين المؤمنين يستطيعون رؤيةَ المعجزة أينما أرادوا : أكانَ الله هو الذى حفظَ القرآن! أم جبريل! أم محمّد! أم استحفظَ اللهُ وجبريلُ محمّدا وسهرا عليه! كلّ هذه معجزة . والمعجزة الكبرى ان يكونَ القرآنُ محفوظا ، لا في ذاكرةِ النبي وعقلِهِ، بل في كتابٍ سابقٍ وُجِدَ في مكّة بينَ يدي القس ورقة بن نوفل وهو "الانجيل العبراني". فالثقة بالكتاب في مجال حفظِ الوحي هي أفضل من الثقة بذاكرة انسانٍ ضعيف...

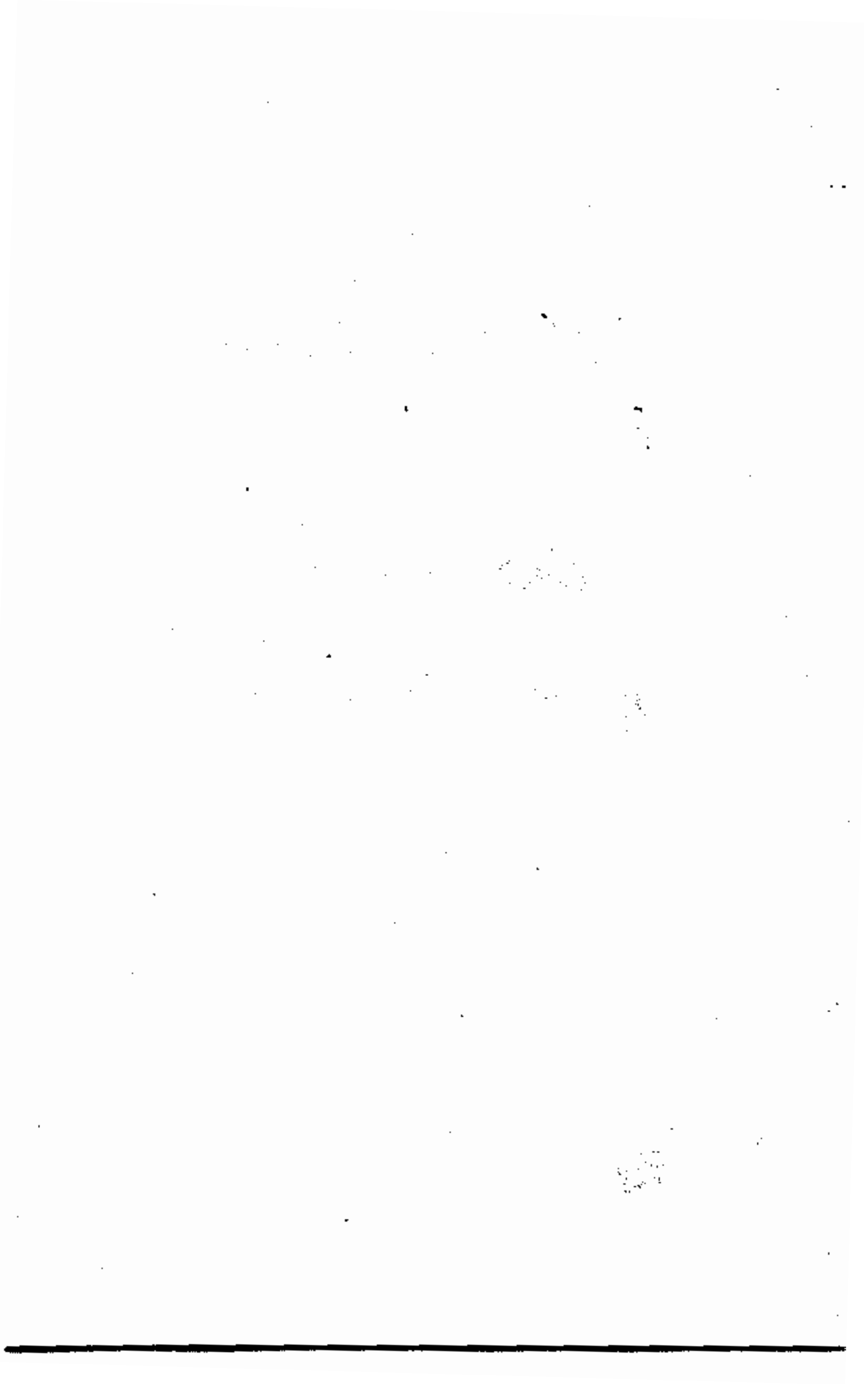
الفصل الرابع

معجزة حفظ الصحابة للقرآن

أولاً - تخلف الصحابة عن كل القرآن

ثانياً - حديث الأحرف السبعة

ثالثاً - حفاظ القرآن



مقدّمة الفصل

في اعتقاد المسلمين انّ القرآنَ الذى أُنزلَ بمعجزة، وحُفظ بمعجزة، سيَستمرّ في التاريخ بمعجزة : فالصحابةُ حَفِظوا القرآنَ، كلَّ القرآن، لم يُضيّعوا منه آية، ولم يَنسوا منه كلمة، ولم يُبدّلوا فيه حرفا، ولم يَتدخّل الشيطانُ بحِيَلِه ليُدسّ عليهم شرَّه ، كما تدخّلَ في النبيّ ، لأنّ الشياطينَ أخذتْ نصيبَها من النبيّ ، واستطاعَ النبيُّ عليها الغلَبَة ، وهو لها ، فيما الصحابةُ قد نَجَوا من مداخلةِ الشيطانِ خشيةَ سقوطِهم بتجاربه وحِيَلِه، وليستْ لهم عليه قدرة ... لهذا استحقّ الصحابة والتلاميذُ من الله عصمةً قد توازي عصمةَ النبي نفسِه . وبهذه العصمة حَفظُوا القرآنَ من كل تبديلٍ وتصحيف...

انّ معجزةَ حفظِ الصحابة للقرآنِ توازي معجزةَ التنزيلِ وحفظِ النبي نفسه . ولا فضلَ للنبي ان كانَ على الوحي اميناً وفيّاً صادقا ، انّما كل الفضل يعودُ لناسٍ ضعفاء، لهم أميالُهم وخلافاتُهم السياسية، ويحفظون كتابَ الله من غير تحريفٍ أو تزييف... ومع هذا فانّ اللهَ يضمنُ عصمةَ هؤلاء ويصطفيهم من خيرةِ العبادِ ويورثُهم كلمتَه ليؤدّوها بأمانة . جاءَ في الآية: "ثم أورثنا الكتابَ الذي اصطفَينا من عبادِنا"(١) . هؤلاء الورثة يحافظون على القرآنِ حفاظَهم على أولادِهم ومقدّساتِهم . وكلّما سمعوا منه آيةً

---

(١) سورة غافر ٤٠/ ٢ـ٣ .

انحنوا أمامها ساجدين : "انّما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذُكّروا بها خَرّوا سُجّداً ، وسبّحوا بحمدِ ربّهم".(٢)

هذه القدسية لن تبرحَ ، في نفوسِ المسلمين ، نشيطةً وقّادةً مدى الدهر ، لانّ "القرآنَ سرُّ السماء" ، فهو نورُ الله في أفقِ الدنيا حتى تزول ، ومعنىَ الخلود في دولةِ الارض الى أن تدول".(٣) ولئن كانت معجزةُ القرآنِ الاولى في بيانِه وسحرِه ، فمعجزتُه الثانية هي بخلودِه واستمراريّته(٤).

ولكنّا ، اذا تخطّينا هذا السحرَ الخالد ، وتوقّفنا على سرّ حفظِ القرآن وكيفيته ، لا بدّ لنا أن نسأل : هل حفظَ الصحابةُ كلَ القرآن؟ أم نَسوا منه شيئاً! هل أجمَعوا على ما حفظوا ، أم انّهم اختُلفوا فيما جَمَعوا ! وبمعنى آخر : هل عَصَم اللهُ الصحابةَ من التحريفِ والتبديلِ والزيادةِ والنقصان ، كما عَصَمَ الرسول ، أم انّ الاهواءَ البشريّةَ والمصالحَ السياسيةَ والاميالَ الشخصيةَ استبدّتْ بهم وساهمتْ في عمليةِ حفظِ القرآن؟

انّ جوابَ الايمانِ والوحي والاتقياء من المسلمين لا مشكلةَ فيه : اللهُ عملَ ويعملُ على حفظِ كتابهِ . ولكنّ جواب التاريخ يَضَعُنا أمامَ عصمةِ أكثرِ من أربعين رجلاً متّهم المسلمونَ بالعصمة . هؤلاء ، رغم خلافاتِهم المعروفة ، وانتماءاتِهم القَبَليّةِ المتنافسة ، واتّقادِ العصبيّاتِ فيما بينهم ... يَنعَمون بعصمةِ الله ، ويُجري اللهُ على ألسنتِهم وأيديهم معجزةً لا مثيلَ لها في تاريخ العالم ... كلُّ شيء في الاسلام معدٌّ لأن يحفظَ اللهُ كتابَه ، مهما كلّفه الثمن من المعجزات والعجائب... فالأمرُ في غاية الاهمّية . ولننظر ،

(٢) السجدة ٣٢ / ١٥ ، انظر : ١٩ / ٥٨ ، ٢٥ / ٧٣ ، ١٧ / ١٠٧ .
(٣) الدكتور مصطفى صادق الرافعي ، اعجاز القرآن ، ص ٣١ .
(٤) ابراهيم الابياري ، تاريخ القرآن ، ص ٤٤ .

أولاً ـ تخلّف الصحابة عن كل القرآن

في ايمان المسلمين أنّ الله حفظَ القرآنَ من كل نقصٍ أو زيـادة ، ومن كل عِوَج واختلاف ... ولكنّ في تاريخ المسلمين اشاراتٍ واضحةً صريحةً الى ما في القرآن من نقص وزيادة ونسيان وتصحيف وتغيير ... واحتكـمَ المسلمون ، لحلِّ هذا الخلاف ، الى معجزةٍ أجراها اللهُ في الصحابـة نعصَمهم من كل ما يتّهِمُهم به التاريخُ من نواقصَ في كتابِ الله العزيز ... وليس لنا ، أمامَ مشكلةٍ عويصةٍ ودقيقةٍ كهذه ، أيُّ حلٍّ يُرضي الايمـا نَ والتاريخَ معا . جلّ ما لدينا إستعراضُ المسألة ، من وجهتِها التاريخيّة ، التي يجهلُها معظمُ المسلمين ، والتي يُخفيها علماءُ الشريعةِ ببراعـةٍ لا مثيلَ لها ، وقد يفسّرون ما فيها بحنكةٍ ترى معها وفاقًا تامًّا بين مـا في الايمان ومعطياتِ التاريخ ... ولن يُعجزَنا الرجوعُ الى النصوصِ كما هي ، فهي الحَكَم ، واليها الاحتكام . ومَـن يقرأْ ويفهمْ يُدركِ بُعْدَ المعجزة .

*****

عن نافع عن ابن عمر قال : " لا يقولنَّ أحدُكم قد أخذتُ القـرآنَ كُـلَّـهُ . وما يدريه ما كُـلُّهُ! قد ذَهَـبَ مِـنْـهُ قُـرآنٌ كَـثـيـرٌ . ولكـنْ لِيَقُلْ قد أَخَـذْتُ مِـنْـهُ مَـا ظَـهَـر "(٥) .

---

(٥) السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن ، ٢/ ٢٥ .

* قال عمر لعبد الرحمن بن عوف : "ألم تجدْ في ما أُنزِلَ علينا : ان جاهدوا كما جاهدتم أوّل مرّة ! فانّا لا نجدُها ! قال : أُسْقِطَتْ فيما أُسْقِطَ مِنَ القُرآن".(٦) .

* وعن ابن سفيان الكلاعي ان مسلمة بن مخلد الانصاري قال لهم ذاتَ يوم : أخبروني بآيَتَين في القرآنِ لَمْ يُكْتَبا في المصحف. فلم يُخْبِرُوه".(٧) .

* وروي عن أُبَيّ بن كعب ، باخراج الحاكم ، ان رسولَ اللهِ قالَ لي : ان اللهَ أمرني أن أقرأَ عليكَ القرآن ، فَقَرَأَ ... ومن جملةِ ما قرأَ ممّا لا نجدُه في المصحفِ اليوم : "لو انَّ ابنَ آدم سألَ واديًا من مالٍ فأعطيه . سأله ثانيا . وان سألَ ثانيا فأُعطيه . سأله ثالثا . ولا يملأ جَوفَ ابنِ آدم الاّ التراب . ويتوبُ الله على مَن تاب ...".(٨) .

* وروي عن أبي موسى الاشعرى ، قال : "كنّا نقرأُ سورةً نشبّهها باحدى المُسبحَات ممّا نَسَيْنَاهَا . غير انّي حفظتُ منها : يا أيّها الذين آمنوا ! لا تقولوا ما لا تفعلون ، فتكتب لكم شهادةٌ في أعناقِكم ، فتُسألون عنها يوم القيامة".(٩) .

* وجاء عن مسلم "انّ أبا موسى الاشعرى قال مرّة لخمسمائة من القراء بالبصرة : انّا كنّا نقرأُ سورةً بطولِ السُهم وحدَها . أمّا الآن فَقَدْ نَسِيْتُهَا ما عدا بعضَ آياتٍ منها ...".(١٠) .

---

(٦) الاتقان في علوم القرآن ٢/ ٢٥ .
(٧) نفس المرجع .
(٨) نفس المرجع .
(٩) نفس المرجع .
(١٠) أوردها الاستاذ الحداد في القرآن والكتاب ٢/ ٢٠٥ .

* عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت : "كانتْ سورةُ الاحزابِ تُقْـرَأُ في زمن النبي مائتَي آية . فلمّا كتَبَ عثمانُ المصاحفَ لم نقدر منها الأ مَـا هو الآن" (أي ٧٣ آية فقط) (١١) .

* وعن أُبَيّ بن كعب انه سأل درّ بن حُبيش : "كم تَعُدُّ سـورةَ الاحزاب ؟ قال : أثنتين وسبعين آية، أو ثلاثة وسبعين آية . قال : ان كانتْ لَـتَـبـعـدِلَ سـورةَ البقرة (أي ٢٨٦ آية) . وانّا كنّا لنقرأ فيـهـا آيـةَ الرجـم . قال : وما آيةُ الرجم ؟ قال : اذا زَنى الشيخُ والشيخـةُ فارجموهما البتة نكالاً من الله . والله عزيز حكيم..." (١٢) .

* وعن حميدة بنت أبي يونس قالت : "قرأَ عَلَيَّ أبي وهو ابنُ ثمانين في مصحفِ عائشة : "ان الله وملائكته يُصَلّونَ على النبي : يا أيّها الذيـنَ آمَنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليمًا وعلى الذين يُصَلّون في الصفوفِ الاولى"... قالت : وذلـكَ قَـبْـلَ أَنْ يُـغـيِّرَ عـثمـانُ المـصَـاحِـفَ" (١٣) .

* أمّا مجموعُ سُوَرِ القرآن، فهي الآن ١١٤ سورة، ولكنّها كانت في مصحف ابن مسعود مائة واثنتي عشرة سورة" لانه لم يكتبِ المعوذَتَين"، وفي مصحف أُبَي بن كعب مائة وستّ عشرة سورة، " لانه كتَبَ في آخره سورَتَـي الحَفْدِ والخَلْع" (١٤) ، وفي مصحفِ عليّ بن أبي طالب زيادة سورة " النُورَين" وتغييرٌ في موضعِ السُوَرِ والآياتِ... الخ (١٥) .

---

(١١) الاتقان ٢/ ٢٥ .
(١٢) انظر ما جمعه محمد دروزة عن نصوص آية الرجم المختلفة، في كتابه القرآن المجيد، ص ٥٨ .
(١٣) الاتقان ٢/ ٢٥ .
(١٤) الاتقان ١/ ٦٥، انظر فيها نصّي سورتي الحفد والخلع .
(١٥) انظر نص سورة النورين في دروزة، القرآن المجيد، ص ٦٠-٦١ . وانظر ايضا فصلي الاتقان ١/ ٦٤-٧٠ و ٢/ ٢٢-٢٦ .

* وهكذا أيضا نجد اختلافا واسعًا في قراءة كثير من الآيات التي نعجز عن حصرها . ومن أراد اثباتًا وتبيانًا فليرجع الى السيوطي في كتابه الاتقان في علوم القرآن . ومن أراد مثلا بسيطًا عليها سهل المنال فليقرأ محمد عزّة دروزة، القرآن المجيد، ص ٦١ـ٦٢ ...الخ .

*****

لم يُعجز المسلمين وجودُ حجّة الهيّة لتفسير هذا الخلاف الكبير في كتاب الله! لقد فسّروا ذلك بقولهم : بالنسّخ، وقد أشرنا اليه، وبأنّ اللهَ تدخّلَ في ذاكرة الصحابة فأنساهم ما يجب أن يَنسوا . ومن ذلك قول أبي بكر الرازي الذى أكّد بانّ الله يُنسي الصحابةَ ما يُريد أنْ يُنسيَهم أياه، ويَرْفَعَهُ من أوهامِهم، ويأمُرهم بالإعراضِ عن تلاوتِه، وكَتْبِهِ في المصاحف، فيندَرِس على الايام كسائر كتبِ اللهِ القديمة التي ذكرُها في كتابه في قوله : "ان هذا لَفِي الصحفِ الاولى صحفِ ابراهيم وموسى".[16]، ولا يُعْرَفُ اليومَ منها شيء".[17].

لئن كان النسيان نقصًا في ذاكرة البشر، فانّه، لدى الصحابة، نعمةٌ الهيّةٌ ومعجزةٌ من السماء . يتدخّلُ اللهُ ليُنسيَهم ما يجبُ أن يَنسوه، ويَرْفَعُ من أوهامِهم ما يجب أن يُرْفَع ! انّ ذلكَ أمرٌ لا يُدرَكُ بعقلٍ بشريّ محدود الآفاق ! وحدَه الله يجعلُ من النقصِ فضيلةً، ومن النسيانِ معجزةً، ومن التخلّف رُقيًا، ومن النسخِ والتحريفِ حِكْمَةً، ومن الضعفِ قوّةً... وليس علينا، نحنُ المساكين العاجزين، الاّ التمسّكُ بالايمانِ والخضوع!!!

******

(١٦) سورة الاعلى ٨٧/ ١٨ـ١٩ .
(١٧) الاتقان ٢/ ٢٦ .

ثانياً ـ حديث الأحرف السبعة

بسبب نسيان صحابة النبي بعض آيات القرآن، وبسبب ضعف ذاكرتهم، وبسبب تخلّفهم عن كثير مما نُسِخَ وبُدِّلَ، وبسبب بعض التحريف والتصحيف ... أَوْجَدَ المفسّرون للقرآن والمحدِّثون بأحاديث النبيّ حديثاً طريفاً وخطيراً على لسان محمّد، وأجمعوا على صحّته. جاء فيه قوله: "أُنْزِلَ القرآنُ على سبعةِ أحْرُف". وهو حديثٌ شائعٌ متواتر، نقلته جميعُ كتبِ الحديثِ والتفسيرِ والتاريخ، وأجمعَ عليه أحدٌ وعشرون صحابيا ثقة[1].

وأُضيفَ على هذا الحديثِ توضيحاتٍ متعددةٌ ومختلفة. فمنهم مَن زادَ عليه: "... فاقرأوا ما تيسَّر منها". ومنهم: "... كلّها شافٍ كافٍ... أيّها قَرَأْتَ أَصَبْتَ. فمن قرأَ منها حرفاً فهو كما قرأ. فأيّما حرفٍ قرأوا فقد أصابوا ... كلّها شافٍ كافٍ ما لم يختمْ آيةَ عذابٍ برحمةٍ، أو آيةَ رحمةٍ بعذاب..." الخ[2].

---

(١) يعدد السيوطي أسماء من أجمعوا على صحة الحديث: أبيّ بن كعب، أنس، حذيفة بن اليمان، زيد بن أرقم، سمرة بن جندب، سلمان بن صرد، ابن عباس، ابن مسعود، عبد الرحمن بن عوف، عثمان بن عفان، عمر بن الخطاب، عمرو بن أبي سلمة، عمرو بن العاص، معاذ بن جبل، هشام بن حكيم، أبي بكرة، أبي جهم، أبي سعيد الخدري، أبي طلحة الانصاري، ابي هريرة، ابي أيوب. (الاتقان ١/ ٤٥).

(٢) انظر الطبري في تفسيره ١/ ٢٠ ـ ٤٥، والشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ١٠٢، والحواشي في الصفحات ... وغير كتب حديثة.

ويبدو أنّ جميعَ العلماءِ المسلمين يأخذون بحديثِ الاحرفِ السبعة، ويعتمدون عليه في شرحِ ما تعسَّر تفسيرُه، وفي تفسيرِ ما اختُلِفَ فيه. وقال القاضي أبو بكر بن الطيّب الباقلاني في ذلك: "الصحيحُ ان هذه الاحرفَ السبعةَ ظهرتْ واستفاضتْ عن رسولِ الله (ص) وضبطَها عنه الأئمّة، وأثبتَها عثمانُ والصحابةُ في المصحَف، وأخبَروا بصحتِها، وانّما حذَفوا منها ما لم يَثْبُتْ متواتِرا"[٣].

*****

لكنّ اتّفاق الصحابة على صحّة حديثِ الاحرف السبعة لم يُظهِر، من حيث معناه، الاّ خلافًا واسعًا وتناقضًا بيّنًا في تفسيرِه وشرحه. وقد رفَعَ السيوطي نحوًا من أربعين قولا متباينا في معنى الاحرفِ السبعة. فيقول مثلا: ان الحرفَ هو "من المشكلِ الذي لا يُدرى معناه، لأنّ الحرفَ يصدقُ، لغةً، على حرفِ الهجاء، وعلى الكلمةِ، وعلى المعنى، وعلى الجهة". ثمّ أنّه "ليسَ المراد بالسبعةِ حقيقةَ العدد، بل المرادُ التيسير والتسهيلُ والسَعَة. ولفظُ السبعة يُطلق على ارادةِ الكثرة ... ولا يُراد العدد المعيّن". وهكذا ...[٤]

*****

ومع اختلاف الصحابةِ في معنى الاحرف السبعة نرى المسلمين مُجِدّين في البحثِ عمّا جعَلَهم يختلفون في فهمِ القرآن وقراءاتِه على أوجهٍ عديدة، وكلّها صحيحة. وبذلك فسّروا تعدّدَ القراءاتِ وأجازوها، رغم تصريحِ القرآن بأنّه نزلَ بلسانٍ عربيّ مبين، وباعجازٍ لا مثيلَ له. وعندنا،

---

(٣) الزركشي، البرهان ١/ ٢٢٤.
(٤) السيوطي، الاتقان ١/ ٤٥-٤٩.

في كتب التفاسير والاحاديث، أمثلةً واضحةً كثيرةً عن اختلاف القرّاء بحضرة النبيّ نفسه في مختلف طرق القراءة وقد أجازها النبيّ كلّها .

* ويعطينا البخاري ومسلم صورةً عن هذا الخلاف ، فيقول البخارى: "ان عمر بن الخطاب (ر) قال : "سمعتُ هشامَ بن حكيم يقرأُ سورةَ الفرقانِ في حياةِ رسول الله (ص) ، فاستمعتُ لقراءته، فاذا هو يقرؤُها على حروفٍ كثيرةٍ لم يُقرِئْنيهَا رسول الله (ص) ، فكدتُ أساورُه في الصلاة، فانتظرتُه حتى سلّم، ثم لَبَبتُه بردائِه أو بردائي ، فقلتُ : من أقْرَأكَ هذهِ السورةَ ؟ قال : أقرأنيها رسولُ الله (ص) . قلتُ له : كَذِبْتَ ، فواللهِ ان رسولَ الله (ص) اقرأني هذه السورةَ التي سمعتُكَ تقرؤُها ، فانطلقتُ أقودُه الى رسولِ الله (ص) ، فقلتُ : يا رسولَ الله، انّي سمعتُ هذا يَقرأُ بسورةِ الفرقانِ على حروفٍ لم تُقرِئْنيهَا ، وأنت أقرأتني سورةَ الفرقان! فقالَ رسولُ الله (ص) : أَرسِلْهُ يا عمر، إقرأْ يا هشام . فقرأَ هذهِ القراءَةَ التي سمعتُه يقرؤُها . قال رسولُ الله (ص) : هكذا أُنزِلَتْ . ثم قالَ رسولُ الله (ص) : انّ هذا القرآنَ أُنزلَ على سبعةِ أحرفٍ . فاقرؤوا ما تَيسَّر منه"[٥] .

يعلّقُ الاستاذُ الحداد على هذا الحديث بقوله : "هذا الحديثُ يُشعِرُ بانّ الاختلافَ في النصِّ بلغَ مبلغاً كادَ منه عمر أن يقتلَ صاحبَه ، ويشهدُ بان الاختلافَ في القراءة ليسَ فقط من القرّاء، بل هو أيضاً من النبيّ نفسِه الذى يثبت قراءَتَين ونصَّين معاً . وهذه القصةُ تجري مع عمر نفسِه الذى سوفَ يُشيرُ بتوحيدِ النصِ عند استفحالِ الأمر في زمنِ أبي بكر. فالاختلافُ في النص يعودُ الى النبي وأركانِ صحابته"[٦] .

(٥) صحيح البخارى ٦/ ١٨٥، انظر تفسير الطبرى ١/ ١٠، ومسند أحمد ١/ ٢٤، والبرهان ١/ ٢١١، والاتقان ١/ ٤٩ ...
(٦) الاستاذ الحداد، القرآن والكتاب ٢/ ٢٠٨-٢٠٩ .

* وينقل الينا الطبرى عن زيد بن أرقم هذه الرواية : "جاءَ رجلٌ الى رسول الله (ص) ، فقال : أقرأني عبدُ الله بن مسعود سورةً، أقرأنيها زيدٌ، وأقرأنيها أُبيّ بن كعب ، فاختلفتْ قراءتهم . فبقراءةِ أيّهم آخذ ؟ قال، فسكتَ رسولُ الله (ص) ، وعليٌّ الى جنبهِ فقالَ عليٌّ : ليقرأ كلُ انسانٍ كما عُلِّمَ . كلٌّ حَسَنٌ جميلٌ"[٧] .

* ورويَ عن أُبيّ بن كعب قال : " دخلتُ المسجدَ فصلّيتُ فقــرأتُ (سورةَ) النحلِ . ثم جاءَ رجلانِ فقرآها خِلافَ قراءتِنا ، فدخلَ نفسي مــن الشكِ والتكذيبِ أشدُّ ممّا كنتُ في الجاهلية . فأخذتُ بأيديهما ، فأتيتُ بهما النبيّ (ص) ، فقلتُ : يا رسولَ الله، استقرِئ هذين . فقرأ أحدُهما فقال : أصبتَ . ثم استقرأَ الآخر، فقال، أَصَبْتَ . فدخلَ قلبي أشدُّ ممّــا كان في الجاهلية من الشكِ والتكذيب . فضربَ رسولُ الله (ص) صدري ، وقال: أعاذَكَ الله من الشكِ وأَخْسَأَ عنكَ الشيطان"[٨] .

*****

هذا قليل جدّا ممّا رواه مسلم والبخارى والطبرى والسيوطي وأحمد في مسنده والزركشي وغيرهم في اختلاف الصحابة في قراءة القرآن . وقــد كرّسَ حديثُ " الاحرف السبعة"، الذي أوجدوه على لسانِ النبيّ ، هذا الخلافَ بينهم . كما اعتمدوا ، على النبيّ نفسِه، لتكريس هذا الخلاف . فمحمّد نفسُه أجازه، وسمحَ لصحابتِه بتعدّدِ القراءات .

فجاء على لسان أبي العالية حديثٌ قال فيه : " قرأَ عــلى رســول الله (ص) من كلِ خمسةٍ رجلٌ، فاختلفوا في اللغةِ، فرضيَ قراءتهم كلّهم"[٩] .

---

(٧) تفسير الطبرى ١/ ٢٤ .
(٨) نفس المرجــع ١/ ٢٥ .

ويبدو ان بعضَ الصحابة قرّروا هذا الخلافَ ورَضوا به وحَرَصُوا على البقاء عليه . روي عن ابن مسعود قوله : "مَنْ قَرَأَ منكم على حرفٍ فلا يتحوّلَنَّ منه الى غيره"[10] . ويبدو أيضا ان رسولَ الله توسّعَ في تغييرِ بعض كلماتٍ وتبديلِها عندما سأله سائل ماذا يكتب : "أعزيزٌ حكيم؟ أو سميعٌ عليم؟" ، فقال الرسول : "أيّ ذلك كتبتَ فهو كذلك"[11] .

كل هذا يُفيد انّ القرآنَ لم يكنْ في كتابتِهِ ومصاحفِهِ وصُحُفِهِ المتداوَلةِ ، وفي قراءتِهِ ، محرّراً ، بحيثُ يؤمن معه ذلك الخلاف"[12] . ويفيد أيضا أنّ الاحتكامَ الى النبيّ لم يُجْدِ الصحابةَ المختلفين نفعًا ، لان الرسولَ "أمَرَ كلَّ امرئٍ منهم ان يقرأَ كما عُلِّمَ حتى خالَط بعضُهم الشكُّ في الاسلام لما رأى من تصويبِ الرسولِ قراءةَ كلِ قارئٍ على خِلافِها مع غيرِها"[13] .

وتفيدُ أيضا ، على ما علّقَ الطبرى على الآية : "أفلا يتدبّرون القرآن"[14] ، بانّ الخلافَ كانَ بين الصحابة لا على الالفاظِ والمباني بل على المعاني والاحكام . قال : ان هذه الآية انّما "تقصد اختلافَ المعاني والاحكام ، لا اختلافَ الالفاظِ والتعابير ، بدليلِ اختلافِ الصحابة ، كلٌّ في قراءتِهِ ، وتصويبِ النبي لهم جميعا"[15] . ولو كان الاختلافُ في الالفاظ وحسب ، لِمَا "خالَطَ بعضُهم الشكُّ في الاسلام"[16] ، ولِمَا اقتتلوا فيما بينهم[17] ، ولِمَا "اختُلِفَ في معنى هذا الحديثِ على نحو أربعين قولاً"[18] ...

---

(٩) تفسير الطبرى ١/ ٥٤ .
(١٠) نفس المرجع ١/ ٥١ و ٥٢ .
(١١) نفس المرجع ١/ ٥٤ .
(١٢) محمد دروزة ، القرآن المجيد ، ص ٦٢ .
(١٣) تفسير الطبرى ، ١/ ٤٨–٤٩ .
(١٤) سورة النساء ٤/ ٨٢ .
(١٥) تفسير الطبرى ١/ ٤٨ .

ومع هذا الاختلاف الواضح والخطير، لا بدّ من التنبيه الى موقف بعض العلماء المسلمين الذين يصرّون على ان الاختلافَ هو في الالفاظ والتعابير، لا في المعاني والاحكام. وعبّروا عن ذلك بقولهم: ان اختلافَ اللفظِ لا يحدّه سوى تناقض المعنى، مثل ان تجعلَ المغفرةَ عذاباً، والعذابَ مغفرةً. فيكونُ المقصودُ، عندهم، المحافظةَ على سلامةِ المعنى ولو إختلفتِ الالفاظ...

*****

ولكنّنا نسأل: كيف يتفق حديثُ الاحرف السبعة، بمعانيه المختلفة، مع معجزةِ إعجاز القرآن، ومعجزة حفظِه؟ ثم، لئن سلّمنا بصحّةِ الاحرفِ السبعة ونسبتها الى النبيّ، فلماذا، اذن، أسقطّها عثمان بن عفّان، ومنع تلاوتَها؟ ويؤكّدُ الطبرى بقوله: "ان الاحرفَ الستة الأُخَر أسقطَهَا عثمان، ومنعَ تلاوتَهَا، ولا حاجةَ بنا الى معرفتِها؛ لأنّ الحكمة في جمع الناس على حرفٍ واحد، والصوابُ ما فَعَلَ عثمان"(١٩).

ولو كانتِ الاحرفُ السبعة رُخْصَةً نبويّة، فلماذا اقتتلَ الناسُ بسببها؟ ونحن نسمعُ عن أنسٍ بن مالك هذه الرواية، قال: "اختلفوا في القرآن على عهدِ عثمان حتى اقتتلَ الغلمان والمعلّمون. فبلغَ ذلك عثمانَ بن عفّان فقال: "عندي تَكذبون به، وتَلحنون فيه ؟! فَمَنْ نأى عنّي كانَ أشدَّ تكذيبا، وأكثرَ لَحْنًا. يا أصحابَ محمّد اجتمعوا، فاكتبُوا للناسِ إمَامًا. فاجتمعوا

---

(١٦) تفسير الطبرى، ١/ ٤٧ و ٥٣.
(١٧) الاتقان ١/ ٥٩.
(١٨) الاتقان ١/ ٤٥.
(١٩) تفسير الطبرى، ١/ ٦٦، و ٦٣.

فكتبوا . فكانوا اذا اختلفوا وتدارؤوا في أيّ آيـة قالوا : هذه أقرأهـا رسولُ الله (ص) فلاناً ، فيُرْسَلُ اليه ، وهو على رأسِ ثلاثٍ من المدينـة ، فيُقال له : كيف أقرأكَ رسولُ الله (ص) آيةَ كذا وكذا ، فيقولُ : كذا وكذا ، فيكتبونها ، وقد تركوا لذلك مكاناً".(٢٠) .

ثم أيضا لو كانت الاحرفُ السبعةُ مرخّصةً من النبي ، فلماذا تخوّفَ حُذَيفَة و " قال لعثمان أَدْرِكِ الأمّـةَ قبلَ أن يختلِفوا اختـلافَ اليهودِ والنصارى"؟ (٢١)

*****

وبالنتيجة ، لا بدّ من التسليم بصحة هذا الحديث ، لاجمـاعِ المسلمين عليه ، ولا بدّ أيضا من ايجادِ معنىً له يَتّفقُ فيه جميعُ المسلمين ، لانّ مثلَ هذا الحديث هو . " بلا ريبٍ أخطرُ نظريةٍ في الحياة الاسـلاميّة ، لانها أسـلمتِ النصَّ القرآني الى هوى كلِ شخصٍ يثبتُه على ما يهواه".(٢٢) .

وفي رأي المسلمين اليوم ، ان الرسول " وسعَ على المسلمين في أوّلِ الأمر ، وراعَى التخفيفَ على العجوزِ والشيخِ الكبيرِ ، وأُذِنَ لكلٍ منهم ان يقرأَ على حـرفـهِ ، أي على طـريقتِهِ في اللغةِ ، لِمَا يجدُه من المشقةِ في النطقِ بغيرِ لغته ... فالمرادُ من هذهِ الاحرفِ السبعة ــ واللهُ أعلم ــ الاوجهَ السبعة التي وسع بها على الأمّة . فبأي وجهٍ قرأ القارئُ منهـا أصاب . ولقد كادَ النبي يصرّحُ بهذا كلَ التصريح حينَ قال : " أقـرأني جبريلُ على حرفٍ فراجعتُه فلم أزَلْ استعيدُه حتى انتهى الى سـبعـةِ

---

(٢٠) الاتقان ١/ ٥٩ .

(٢١) نفس المرجع ، ١/ ٥٩ .

(٢٢). Régis Blachère, Introduction au Coran, p.69

أحرف»(٢٣) .

وهكذا يرى الشيخ صبحي الصالح انّ هذا الحديث «يبرز الحكمة الكبرى ... ففيه تخفيفٌ وتيسيرٌ على هذه الأمّة التي تعدّدتْ قبائلُها ، فاختلفتْ بذلك لهجاتُها ، وتباينَ اداؤها لبعض هذه الالفاظ فكان لا بدّ أن تُراعى لهجاتُها وطريقةُ نطقِها . أمّا لُغَاتُها نفسُها فلا موجب لمراعاتِها ، لإن القرآنَ اصطفى ما شاءَ بعد ان صهرَه في لغةِ قريش التي تمثّلتْ فيها لغاتُ العربِ قاطبةً لا لغاتُ قبائلَ معيّنة ...»(٢٤) .

وفي رأي ابن الخطيب ان الله «أرادَ بلطفِهِ ورحمتِهِ ان يجعلَ لهم متّسَعًا في اللغاتِ ومتصرّفا في الحركاتِ كتيسيرِهِ عليهم في الدين» ... وقال أيضا : «والقراءاتُ انّما جُعِلَتْ على ألسنةِ القبائل ولهجاتِها تلطّفًا بالناسِ وتسهيلا عليهم وتقريبًا لأذهانهم»(٢٥) .

ولكنّنا نسألُ الشيخَ وابنَ الخطيب : كيف توحّدتِ اللغاتُ في لغةِ قريش؟ وكيف يكونُ اختلافُ اللهجات ؟ ولماذا وحّد عثمانُ الاحرفَ على حرفٍ واحد؟ وكيف يكونُ الاعجازُ في رخصةِ تبديلِ الالفاظِ في النصّ؟ وكيف نزلَ القرآنُ «بلسانٍ عربيٍ مُبين»؟ وكيفَ نفهمُ تحدّي القرآنَ للأنسِ والجنِّ بأنْ يأتوا بسورةٍ مثل سوره؟ وبسؤالٍ واحدٍ بسيط : كيف يكونُ الاعجازُ في القرآن وهو على هذا الاقرارِ الصريحِ بالاختلافِ والتباين؟!

انّ جوابَ الشيخ الوحيد هو : ان لطفَ اللهِ ورحمتَه خفّفَا على هذه الأمّةِ الأمّيةِ الضعيفةِ المفككةِ المختلفةِ في لغتِها ولهجاتها ... وهو جوابٌ ،

---

(٢٣) صحيح البخارى ٦/ ١٨٥، الشيخ صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن، ص ١٠٨ـ١٠٩ .
(٢٤) الدكتور الشيخ صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن، ص ١١٣ .
(٢٥) ابن الخطيب ، الفرقان، ص ١٣١، ٩٨ .

فيه من مداراة أحوال البشر أكثر مما فيه من فهم حقيقة الوحي والنبوة . والحقّ يقال : ان مثل هذا الحديث النبوي " يبعث إشكالاً ضخماً على وحدة القرآن مع تعدد نصوصه الى سبعة، وعلى صحة النص العثماني بعد اسقاط الحروف الستة، وعلى أفضلية اعجاز الحرف العثماني دون سواه . وهذا الاشكال الضخم تنبّه له أدباء العصر، فكان أهون ما عندهم انهم نفوه أو كادوا "[(٢٦)] .

لذلك قال محمد صبيح : ان " التوفيق بين هذه الاحاديث الكثيرة التي تكاد تتفق في معناها، وما ذكرنا من تفسير للاحرف السبعة عسير . ولكنّ لِتُفْهَم الاحاديث على أي وجه شاء الناس، امّا الذي نعتقد ان من الخير فهمه هو عدم جواز هذا التبديل والتعديل في القرآن : فاختلاف الناس في شأن أحاديث جمعها المتأخرون من المسلمين أهون بكثير من اختلافهم في شأن نصوص القرآن "[(٢٧)] .

*****

هذا الموقف الاخير هو أيضا خطير جدا : انّ مثل اجماع المسلمين على حديث الاحرف السبعة لم يَحْدُثْ في الاسلام . على مثل هذا الحديث بُنِيَتْ في الاسلام نظريات مرتبطة بعضها ببعض، ان أَلْغَيْتَه أو شككت بصحته، لم تعدْ تعرف كيف تفسّر آيات كثيرة في القرآن، ولم تعدْ تعرف كيف تفسّر " العقيدة والتاريخ واللغة ... وحقيقة القرآن العظيم "[(٢٨)] ...

---

(٢٦) الاستاذ الحداد، القرآن والكتاب ١/ ٢١٥ .
(٢٧) محمد صبيح، بحث جديد في القرآن، ١٢٦ .
(٢٨) الدكتور بكرى شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، ص ٧٧ .

لئن لم تبْرز مشكلة من مشكلات البحث في تاريخ القرآن ما أثارته الاحرفُ السبعة، ولم يختلف العلماءُ في موضوع مثلما اختلفوا في تفسير هذه الاحرف السبعة.[٢٩]، فانّ قبولَ هذا الحديث، مثلُ رفضه، فيهما خطرٌ جسيمٌ على معجزةٍ الهيّة أقرَّها المسلمون قاطبة، الا وهي معجزةُ حفظِ القرآن واعجازه. ومهما تفادى العلماءُ المشكلةَ واستهانوا أمرَها فانّهم لواقعون في فخّ التاريخ الذى لا يَرحمُ لا النبيَّ ولا جبريله...

وأيَّ موقفٍ نتّخذه من هذا الحديث، في قَبوله أم في رُفضه، فانَّ معجزةَ الصحابةِ في حفظِ القرآن لن تسلمَ. في قبولهِ تسليمٌ باختلافِ النص، وفي رفضهِ رفضٌ لما أجمعَ عليه المسلمون. ولن نبقى، بين هذين الموقفين، حَيارى. والذي يقرّر موقفَنا النظرُ في حفّاظِ القرآن وجمّاعه، هؤلاء الذين استعانَ بهم عثمانُ بن عفّان، ليحلَّ مشكلةَ الاحرفِ السبعة، مَن هم، وما هي كفاءاتهم، وما علاقته بهم؟

فان كانَ الدافع عند عثمان حصرَ الخلاف فهو اقرارٌ بالخلاف، وان كان الدافعُ استباقَ ما يمكن ان يحدثَ من خلاف، فعثمان نبيٌّ آخر يستحقّ منّا التقديرَ والاعجاب. وبهذا لا يزال جبريلُ مستمرًّا في عمله ونشاطِه وسهرهِ على كتابِ الله العزيز.

******

(٢٩) نفس المرجع.

ثالثاً ـ حفّاظ القرآن

في معتقد المسلمين انّ النبيّ "كان عليه السلام سيّدَ الحفّاظ وأوّلَ الجمّاع، وتيسّرَ ذلك لنخبةٍ من صحابتهِ على عهدِه"[١]. هؤلاء النخبة اختُلِفَ في أسمائهم وعددهم وأهليتهم. وعند البخاري نفسه "سيّدِ المحدّثين وطبيبِ الحديثِ في عالَمِه"[٢] ثلاثُ رواياتٍ مختلفة:

ففي روايةٍ أولى قال البخاري نقلا عن عبدالله بن عمرو بن العاص: "سمعتُ النبي (ص) يقول: خذوا القرآنَ من أربعة: من عبدِ الله بن مسعود، وسالمٍ، ومَعَاذ، وأُبَيّ بن كَعْب"[٣].

وفي روايةٍ ثانية نقَل البخارى عن قتادة قال: "سألتُ أنسَ بن مالك: مَن جَمَعَ القرآنَ على عهدِ رسولِ الله (ص)؟ فقالَ: أربعةٌ كلّهم من الانصارِ: أُبيّ بن كعب، ومَعاذ بن جَبَل، وزَيد بن ثابت، وأبو زيد. قلت: من أبو زيد؟ قال: أحد عمومتي"[٤].

وفي روايةٍ ثالثة روى البخاري من طريقِ ثابت عن أنسٍ قال: "مات النبي (ص) ولم يَجْمَعِ القرآنَ غيرُ أربعة: أبو الدرداء، ومَعاذ بن جبل، وزَيد بن ثابت، وأبو زيد"[٥].

---

(١) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٦٥.
(٢) مقدمة صحيح البخارى، جزء ١، القول لمسلم صاحب الصحيح.
(٣) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن ١/ ٧٠.
(٤) نفس المرجع. انظر صحيح البخارى، الباب ١٧ من مناقب الانصار.

فالاسماء الواردة في هذه الروايات الثلاث سبعة، هم : عبدالله ابن مسعود ، وسالم بن معقل ، ومعاذ بن جبل ، وأبيّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد بن السكن ، وأبو الدرداء . والظاهر ان هذا العدد يعود الى حديث نبوي يقول : " لا يعرف القرآن الآ سبعة ".[٦] ولكنّ بعض العلماء يرون لعدد سبعة معان غير محصورة . فالسيوطي ، مثلا ، يذكر من المهاجرين : الخلفاء الاربعة وطلحة وسعد وابن مسعود وحذيفة وسالما وأبا هريرة وعبد الله بن السائب والعبادلة[٧] وعائشة وحفصة وأم سلمة . ومن الانصار : عبادة بن الصامت ومعاذ الذى يكنى أبا حليمة ومجمع بن جارية وفضالة بن عبيد ومسلمة بن مخلد ...[٨]

ويذكر القرطبي انّه " قد قُتِلَ منهم يومَ بئر مَعونة سبعون ، وقتل في عهدِ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مثلُ هذا العدد ".[٩] ... وفي كتب الحديثِ والسِيَر أسماءُ عديدة يختلفُ عدّها باختلافِ الراوين[١٠] .

*****

هذا الخلاف يدعو الى التحفّظ والريبة أكثر ممّا يدعو الى الارتياح بكثرتهم . وعلى كثرتهم نسأل : الى أىّ مدى يمكننا الثقة بهم ؟ واذا كنّا نمحضُ ثقتَنا بعضَهم فهل بالثقةِ نفسِها يمكننا أن نأخذَ بما حفِظه عبدُ الله ابنُ ابي سرح ؟ وهو الذى بدّل وحرّف ! وابنُ داوود يخبرنا عن كـاتبٍ

---

(٥) السيوطي ، الاتقان ١/ ٧٠ .
(٦) عن الماوردى المتوفّي سنة ٤٥٠ هـ .
(٧) هم عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر وعبدالله بن الزبير .
(٨) السيوطي ، الاتقان ١/ ٧٢ـ٧٣ .
(٩) انظر في الاتقان ١/ ٧١ .
(١٠) انظر تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٥ وتهذيب التهذيب ٧/ ٣١٥ وغيرهما .

آخر، دون ذكر اسمه، وقد بدّل في الوحي حرف[١١].

ورغم كل ضعف أو نقيصة فانّ حفظَ القرآن كانَ فضيلةَ المسلمين منذ بدء الدعوة. وقام الحفظُ على أساسين: حفظ القلوب، والتدوين في الرقاع. ويؤكد ابن الجزري "انّ الاعتمادَ في نقلِ القرآن كان على حفظِ القلوب والصدور، أكثر ممّا كان على خَطِّ المصاحف والكُتُبِ. وحفظُ القلوب هو أشرفُ خصيصةٍ من الله تعالى لهذه الأمّة"[١٢].

ويبدو انّه، في زمن النبي، كانتِ الذاكرةُ هي المعتَمدُ الاساسي، لانَ صاحبَها لا يحتاجُ "الى النظرِ في صحيفةٍ كُتبتْ بالمدادِ الذى ينطمسُ ويزول اذا غُسِلَ بالماء"[١٣]، وهذا معنى الحديث المرويّ عن مسلم قال: "قال النبي انّ ربّي قال لي انّي منزلٌ عليكَ كتابًا لا يغسلُه الماءُ، تَقْرَؤُهُ نائِمًا ويقظانَ"[١٤] ... ولكنّنا نعلم ما للذاكرةِ من أوهان.

لهذا نسأل: هل الذين حفظوا القرآنَ قد حفظوه كلّه؟ ان أمثلةً عديدَة في كتبِ الحديث تشيرُ الى وَهَنِ الاعتمادِ على الذاكرة. فالنبيُّ نفسه، عندما كان مارًا بالقربِ من مجتمعٍ، سمع واحدًا يتلو مقطعًا من القرآنِ فذُهِلَ وَعَرَفَ انه كان قد نَسِيَه، وعادَ الى ذهنِه بفضلِ تلك المناسبة. وهناك خبرٌ عن ابن مسعود يقول: في زمن النبي كنّا نتلو سورةً تُشابِهُ سورةَ التوبة، وانني لا اعرفُ منها غيباً الاّ آيةً واحدة. تأمّل آيةً واحدة ممّا يقرب من ١٣٠ آية!! ونعرف أيضا قصةَ آيةِ الرجمِ التي كانَ عمر وحدَه يعرفُها ... وغير ذلك[١٥].

---

(١١) سنن ابن أبي داوود ٣.
(١٢) هو صاحب كتاب "النشر في القراءات العشر"، انظر الاعلام ٣/ ٩٧٨.
(١٣) الزرقاني، مناهل العرفان ١/ ٢٣٥.
(١٤) خرجه أبو مسلم في صحيحه.
(١٥) انظر ما سبق في "النسيان النبوي" وفي "تخلّف الصحابة عن القرآن".

وممّا يقطع بسوء الاعتماد على الذاكرة الشعورُ بضرورة كتابة القرآنِ وتدوينهِ . فلولا مفاسدُ الحفّاظِ لِمَا ألحّ عمرُ بن الخطاب على أبي بكر الصديق في الاسراعِ على جمعِ القرآن وتدوينه، ولمَا تجرّأ عثمانُ على تأليفِ اللجانِ لوضعِ مصحفٍ واحدٍ واحراقِ سائرِ المصاحف رغم انتسابها الى خيرةٍ من الصحابة! فلولا اختلافُ الحفّاظِ ، وموتُ الكثيرِ منهم ، وتعدّدُ المصاحفِ ، وكثرةُ الاحرفِ والقراءات ... لما أقدمَ أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمانُ بن عفّان على صنعِ ما لم يصنعْه رسولُ الله!!!

******

خاتمة الفصل

ما زالت معجزةُ الله وملاكِهِ الأمين جبريل مستمرّة : فمِن معجزةِ تنزيلِ القرآن ، الى معجزةِ حفظِ النبيّ رغم نسيانهِ لبعض الآياتِ أحيانا وتدخّلِ الشيطان مرارا ، الى معجزةِ حفظِ الصحابةِ رغم كثرتهم واختلافهم السياسي والطبقي والاجتماعي والثقافي ... نحنُ مع الله القديرِ الذى لن تُعجِزَه الحِيْلَةُ في الحفاظِ على كتابه العزيز . ونحنُ مع جبريل روحِ القدس الامين ، صاحبِ البعثةِ النبويّة وساعي البريد النبوىّ الطاهر ، الذى لن يتخلّى عن النبيّ لحظةً واحدةً ، ولن يتركَ كتابَ الله عرضةً لاهواءِ صحابةٍ قد تتحكّمُ بهم فضائلُ أعرابٍ يُحرقون مدينةً بأمّها وأبيها في سبيلِ كلمةِ حقٍّ صدفتْ على اللسان ، فكيفَ بهم وهم في سبيلِ الدفاعِ عن كلامِ الله!!!

لو كانتْ مهمّةُ جبريل محدّدةً في زمنٍ معيّنٍ لهَانَ الأمرُ عليه ، ولكنّه مُلزَمٌ من قِبَلِ وجدانهِ المَلَكي ولقدسيّةِ الكتابِ أن يبقى معنا حتى النهاية ...

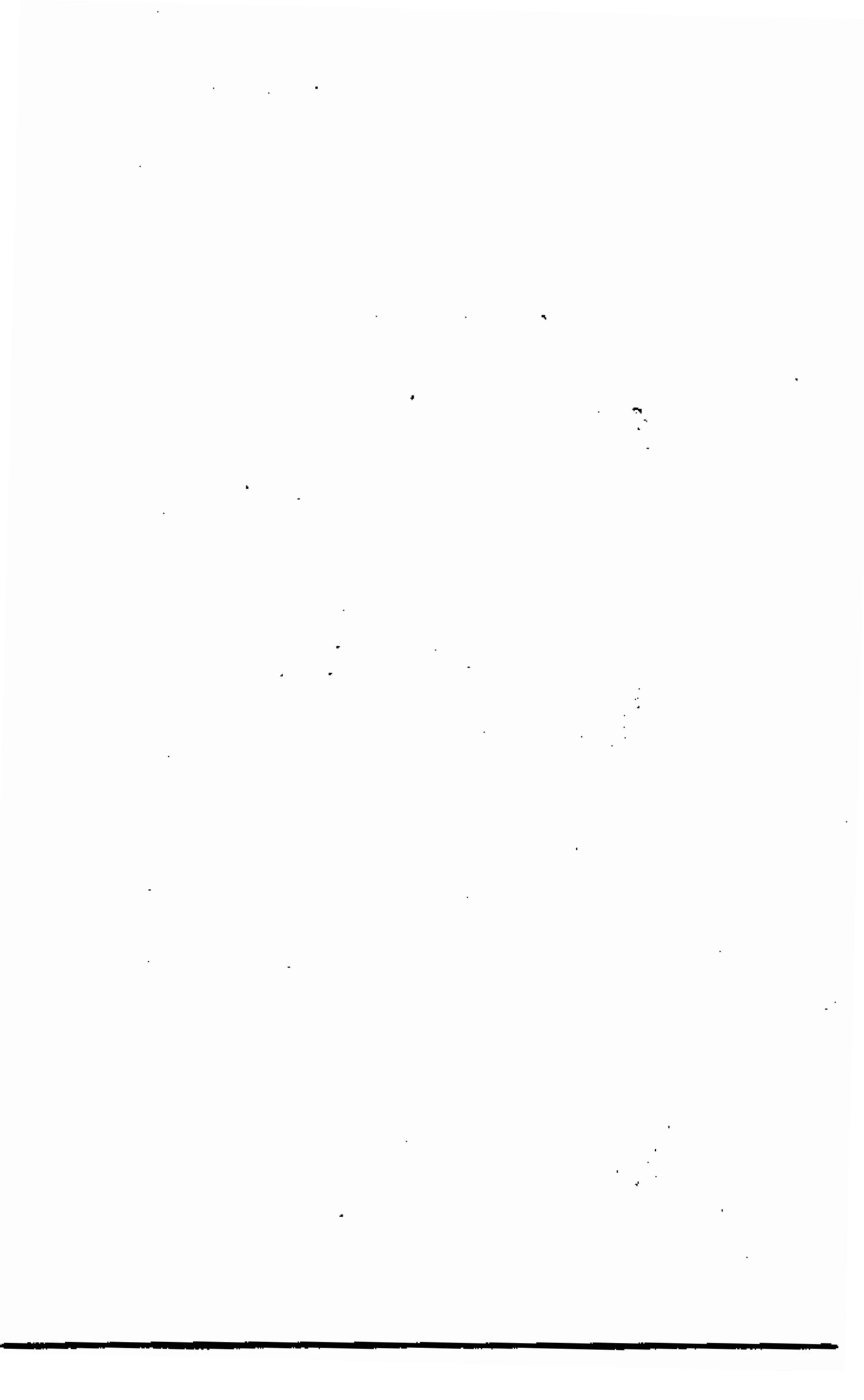
الفصل الخامس

معجزة تدوين القرآن وجمعه

أولاً - جمع الرسول للقرآن

ثانياً - جمع أبي بكر الصديق للقرآن

ثالثاً - مصحف عثمان بن عفّان



مقدمة الفصل

يجمع المسلمون على أنّ "القرآنَ كُتِبَ كلُّه في عهدِ رسول الله، ولكن غيرَ مجموعٍ في موضعٍ واحد، ولا مرتَّبُ السور"[(١)]. ويُجمعون أيضا على القولِ بأنّ القرآنَ جُمِعَ ثلاثَ مرّات: احداها بحضرةِ النبيّ، والثانية بحضرةِ أبي بكر الصديق، والثالثة في زمنِ عثمان بن عفّان[(٢)].

ولكن، كم من الاسئلة تُطرح علينا في هذا المجال! وكم من علاماتِ استفهامٍ يُرسِمُها المتبصّرُ بأمور الكتابِ العزيز ونشأتِهِ أمامَ وجهه! وكم من صعوباتٍ باتتْ مسلّماتُ الايمانِ عنها غبيّة!

هل كُتِبَ القرآنُ كلُّه في عهدِ النبيّ، أم بعضُه؟ وما هو هذا البعض، ومَن كتبه؟ ومتى كُتِبْ؟ واذا كان النبيّ "أميّا" لا يعرفُ القراءةَ ولا الكتابةَ، فهل الذين سمِعوا القرآنَ من فمِ الرسولِ كانوا يكتبونه حرفيّا، أم انّ خلافًا بين كاتبٍ وآخر حدثَ بعلمِ الرسولِ أو بجهلِهِ؟ ثم هلْ رُتِّبتْ سُوَرُ القرآنِ وآياتُه أيّامَ محمّد، أم أنّها من عملِ الصحابةِ؟ والمسلمون يقرّون بترتيبٍ زمنيٍ للقرآن يَختلفُ عن ترتيبه الحالي؟

وهناك سؤال آخر يمكننا افتراضُه، وقد يكونُ مناسبا أكثر من سواه، وهو: هل يُعقَل أن يكونَ القرآنُ، أو بعضُه، سابقًا لمحمد؟

(١) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ١/ ٥٧.
(٢) نفس المرجع، ١/ ٥٧ و ٥٩.

وأذا كان قسمٌ من القرآنِ سابقا على النبي فما هو هذا القِسمُ؟ وَمن كتبه؟ وهل من دليلٍ عليه ومرجع؟ واذا ثبتَ ذلك، أيكونُ قرآنُ محمّد نقلاً أو ترجمةً له؟ وما هو مَدى مطابقةِ هذه الترجمة للأصل؟ وهل يتعيّنُ لدينا هذا الأصل؟ وبأيّةِ لغةٍ كان؟ وَمن وَضَعَه بلسانٍ عربي مبين، في حال كان بلغةٍ أعجمية؟

كلّها أسئلة خطيرة، لا يجابُ عليها الاّ بمعجزةٍ أخرى يكمّلها لنا جبريل. والله لا يعجزه مثل هذه المعجزة، وهو الذى تولّى ويتولّى أمرَ كتابه. ولا نحنُ غيرُ أهلٍ لمثلِ هذه المعجزة، لأنّ الدين يجبُ أن يقوم مهما كلّف الأمر، ان لم يَكنْ بالاقناعِ واللينِ فبالسيفِ والجهاد المقدس.

يبقى عندنا سؤال أخير: ما هي نيّات الذين استجمعوا قِواهُم، وألّفوا اللجان، واختاروا الرجال، وَموّلوا المشروع، وتجرّأوا على أحراقِ الكتب والمصاحف... ما هي نيّاتهم الأخيرة في جَمْعِ القرآن في مصحف واحد؟ هل في البالِ وضعُ حدٍّ للاختلاف، أم محاولةُ لصدِّ خلاف؟ وما وراءَ ذلك؟ هل توحيدُ العقيدةِ والشريعة، ومِن ثمّ توحيدُ الشيع والاحزاب والقبائل والعصبيات؟؟؟

ان ثبتَ ذلك يكونُ المسلمون الأوّلون قاموا بمشروعٍ عظيم يستحقّون عليه تهنئةَ الاجيالِ ومجدَ التاريخ والنصرَ المظفّر... ولكن، هل بهكذا جرأةٍ على تمزيقِ مصاحفِ الصحابة يُقضى على التشيّع والتحزّب والعصبية؟ وهل، فعلاً، قُضيَ على الشرّ؟ يقول لنا المخبرون: ما ان توفيّ رسولُ الله حتى اختلفَ المسلمون فيما بينهم: "وأوّل خلافٍ وقع منهم اختلافُهم في موتِ النبي (ص)، فزَعم قومٌ منهم انّه لم يمتْ... ثم اختلفوا بعدَ ذلك في موضعِ دفنه، فارادَ أهلُ مكةَ ردّه الى مكّة، وأرادَ اهلُ المدينة دفنَه

بها... ثم اختلفوا بعد ذلك في الامامة ... ثم في مَن يَرِثُ الانبياءَ ... ثم وجوبُ مقاتَلَةِ مانِعِي الزكاة ... الخ (٣) ثمّ بعد ذلك افترقَ المسلمون ثلاثا وسبعين فرقة، وبعد ذلك تقسّموا دُوَلاً ودويلاتٍ وأحزاباً وأشتاتا ... ولم يزلِ الخلافُ قائما الى اليوم . لكأنّ الجهادَ الذى وصّى به النبيُّ على المشركين والكفارِ أصبحَ جهاداً فيما بين المسلمين، وقتالَ بعضهم لبعض!

فلئن كانَ مشروعُ تمزيقِ المصاحفِ و "توحيدِ الكتاب" قد تمّ، فانّ مشروعَ وَحدةِ الأمّة ما يزالُ في البال . فما هو سببُ الفشلِ اذن ؟ ونحن نعلم ان السعيَ نحو الوَحدةِ، بأيّ شكلٍ كان، هو مطلوبُ المسلمين الى دهر الدهور!!! انّ شرّ عثمان في تمزيقِ المصاحف باتَ عبأً على ضمير هذه الأمّة . فلا المصاحفُ التي كانتْ تشيرُ الى صورةِ المعلّمِ المحبوب تعود، ولا الوحدةُ المشتهاةُ يمكنها أن تتحقّق! لقد حدثَ في التاريخ تزويرٌ وشرٌّ لن تتخطّاهما الامّةُ لتعودَ الى حقيقتِها المرجوّةِ كما كانتْ أيّامَ النبيّ العظيم ...

هذه أسئلةٌ وأمورٌ يجب أن تعالَجَ في الاساس، أى منذُ ان شَرَعَ النبيُّ والخلفاءُ الراشدون في القيامِ بجَمْعِ القرآنِ وتوحيدِ الكتاب وتدوينِ المصحف. فلننظر:

******

---

(٣) البغدادى، الفرق بين الفرق، ص ١٤، "في بيان كيفيّة اختلاف الامّة وتحصيل عدد فرقها الثلاث والسبعين"، وأيضا: مقالات الاسلاميين للاشعرى، ص ٣٤ وما بعدها، ثم التبصير لابي المظفر الاسفرائيني، ص ١٢ وما بعدها، والبدء والتاريخ للمطهر المقدسي ٥/ ١٢١ وما بعدها، والملل والنحل للشهرستاني ١/ ٢١ وما بعدها ... الخ .

أولاً - جمع الرسول للقرآن

في ايمان المسلمين انّ "القرآن كان يُدوّن، وتُرتّب آياته وسُوَرُه في حياة محمّد وبأمره"[1]. وذلك عندما "اتخذَ النبيّ (ص) كتّاباً للوحي... وكان يأمرُهم بكتابة كلِ ما يُنزلُ من القرآن، حتى تُظاهِرَ الكتابةُ جَمْعَ القرآنِ في الصدور"[2]. وكان يأمرهم بترتيبِ السُّوَرِ بعضِها أثر بعض، وبوضع الآياتِ في مكانِها من السور. وبذلك يكونُ ترتيبُ القرآن "توقيفيّاً"، أي وَقْفاً على النبيّ، لا "توفيقيّاً"، أي بتوفيقِ الصحابة.

وعلى هذا المعتقد الاسلامي رواياتٌ ورواياتٌ في كتبِ الاخبار والحديث: لقد أخرجَ الحاكِم بسَنَدِ شرطِ الشيخينِ عن زيد بن ثابت قال: "كنّا عندَ رسولِ الله (ص) نؤلّفُ القرآنَ من الرِّقاع". وقد علّقَ البَيْهَقي على ذلك بقوله: "يُشْبِهُ أن يكونَ المُرادُ به تأليفَ ما نُزِلَ من الآياتِ المفرّقةِ في سُوَرِها، وجَمْعَهَا فيها، باشارةِ النبيّ وبحضرتهِ"[3].

وروى البخاري حديثا عن فاطمة أنّ النبيّ أَسَرَّ اليها بانّ جبريلَ يُعارِضُه بالقرآنِ كلَّ سنة، وانّه عارَضَه في العامِ الذي تُوفّي فيه مرّتين. وقال لها: ولا أراهُ الاّ حَضَرَ أجَلي[4].

---

(١) محمد عزّة دروزة، القرآن المجيد، ص ٦٤ .
(٢) الدكتور الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٦٩ .
(٣) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ١/ ٥٧ .
(٤) نفس المرجع ١/ ٥٠، وقد أخرجه أيضا ابن اشتة عن ابن سيرين .

وقال البغوى في شرح السنّة : "يقال ان زيد بن ثابت شهد العُرْضَةَ الاخيرة التي بيّنَ فيها ما نُسِخَ وما بَقِي ، وكتبَها لرسولِ الله ، وقرأَها عليه ، وكان يُقرئ الناسَ بها حتى مات . ولذلك اعتمدَه أبو بكر وعمر في جَمْعِه ، وولاّه عثمان كتْبَ المَصاحف"[٥] .

×××××

"وهذا يفيد انّ النبيّ كان يستعرِضُ القرآن جميعَه في رمضان ، وانّه استعرَضَه مرّتين في رمضان الاخير ، وان المصحَفَ الذى كتبَهُ زيدُ في عهد أبي بكر انّما كانَ وفاقًا لذلك نصّا وترتيبا"[٦] .

*****

وهناك روايات لا حصرَ لها في ترتيب السورِ والآياتِ كما هي اليوم في القرآن ، على انّها توقيفٌ من النبي . وكلُّ المسلمين يُجْمِعُ "على أنّ ترتيبَ الآياتِ توقيفيٌ لا شبهةَ في ذلك"[٧] . وقد رَوى الزركشي : "أمّا الآياتُ في كل سورةٍ ووضعُ البسملة أوائِلَها ، فترتيبُها توقيفيٌ بلا شكٍ ولا خلاف فيه"[٨] .

وعن الامامِ أحمد وابن أبي داوود والترمذي والنسائي وابنِ حبّان والحاكِم عن ابن عبّاس عن عثمان قال : "فكانَ (الرسول) اذا نزلَ عليه شيءٌ دعا بعضَ مَن كانَ يكتبُ له ، فيقول : ضَعُوا هذه الآياتِ في السورةِ التي يُذْكَر فيها كذا ..."[٩] .

---

(٥) السيوطي ، الاتقان ١/ ٥٠ .
(٦) محمد دروزة ، القرآن المجيد ، ٦٩ــ٧٠ .
(٧) السيوطي ، الاتقان ١/ ٦٠ .
(٨) الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٥٦ .
(٩) السيوطي ، الاتقان ١/ ٦٠ .

وكذلك أخرج أحمد عن عثمان بن ابي العاص، قال : "كنت جالسًا عند رسول الله (ص) اذ شَخَصَ ببَصره، ثمّ صوّبه، ثمّ قال: أتاني جبريلُ، فأمرني أن أضعَ هذه الآيةَ هذا الموضعَ من هذه السورة ..."[١٠] وعن القاضي ابي بكر في الانتصار : "لقد كانَ جبريلُ يقول : ضَعُوا آيةَ كذا في موضع كذا"[١١]. وأخرج البخاري عن ابن الزُبَيْر عن عثمان قالَ: "لا أُغَيِّرُ شيئًا من مكانه"[١٢].

وقال القاضي أبو بكر : "الذي نذهبُ اليه انّ جميعَ القرآن الذى أنزلَهُ اللهُ وأمرَ باثباتِ رَسْمِهِ ولم يَنسخْه ولا رُفِعَ تلاوته بعدَ نزوله، هو هذا الذى بينَ الدفتين الذى حواه مصحفُ عثمان، وانه لم يَنقُصْ منه شيء، ولا زيدَ فيه. وانّ ترتيبَه ونَظْمَه ثابتٌ على ما نَظَّمَهُ اللهُ تعالى ورَتَّبَهُ عليه رسولُه من آي السُوَر، لم يُقدَّمْ من ذلك مؤخَّره ولا أُخِّر منه مُقدَّم. وانّ الأمّةَ ضَبَطتْ عن النبي (ص) ترتيبَ آي كلِ سورةٍ ومواضِعِها وعَرفتْ مواقعَها". وبهذا المعنى أيضا نَقَلَ البَغَوي في شرح السنة، وابن حصّار، وغيرهم[١٣].

×××××

ولكن، اذا كنّا نجدُ اختلافًا في ترتيبِ الصحابةِ لمصاحفِهم الخاصّة، فهذا، بحسبِ الشيخ صبحي الصالح "كانَ اختيارًا شخصيًا لم يحاولوا أن يُلزِمُوا به أحدًا ... اذ لم يكتبوا تلكَ المصاحفَ للناس، وانّما كتبوها لأنفسِهم"[١٤]. والرأي الراجح عند المسلمين كافّة هو انّ النبيّ "اهتمَّ

---

(١٠) السيوطي، الاتقان ١/ ٦٠
(١١) نفس المرجع، ١/ ٦١.
(١٢) نفس المرجع، ١/ ٦٠، صحيح البخارى ٦/ ٢٩.
(١٣) انظر السيوطي، الاتقان، ١/ ٦١-٦٢.
(١٤) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ٧١.

بكتابة القرآن ، وانّ القرآنَ كُتِبَ في عهدِهِ وحضرتِهِ بكلِ اتقانٍ وضبط.[١٥] و " ترتيبُ السُوَرِ ، ووضعُ الآياتِ مواضِعَها انّما كانَ بالوحي . كان رسولُ الله يقول : ضَعُوا آيةَ كذا في موضعِ كذا . وقد حصلَ اليقينُ من النقلِ المتواترِ بهذا الترتيب.[١٦] . واذا كانَ للصحابةِ من سعيٍ فهو يعودُ الى جمعِ القرآنِ من المصاحفِ وصدورِ الرجال ، لا في كتابتِهِ وترتيبِهِ .

ويبدو ، بحسبِ المسلمين ، انّ جَمْعَ القرآنِ لم يتمّ في عهدِ النبيّ بسببِ انتظارِ محمّد آياتٍ جديدةً تنزلُ عليه . لهذا " لم يُكْتَبْ في عهد النبي مصحفٌ لئلا يُفضيَ الى تغييرِهِ في كل وقت . فلهذا تأخرتْ كتابتُه الى أنْ كَمُلَ نزولُهُ بموتِهِ.[١٧] . وهذا معنى قولِ زيد بن ثابت : " قُبِضَ النبيُّ (ص) ولم يكنِ القرآنُ جُمِعَ في شيء.[١٨] . وبهذا المعنى قال الخطابي : " انّما لم يَجْمَعِ النبيُّ القرآنَ في المصحفِ لِمَا كانَ يترقّبُهُ من ورودِ ناسخٍ لبعضِ أحكامِهِ ، أو تلاوتِهِ . فلما انقضَى نزولُهُ بوفاتِهِ أَلْهَمَ اللهُ الخلفاءَ الراشدين ذلك وفاءً بوعدِهِ الصادقِ بضمانِ حفْظِهِ على هذه الامّة . فكان ابتداءُ ذلك على يدِ الصدّيق بمشورةِ عمر.[١٩] . وفي ذلك أيضا قال السيوطي : " ان القرآنَ كُتِبَ كلّه في عهدِ رسولِ الله (ص) لكن غير مجموعٍ في موضعٍ واحدٍ ولا مرتّبِ السُوَر.[٢٠] .

*****

(١٥) الزنجاني ، تأريخ القرآن ، ص ٤٣ .
(١٦) السيوطي ، الاتقان ١/ ٦٢ .
(١٧) الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٦٢ .
(١٨) السيوطي ، الاتقان ١/ ٥٧ .
(١٩) نفس المرجع ١/ ٥٧
(٢٠) نفس المرجع ١/ ٥٧

انّ المشكلة مع القرآن ليست هي في جمعِه أو حفظِه أو كتابتِه وتدوينه، بل هي في امكانيّةِ وجودِه قَبْلَ محمّد، وجودِه، لا في "اللوح المحفوظ"، بل في مصادرَ تاريخيّةٍ نقلَ القرآنُ عنها . والحقيقة، انّنا لن نعتمدَ الا على القرآنِ نفسه لنحدّدُ مصادرَه، فهو يعترفُ بوضوحٍ انّ له مصادرَ ومراجعَ أَخَذَ عنها واستَنَدَ اليها واستقى منها :

١ - انّ القرآنَ يقول عن نفسِه انّه موجودٌ في الصُحُفِ الأُولَى وزُبُرِ الاوّلين، في صحفِ موسى وابراهيم؛ وعلماءُ بني اسرائيل يَعلمونَه تمامًا . قال : "انّ هذا (القرآنَ) لَفِي الصُحُفِ الاولى، صُحُفِ ابراهيم وموسى"(٢١)، وقال : "أَوَلَمْ يُنَبَّأْ بما في صُحُفِ موسى وابراهيم الذى وَفّى، أَلاّ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وأَنْ ليسَ للانسانِ الا ما سَعى ... نَذِيرٌ من النُذُرِ الأُولى"(٢٢) . وقال : انّه لتنزيلُ ربِّ العالَمين، على قلبِكَ لتكونَ من المُنذِرين، بلسانٍ عربيٍ مُبين، وانه لَفِي زُبُرِ الأَولين، أَلم يكنْ لهم آيةً أن يَعْلَمَهُ علماءُ بني اسرائيل"(٢٣)، أى "انّ ذكرَ القرآنِ المنزَلِ على محمد لفي كتبِ الاولين كالتوراةِ والانجيل"(٢٤) ...

٢ - يعترفُ القرآنُ بانّ له "إِمامًا" سابِقا عليه، هو كتابُ موسى، وقرآنُه يصدّقُ كتابَ موسى . قال : " ... وشهِدَ شاهِدٌ من بني اسرائيل على مِثْلِهِ، فآمنَ واستكبرتُم ... واذ لم يَهْتَدُوا به فسيقولون : هذا أفْكٌ قديمٌ . وَمِنْ قَبْلِهِ كتابُ موسى إِمامًا ورحمةً . وهذا كتابٌ

---

(٢١) سورة الاعلى ٨٧/ ١٨-١٩ ؛ انظر سورة طه ٢٠/ ١٣٣ .
(٢٢) سورة النجم ٥٣/ ٣٧-٤٠ و ٥٦ .
(٢٣) سورة الشعراء ٢٦/ ١٩٦ ؛ انظر ٥٤/ ١٧و٢٢و٣٢و٤٠و٥١-٥٣
(٢٤) تفسير الجلالين على ٢٦/ ١٩٦

مصدّقٌ ، لساناً عربياً ، لِيُنْذِرَ الذينَ ظَلموا ، وبُشرَى للمحسنين".(٢٥)
وقال أيضا : "أفمن كان على بيّنةٍ من ربّه ، ويتلوه شاهِدٌ منه ، ومن قَبْلِهِ كتابُ موسى إماماً ورحمة ، أولئك يؤمنون به ... فلا تكُ في مريةٍ منه ، انه الحقُّ من ربّك".(٢٦)

٣ - ويعترفُ القرآنُ بانّه ذكرٌ من الله مُحْدَثٌ ، فيه ذكرُ الاولين وقَصَصُهم وتعاليمُهم . وما هو الاّ للتذكيرِ بما أتَوا به . قال : "لقد أنزلنا اليكم كتاباً فيه ذكرُكم ، أفلا تعقلون؟ ... وما يأتيهم من ذكرٍ من ربّهم مُحْدَث ... فاسألوا أهلَ الذكر ان كنتم لا تعلمون ... هذا ذكرُ مَن معي وذكرُ مَنْ قَبْلي ...".(٢٧)

٤ - ويستشهدُ القرآنُ بأهلِ الكتابِ وبعلمِهم ومعرفتِهم بالكتب ، وهو يسألُهم عن صحّةِ ما فيه ، ويدعو أصحابَه لأن يسألوهم بدورِهم ليكونَ في نفوسِهم اطمئنانٌ : قال "فاسألوا اهلَ الذكرِ ان كنتم لا تعلمون".(٢٨)
وقال ايضا : "فاسألوا اهلَ الذكر ان كنتم لا تعلمون بالبيّناتِ والزُبُر . وأنزلنا اليك الذكرَ لتبيّنَ للناس ما نُزِّلَ اليهم . ولعلّهم يتفكّرون".(٢٩) ،
وقال : "فان كنتَ في شكٍ ممّا أنزلنا اليكَ فاسألِ الذينَ يقرأون الكتابَ من قَبْلِكَ".(٣٠)

---

(٢٥) سورة الاحقاف ٤٦/ ٩-١٢ .
(٢٦) سورة هود ١١/ ١٧ ، انظر السجدة ٣٢/ ٢٣-٢٤ .
(٢٧) سورة الانبياء ٢١/ ٢ و ١٠ و ٢٤ و ٢٥ .
(٢٨) سورة الانبياء ٢١/ ٧ وما بعد
(٢٩) سورة النحل ١٦/ ٤٣-٤٤ .
(٣٠) سورة يونس ١٠/ ٩٤ .

٥ـ ويبدو انّ اهلَ الكتاب هم على مُستوى اطمئنانِ المسلمين في الردّ على سؤالهم . فهم يعرفون القرآنَ تمامَ المعرفة، يعرفونه كما يعرفون كتابَهم الذي بين أيديهم، ويعرفونه كما يعرفون أبناءَهم. قال : "الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم"(٣١) . وقال : "والذي أوحينا اليكَ مِنَ الكِتابِ هو الحقُ مُصَدِّقًا لما بين يديه ... ثم أورثنا الكتابَ الذى اصطفينا من عبادنا"(٣٢)، ويوضح : "أورثنا بني اسرائيلَ الكتابَ"(٣٣) . "والذينَ آتيناهُمُ الكتابَ (بني اسرائيل) يعلمونَ انّه (القرآن) مُنَزّلُ مـــن ربّكَ بالحقّ"(٣٤) .

٦ـ ويبدو أيضا انّ القران هو "تصديقٌ" للتوراة والانجيل . ومرارا ذكّر محمّد بذلك : "اني رسولُ الله اليكم مُصدّقًا لما بينَ يديّ من التوراة"(٣٥) . والكتابيون يعرفونَ ذلك تمامَ المعرفة "لمّا جاءَهم كتابٌ من عنــدِ اللهِ مصدّقٌ لما معهم"(٣٦)، ويدعوهم القرآنُ بقوله : "يا ايها الذيــن أوتوا الكتابَ آمِنــوا بما نزّلْنا مُصدّقًا لما معكم"(٣٧) . وهكذا يظهـــرُ القرآنُ بكل وضوحٍ بانّه تصديقٌ للتوراةِ والانجيل، فيكونُ الانجيلُ كمـــا التوراةُ مصدَرًا من مصادرِه التي لا يتنكّرُ لها أحدٌ من المسلمين الطيبين .

٧ـ ومن جملةِ الاشارات الى مصادر القرآن كونُه مترجَمًا عـــن "كتابٍ (أعجمي) فُصِلَتْ آياتُه قرآنًا عربيا"(٣٨)، و"كتابٌ أحكِمَتْ آيـاتُه

---

(٣١) سورة الانعام ٦/ ٢٠ .
(٣٢) سورة فاطر ٣٥/ ٣١ .
(٣٣) سورة غافر ٤٠/ ٢ـ٣ .
(٣٤) سورة الانعام ٦/ ١١٤ .
(٣٥) سورة الاحقاف ٤٦/ ٣٠، انظر : ٣/ ٥٠، ٥/ ٤٦ الخ ...
(٣٦) سورة البقرة ٢/ ٨٩ و ٩١ ...
(٣٧) سورة النساء ٤/ ٤٧ . انظر كتاب قس ونبي، ص ٧٦ـ٧٧ .

ثمّ فصّلتْ من لدن حكيمٍ خبير"[٣٩] . وممّا يشيرُ الى وجودِ مصدرٍ أعجميٍ للقرآن هو تمنّي العرب أن يكونَ لهم كتابٌ بلغتِهم، وتلبيةُ محمّد (؟) لهذا التمنّي ، من قوله : " ولو جعلناهُ قرآناً أعجميا ، لقالوا : لولا فُصّلتْ آياتُه! "[٤٠] ... فيكونُ القرآنُ العربي " تفصيلَ الكتابِ (الاعجمي) ، لا ريبَ فيه "[٤١] .

٨ ـ وفي تسميةِ الكتاب بالقرآن دلالةٌ على انّه قراءةٌ عربيةٌ لكتابٍ هو في الاصلِ بغيرِ لغة العرب. وقد وُضعَ بلسانٍ عربيٍ ليعقلَهُ العرب : " وأنزلناه قرآناً عربيا لعلكم تعقلون "[٤٢] ، و" انّا جعلناه قرآناً عربيّا لعلكم تعقلون . وانّه في أمّ الكتاب لدينا "[٤٣] ، وليتبيّنوا تفاصيلَه : " كتابٌ فُصّلتْ آياتُه قرآناً عربيا لقومٍ يعلمون "[٤٤] ، ويتعرّفوا على أخباره وقَصَصِه : " نحنُ نقصُّ عليكَ أحسنَ القَصَص بما أوحينا اليكَ هذا القرآن "[٤٥] ، ويهتدوا بهِ من كلِ عِوَجٍ وضلال : " وقرآناً عربيًا غيرَ ذي عِوَجٍ لعلّهم يتّقون "[٤٦] .

٩ ـ هذه الاشارات السريعة تفيدنا أنّ للقرآنِ العربي مصدرًا في غيرِ لغة العرب. بل ان هذا المصدر هو القرآنُ الاعجمي الذي نرى له في كتبِ السِيَر اسمًا لامعًا ، وفي تاريخِ الكتابِ المقدس وتاريخِ الكنيسة

(٣٩) سورة هود ١١ / ١ .
(٤٠) سورة فصلت ٤١ / ٤٤ . انظر " قسّ ونبيّ "، ص ٧٥ـ٧٦ .
(٤١) سورة يونس ١٠ / ٣٧ .
(٤٢) سورة يوسف ١٢ / ٢ .
(٤٣) سورة الزخرف ٤٣ / ٣ـ٤ .
(٤٤) سورة فصلت ٤١ / ٣ .
(٤٥) سورة يوسف ١٢ / ٣ .
(٤٦) سورة الزمر ٣٩ / ٢٨ . انظر: " قسّ ونبيّ "، ص ٧٤ـ٧٥ .

اسم "الانجيل العبراني" الذي كانَ القسُّ ورقة بن نوفل، ابنُ عمّ خديجة يَنقُلُه الى العربيّةِ بحَضرةِ النبيّ محمّد. ولقد عالجْنا صلةَ القرآن العربي بالانجيلِ العبراني في كتابِ قسّ ونبيّ مطوّلا ؛ فَلْيُعَدْ اليه[47].

١٠ـ ولكنّ في القرآنِ العربي اشاراتٍ الى مقتَبَسَاتٍ أخرى، لا نجدُها في "الانجيلِ العبراني"، ولكنَّ العارفَ بالتاريخِ الكنسي وبعلومِ الكتابِ المقدس، في عهدَيهِ الجديدِ والقديمِ، يعلَمُ تمامَ العلم أنّ القرآنَ اعتمدَ عليها، وأَخَذَ منها، واقتَبَسَ عنها. كما نجدُ تقاليدَ منتشرةً على ألسنةِ المرسَلين والوعّاظِ في جزيرة العرب، استلهمها القرآن وسجّلها بين صفحاته. وعلى ذلك مراجع سهلة المنال ؛ فلْيُعَدْ اليها[48].

*****

بعد هذا العرض كلهِ لمصادر القرآن، ماذا يَبقى من قولِ أهلِ الاخبار والمحدّثين بانّ القرآنَ جُمِعَ كلّهُ في عهدِ محمّد! أليسَ في ذلك دلالةٌ على انّه كانَ مجموعًا قَبْلَ محمّد؟! ولكنّ لذّةَ خَلْطِ تاريخِ الله بتاريخِ البشر جعلتِ الناسَ مطمئنّين لمعجزاتٍ يُحدِثُها اللهُ في كلّ شيء. وفيما الناسَ تُعوزُهُم معجزةٌ، جعلوا اللهَ لا تُعجِزُه معجزة. بهذا يطمئنّ كلّ حَيرانٍ، ويستريحُ كلُّ ذي بالٍ قَلِقٍ، وينامُ الكلّ في راحةِ المُعجزة.

---

(٤٧) انظر كتاب قسّ ونبيّ حيث يعالج موضوع الانجيل العبراني وصلته بالقرآن العربي. وفيه كل قصة مصادر القرآن المباشرة...

(٤٨) انظر: د. فلهلم رودلف، صلة القرآن باليهودية والمسيحية، ترجمة عصام الدين حفني ناصف، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٤،
D.Masson, Monothéisme coranique et monotéisme biblique.Doctrines comparées. DDB.1976.
Tor Andrae, Les origines de l'Islam et le christianisme, Adrien-Maisonneuve, 1955.............

ثانياً ـ جمع أبي بكر الصديق للقرآن

في السنة الاولى من خلافة أبي بكر الصديق ، ظهر مُسَيلمةُ النبيّ الكذّاب باليَمامة، فجهّزَ أبو بكر لقِتالِه جيشاً من المسلمين، وفيهم كثيرٌ من القرّاء والحفّاظ ، فقُتِلَ مُسَيْلَمة، واشتدَّ القتلُ على قرّاءِ القرآن، حتى قُتِلَ منهم أكثرُ من سبعين قارئاً، فأحسّ عمر بن الخطاب بضرورةِ جَمْـعِ القرآن، ودعا أبا بكر الصديق ليفعَل (١) .

وجاء في سُنَنِ ابن أبي داود "أنَّ عُمَر سألَ عن آيةٍ من كتاب الله، فقيل : كانتْ مع فلان قُتِلَ يومَ اليمامة . فقال : إنّا لله . فأمرَ بجَمْعِ القرآن. فكان أوّلَ مَـنْ جَمَعَهُ في المصحف... أي أشارَ بجمعه".(٢) .

وروى البُخاري عن زيد بن ثابت قال : "أرسلَ اليّ أبو بكر، بعـد مقتلِ أهلِ اليَمامة، فاذا عُمَرُ بن الخطّابِ عنده، فقالَ أبو بكرٍ : ان عمر أتاني فقال : ان القَتْلَ اسْتَحَرَّ يومَ اليمامةِ بقرّاءِ القرآن، واني أخشَـى أن يَسْتَحِرَّ القتلُ بالقرّاءِ في المواطِنِ (بسائر البلاد) ، فَيَذْهَبُ كثيـرٌ من القرآن . واني أرى أن تأمرَ بجمعِ القرآن . فقلتُ لعمر : كيفَ تفعَـلُ شيئاً لم يفعلْه رسولُ الله (ص) . قال عمر : هُوَ واللهِ خيرٌ. فلم يَـزَلْ يراجِعُني حتى شَرَحَ اللهُ صدري لذلك . ورأيتُ في ذلك الذي رأى عُمَـر .

---

(١) السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن، ١/ ٥٩ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١/ ٥٨ .

قال زيد : قال أبو بكر : انّك شابٌ عاقل، لا نَتّهمُكَ، وقد كنتَ تكتبُ الوحيَ لرسولِ الله (ص)، فَتَتَبّع القرآنَ واجمَعْهُ. فوالله، لو كلّفوني نَقْلَ جَبَلٍ من الجبال ما كانَ أثقل عليَّ ممّا أمَرَني به من جَمْعِ القرآن. فقلتُ : كيفَ تفعلانِ شيئًا لم يفعلْه رسولُ الله (ص). قالَ : هو واللهِ خيرٌ. فلم يَزَلْ أبو بكر يراجعني حتى شرحَ اللهُ صدري للذى شرحَ اللهُ له صدرَ أبي بكر وعمر. فتتبّعتُ القرآنَ أجمعَه من العُسُبِ (جريدة من النخل) واللخافِ (حجارة بيض رقاق) وصدورِ الرجال، حتى وجدتُ آخِرَ سورةِ التوبةِ مع أبي خُزيمةِ الانصاري لم أجدْها معَ غيرِهِ... فكانتِ الصحفُ عندَ أبي بكر حتى توفّاه الله، ثم عند عُمر حياتَه، ثم عند حفصة بنتِ عمر[٣].

*****

لقد استعجلَ أبو بكر وعمر في جَمْعِ المصاحف، لأنّ هناك خطراً مُداهِمًا يتأتّى من مصاحفَ أخرى مختلفةٍ بعضُها ببعض. وقد كان أصحابُها من صحابةِ النبيّ المشهورين بالعلمِ والفضيلة ومن أمّهاتِ المؤمنين اللواتي عايَشْنَ النبيّ وعرفنَه في حالاتِه الخاصّةِ والعامّة. وكان عددُ المصاحفِ كبيرًا، وخطرُها أكبر، والخلافُ بينها واسعًا، والثقةُ بها أوسع :

١ ـ فهناك مصحفُ سالِمِ بن معقل مَولى أبي حُذَيْفَة الذي حرّره النبيّ. ولكنّ سالِماً ماتَ بعدَ النبيّ بسنة[٤]. وقد أخرجَ ابن أشتة في كتابِ المصاحف عن ابن بريدة قال : "أوّلُ مَنْ جَمَعَ القرآنَ في مصحف سالِمُ مولى أبي حُذَيفة، أقسَمَ : لا يرتدي برداءٍ حتى يجمَعُه. فَجَمَعَهُ"[٥].

---

(٣) الاتقان ١/ ٥٧، انظر : البرهان ١/ ٢٣٤، تهذيب التهذيب ٣/ ١٤٠.
(٤) تفسير الطبري ١/ ٦٣.
(٥) الاتقان ١/ ٥٨ عن كتاب المصاحف لابن أشتة.

٢ ــ وهناك مصحف عبد الله بن عبّاس، توفي سنة ٦٨ هجرية . ولابن عبّاس مكانٌ في الاسلام مرموق . تخصّص في تفسير القرآن، وكان تلميذاً لعليّ بن ابي طالب . ذكر الشهرستاني له مصحفًا يختلف بترتيبه عن مصاحف الصحابة[(٦)] .

٣ ــ وهناك مصحف عقبة بن عامر (+ ٦٠ هـ) من صحابة النبي ، وقد حَكَم مصرَ فيما بعد . له مصحَفٌ وُجِدَ سنة ٣١٣ هـ/ ٩٢٥م . ولكنّه لم يعدْ يوجَد اليوم[(٧)] .

٤ ــ وهناك مصحف المقداد بن عمر (+ ٣٣هـ) من صحابة النبي المشهور بتقواه وشجاعته . لقد كان مصحفُه منتشرًا في حمص بسوريا[(٨)] .

٥ ــ ومصحف أبي موسى الاشعرى (+ ٥٢هـ) من شيعة علي . أنتشر مصحفه في بصرى . وكان شبيهًا الى حدٍّ بعيد بمصحَفَي ابن مسعود وأُبيّ ابن كعب . عُرِفَ بمخالفته لمصحفِ عثمان الامام[(٩)] .

٦ ــ ومصحف أُبَيّ بن كعب (+ ٢٢هـ) من المدينة . استخدمَ النبيُّ أُبيّاً لتدوين الوحي ، ولكتابة الرسائل الى القبائل . اشتهرَ باتّقاد ذاكرته، وهو بين القلائل الذينَ حَفظُوا كلّ القرآن . يختلفُ بمصحفِه عن مصحفِ عثمان، بعددِ سُوَرِه وبترتيبه . ففيه ١١٦ سورة بدل ١١٤ . والسورتان الزائدتان هما : سورة الخَلْعِ وسورة الحَفْد[(١٠)] .

---

(٦) انظر الاصابة ١/ ٩٤، وانظر ترتيب مصحفه في كتاب "تاريخ القرآن" للزنجاني ، ص ٧٦ .
(٧) نولدكه، تاريخ القرآن، ٣/ ٩٧، حاشية ١ .
(٨) نولدكه، تاريخ القرآن، ٢/ ٢٩ــ٣٠ .
(٩) تاريخ القرآن لنولدكه، ٢/ ٢٨ و ٣٠، الانسكلوبيديا الاسلامية ٤٨٨ .
(١٠) انظر : الاصابة ١/ ١٦، الفهرست ٤٠، الزنجاني ٧٢ حيث ترتيبه .

٧ ـ مصحف عبدالله بن مسعود (+ ٣٠هـ) . نشأ راعيا، وأسلم باكرا، وخدم النبي بورع . نقل عنه البخاري قوله : " بالله، ليس من سورة في الكتاب أوحيت الا وعرفت أين أوحيت وبمناسبة من أوحيت ."[١١] ينقص من مصحفه سورة الفاتحة والمعوذتان . ويختلف ترتيبه عن سائر المصاحف[١٢] .

٨ ـ مصحف عائشة، جمعه لها مولاها أبو يونس . وروى عنها عروة ابن الزبير انها قالت : " ان سورة الاحزاب كانت تقرأ في زمن النبي مئتي آية . فلما كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها الا ما هو الآن ."[١٣] .

٩ ـ مصحف حفصة، جمعه لها مولاها عمر بن رافع . ولكن لا نستطيع ان نعرف عما اذا كان هو نفسه مصحف زيد بن ثابت الذى أودعه عندها أم غيره .

١٠ ـ مصحف علي بن ابي طالب (+ ٤٠هـ) . كلمنا عنه اليعقوبي وابن النديم والسيوطي وغيرهم . عرف الامام محمد الباقر هذا المصحف ونسبه اليه[١٤] . سمى علي مصحفه بـ " الناسخ والمنسوخ "[١٥] وقسمه الى سبعة أجزاء، وكل جزء من ١٥ أو ١٦ سورة . ولا يستبعد أن يكون مصحف علي فاق سائر المصاحف لمكانة علي في الاسلام . ولا يستبعد أيضا ان يكون مصحفه مغايرا لسائر المصاحف ومختلفا عنها، لاختلاف موقفه من مواقف أهل السنة وجماعة الخلفاء الذين اغتصبوا منه الخلافة . ومن الطبيعي أن نجد لعلي مصاحف كثيرة تنتسب اليه لكثرة الشيع التي تفرعت عن شيعته .

---

(١١) عن نولدكه، تاريخ القرآن ٣/ ٢٧، رابعا .
(١٢) انظر ترتيبه في " تاريخ القرآن " للزنجاني ٧٤ـ٧٥ .
(١٣) السيوطي، الاتقان ٢/ ٢٥ .
(١٤) تفسير القمي، ٤١٩ـ٤٢٠ .
(١٥) الاتقان ١/ ٥٨ .

والغريب في الأمر أن يشرَعَ عليٌّ ، بعد موت النبي مباشرة، وعند بيعة أبي بكر، بجمع القرآن! والغريب أيضا ان يرى عليٌّ ، منذ تلك اللحظة، انّ القرآنَ يُحرَّفُ فيه ويُزادُ عليه . قال عكرمة : " لمّا كانَ بعدَ بَيعَةِ أبي بكر، قعدَ عليُّ بنُ أبي طالب في بيته . فقيل لأبي بكر : قد كَرِهَ بَيْعَتَكَ، فأرسلَ اليه . فقال : أكرِهْتَ بَيعَتي ؟ قالَ : لا واللهِ . قال : ما أقعدَكَ عنّي ؟ قال : رأيتُ كتابَ اللهِ يُزادُ فيه، فحدّثتُ نفسي أن لا ألبُسَ ردائي الاّ لصلاةٍ حتى أجمَعَهُ . قالَ له أبو بكر : فانّكَ نِعْمَ ما رأيت."(١٦)

وعن أبن أبي داود قال : " سمعتُ عليّا يقول : أعظمُ الناس في المصاحفِ أجرًا أبو بكر، رحمةُ الله على أبي بكر، وهو أوّلُ من جَمَعَ كتابَ الله."(١٧) وعن ابن سيرين قال : " قالَ عليّ لمّا ماتَ رسولُ الله، آليتُ أن لا آخذَ عليَّ ردائي الاّ لصلاةِ جُمُعَةٍ حتى أجْمَعَ القرآنَ فَجَمَعْتُهُ."(١٨).

*****

لنا حولَ هذه المعطياتِ أكثرُ من تساؤل : لماذا يُشيدُ المحدّثون برضى عليٍّ على صنيعِ أبي بكر وعمر ؟ هل يُعقَل أن يباشِرَ عليٌّ بوضعِ القرآن ولم يَمضِ على موتِ النبيّ ساعات ؟ وهل منذ هذه اللحظةِ ابتدأتِ الزياداتُ تَظهَرُ في القرآنِ حتى يقولَ عليٌّ " رأيتُ كتابَ اللهِ يُزاد فيه"؟ واذا كانتْ غَيرَةُ عليٍّ كبيرةً الى هذا الحدّ فلماذا لم يأخذْ أبو بكر وعمر بمصحَفِه؟ ولماذا فضّلَ أبو بكر وعمر مصحفَ زيد بن ثابت على مصحفِ عليّ ؟ وعليٌّ هو المسلمُ

---

(١٦) السيوطي ، الاتقان ١/ ٥٧-٥٨ .
(١٧) نفس المرجع ، ١/ ٥٧.
(١٨) نفس المرجع ، ١/ ٥٧.

الأوّل والمجاهِدُ الأكبر، ابنُ عمِّ النبيّ وصهرُه وربيبُه وحاملُ لواء الاسلام !!

ثمّ ما الذي دفَع أبا بكر الصدّيق وعمر بن الخطّاب الى جَمْعِ القرآن ؟ ولماذا اختارَا زيدًا بنَ ثابت لهذه المهمّة؟ والمعروفُ ان زيدًا لم يزلْ في بطنِ أمّهِ عندما ابتدأ النبيُّ بالرسالة والنبوّة؟ بل ان عُمْرَ زيدٍ لم يكنْ أكثرَ من عَشْرِ سنين عندما هاجَرَ النبيُّ الى المدينة . فهناكَ اذن أكثرُ من ثِلْثَيِ القرآن نَزَلَ على النبيّ ولم يكنْ زيدٌ يَعيها لِصِغَرِ سِنِّهِ! وما معنى قول أبي بكر لزيد : "انّك شابٌ عاقلٌ لا نتّهِمُك"؟ فهل من اتّهامٍ لغير زيد من كَتَبَةِ الوحي ؟ ولماذا ؟ ولماذا فُضِّلَ زيدٌ على عبدالله بن عبّاس، وقد مَدَحَه النبيّ بأنّه خيرُ مَنْ عَرَفَ القرآنَ وفَسَّرَهُ، وعلى أُبَيّ بن كعب صاحبِ الذاكرةِ الوقّادة، وعلى عبدالله بن مسعود المسلمِ الورع؟ ولماذا وَضَعَ زيدٌ المصحفَ الذي جَمَعَهُ عندَ حفصة بنتِ عُمَرْ وزوجةِ النبيّ وليسَ عند أم سَلمة مثلا، أو غيرها ؟

انّها أسئلة كثيرة تخطر على البال، وليسَ عليها من التاريخِ جواب . الايمانُ وحده يستطيعُ نَقْلَ الجبال . ونحنُ بنقلِ الجبالِ، ولو بأظافرِنا، مُلْزَمون . انّ رواياتِ أهلِ الاخبارِ غيرُ صحيحة، وتاريخَهم تتحوّلُ أحداثه بايمانِهم . ولم يُعَبِّرْ أهلُ الاخبار عن هذا الايمان الاّ بعدَ ما يَزيدُ على المائةِ سنة من موتِ النبي . وليسَ مَنْ يفصلُ بين التاريخ والايمانِ سوى التنقيبِ في رمالِ مكة وآثارِ الكعبة وبيتِ الله الحرام . ولكنّ حُرْمَةَ البيتِ تمنعُ عن القلقِين البحثَ المتعِبَ المضني . ولم يبقَ أمامَنا الاّ الايمانُ بمعجزةِ الهيّةٍ أخرى تُقَدِّمُ لنا المصحَفَ الجليلَ على راحَتَي جبريلَ المُبارَكَتين !

****

ثالثاً - مصحف عثمان بن عفّان

في ايمان المسلمين انّ القرآنَ المتداوَلَ اليومَ قد جمعَه عثمانُ بن عفّان من الرقاعِ وصدورِ الرجال، وقد ألّفَ من أجلِ ذلك لجنةً من عدّة قرّاء فوضعوا ما وضعوا متّفقين . ولمّا انتهتِ اللجنةُ من أعمالِها، أمـرَ الخليفةُ بنسخِ المصحفِ عدّةَ نسخ، أربعةً أو سبعةً، ووزّعَ النسخَ علـى الامصارِ الاسلاميّة، ثمّ أتلفَ كلَّ المصاحفِ الخاصّة .

لقد باتَ كل شيء معدّاً، الى الآن، ليتدخّلَ الخليفةُ الثالـث عثمان بن عفّان (٢٣ـ٣٥هـ/ ٦٤٤ـ٦٥٥م) ليحسمَ موضوعَ جَمْعِ القرآنِ ببطشٍ وسلطان . زيد بن ثابت لا يزالُ حيّاً يُرزق . والفتوحاتُ الاسلاميّة تتوالى . والقتلُ بين الصحابة يزداد . والاختلافاتُ بين القرّاء تزدادُ هي أيضا . والاقتتالُ بين الناس يشتدُّ بسبب هذا الاختلاف. لقد "اقتتلَ الغلمانُ والمعلمون"[1] ، وتوزّعَ الحفّاظُ والقرّاءُ في الشامِ والعـراقِ واليمنِ وأرمينيا وأذربيجان، ولَحَنَ العربُ في لغتِهم لمجاورتِهم أمماً غيرَ عربية، أو عربيةً غير مُضَريّة، وفسدتِ اللغةُ فدخلَ فيها ألفاظٌ أعجميّـة، وفُقِدَتْ منها ألفاظٌ أخرى ... كلُّ هذا دعا الخليفةَ الى التدخّلِ المباشر، لان القرآنَ أصبحَ في خَطَرِ التحريفِ والتصحيفِ والزيادةِ والنقصان ...

---

(١) السيوطي، الأتقان في علوم القرآن، ١/ ٥٩ .

يخبرنا البخارى في صحيحه عن ابن شهاب عن أنس بن مالك حدّثه "أنّ حُذَيفةَ بن اليمان قَدِمَ على عثمان، قَبْلَ الذهابِ الى فَتْحِ أرمينيا وأذربيجان (سنة ٣٠هـ/ ٦٥٠م) وقال له: "يا أميرَ المؤمنين، أَدْرِكْ هذه الأمّةَ قبلَ أن يختلفوا اختلافَ اليهودِ والنصارى". فأرسلَ عثمانُ الى حفصة أَنْ أرسِلِي الينا الصُّحُفَ ننسخُها في المصاحفِ ثم نردّها اليكِ. فأرسلتْ بها حفصةُ الى عثمان. فأمرَ زيدَ بن ثابت وعبدَالله بن الزبير وسَعِيدَ بن العاص وعبدَ الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف. وقال عثمانُ للرهطِ القرشيين الثلاثة: اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيءٍ من القرآن فاكتبوه بلسانِ قريش، فانه انما نَزَلَ بلسانِهم. ففعلوا، حتى اذا نَسَخُوا الصحفَ في المصاحفِ ردّ عثمانُ الصحفَ الى حفصة. وأرسلَ الى كل أفقٍ بمصحفٍ مما نَسَخُوا. وأمرَ بما سواه من القرآنِ في كلِ صحيفةٍ او مصحفٍ أن يُحْرَق".(٢)

وعن أنس بن مالك ايضاً قال: "اختلفوا في القرآنِ على عهد عثمان حتى اقتتلَ الغلمان والمعلمون، فبلغَ ذلك عثمانَ بن عفّان، فقال: عندي تكذبون به وتلحنون فيه! فمن نأى عنّي كانَ أشدَ تكذيبًا وأكثرَ لحنًا. يا أصحابَ محمّد اجتمعوا فاكتُبوا للناس إِمَامًا. فاجتمعُوا فكتبوا فكانوا اذا اختلفوا وتدارءوا في أيّ آيةٍ قالوا: هذه أقرأها رسولُ اللهِ فلانًا فيُرسَلُ اليه وهو على رأسِ ثلاثٍ من المدينة، فيُقال له: كيفَ أقرأكَ رسولُ الله آيةَ كذا وكذا، فيقولُ: كذا وكذا، فيكتبونها، وقد تركوا لذلك مكانا".(٣)

---

(٢) صحيح البخارى، كتاب فضائل القرآن، الباب الثاني والباب الثالث، السيوطي، الاتقان ١/ ٥٩، ابن ابي داود ١٨، الطبرى ١/ ٢٠-٢١.
(٣) نفس المرجع ١/ ٥٩.

لنا حول رواية البخاري الذى "ما عرفَ التاريخُ مَـنْ يُضارعُـه في الثقةِ والضبطِ والامانة".(٤) عدّةُ تساؤلات :

لماذا زيد بن ثابت ؟ ومن المعروف انّ بين الصحابة وكَتَبةِ الوحي من هو أكثر ثقةً وعلماً وبلاغةً منه؟ وانّه لم يَسمَعْ من النبيّ سوى آياتٍ قليلةٍ من القرآن، وانّه، بالنسبةِ الى أُبَيّ وابنِ عبّاس وعليّ بن أبي طالب، لا يُعْتَدُّ بوَرَعِهِ أو بعلمِهِ أو بوعيِهِ أو بجهادِه ورفع لواء الاسلام! ولماذا فضّلَ عثمانُ أيضا، كأبي بكر وعمر، ان يكونَ زيدُ رئيسًا على جمّاع القرآن وحفّاظه! ثمّ على أيّ دين كان زيد ؟ هل حقّا كان يعرفُ العبريةَ والسريانية(٥)، وان كان ذلك فعلا، فأين تعلّمهما؟ وعلى يدِ مَـن أخذهما ؟

ثمّ لماذا أحرقَ عثمانُ المصاحف ؟ وكيفَ أحرقها ؟ هل أُحرِقَتْ، أم مُزِّقتْ، أم طُرِحَتْ في الماء؟ التقليدُ يختلف في ذلك. وكيف تجرّأ المؤمنون على اتلافِ هذه المصاحف، وهي تحملُ في طيّاتِها صورةَ المعلم المحبوب، وهي من أيدي صحابةٍ أجلّاء محترَمين مُوفوري الوَقارِ والكَرامة !

وكيف تألّفتِ اللجنةُ؟ وممّن؟ التقليدُ على خلافٍ ظاهر. فمنه مـا يشير الى اثنين فقط : زيد وسَعيد بن العاص، ومنه ما يشيرُ الى ثلاثة: زيد وسعيد وعبد الرحمن بن هشام، ومنه ما يشير الى أربعة(٦)، ومنه ما يشير الى لجنة اثني عشرية(٧) ... ومن المعروف أيضا ان سَعيداً بـن العاص كان ابّانَ تأليفِ اللجانِ واليا على الكوفة، فكيف يكونُ من أعضائها ؟

---

(٤) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٧٩.
(٥) طبقات ابن سعد ١١، ٢/ ١١٥.
(٦) يضاف الى الثلاثة المذكورين ابن الزبير، انظر البخاري وابن أبي داود
(٧) ابن ابي داود، كتاب المصاحف، ص ٢٢، ٢٤ و ٢٥.

وثلاثة من اللجنة الرباعية كانوا مكيّين من قريش ومن الطبقة الارستقراطية ومن أقرباء عثمان بن عفّان ، وبين بعضهم بعضا صلاتُ مصاهَرةٍ ومصالحُ مشتركة . وزيدَ وحدَه كان مدنيًا من الانصار . ومع هذا كان رئيسا على اللجنة . وفي نصيحة عثمان للجنة : "اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسانِ قريش"[٨] ما يشير الى امكانية الخلاف ، والى مداخلة الخليفة واشرافه وسلطانه .

هل لعثمان نيّات وخفايا فيما صَنع ؟ الحقيقةُ انه كانَ يعرفُ مدى خطورةِ مصحفِ عليّ بن ابي طالب خصمِه وعدوّه السياسي ، وكان يعرفُ انّ هناك مصاحفَ دُوّنتْ ايّامَ النبيّ ولها قدسيّتُها وأهميّتها ، وكان يعرفُ أنّ مصاحفَ الصحابةِ المعروفةَ آنذاك كانتْ تنتمي الى المدينةِ وسائرِ المواطن الاسلامية ، وهو يريد لمكّةَ السَبْقَ في هذا المجال ... لعلّها العصبيّة القبليّة تحكّمتْ بعثمان ؟ وليستْ هذه العصبية مختفيةً في غير هذا الموضع في كل حال . فالعصبيةُ الاموية والعصبيةُ العباسية والعصبيةُ العلوية كانتْ باديةً وقد أخذتْ مجراها في الخِصام والاقتتالِ والثوراتِ حتى الدم الغزير ...

ثمّ ما هو موقفُ عليّ ؟ وقد وضَع المحدّثون على لسانِه كلَ الرضى ، تمامًا كما أظهروا رضاه على ما صَنع أبو بكر وعمر . لقدْ أخرَجَ ابنُ ابي داود بسَنَدٍ صحيحٍ عن سُوَيد بن غَفَلة قال : قال عليّ : لا تقولوا في عثمانَ الاّ خيرًا ، فواللهِ ما فعلَ الذي فعلَ في المصاحفِ الا عن ملأ منّا.[٩] . هل رضِي عليّ هو حقيقة ؟ ان لعليّ مصحفًا دُوّنَهُ بيدِه ومباشرةً عن النبيّ ، وهو كما يجب أن يكونَ أكثرَ أصالة من مصحفِ زيد أو سواه ، وقد أتلفَه عثمان ، فهل هذا يوجِبُ من عليّ سخطًا أم رضى ؟

(٨) السيوطي ، الاتقان ١ / ٥٩ .
(٩) نفس المرجع ١ / ٥٩ـ٦٠ .

لماذا ردّ عثمانُ المصاحفَ لحفصة؟ ان الخليفةَ مروان بن الحكم سنة ٦٤ حاولَ أن يأخذَها منها ليحرقَها فأَبَتْ. فلمّا توفّيتْ أخذَها وأتلفَها، وقال مدافِعًا عن صنيعه: "انّما فعلتُ هذا لأنّ ما فيها قد كُتِبَ وحُفِظَ بالمصحفِ الإمام، فخشيتُ ان طالَ بالناسِ زمانٌ أن يرتابَ في شأنِ هذه الصحفِ مُرتاب". [١٠] . السؤال: أكانت مصاحف حفصة تختلف عن مصحف عثمان، حتى يتصرّف مروان هكذا؟ اذا كان كذلك، فما صحّة علاقة مصحف عثمان بما جمعه أبو بكر اذن؟!

ألحقيقة ان اعتمادَ عثمان على جمعِ أبي بكر هو عملٌ ذكي، بل عملٌ سياسي ماهِر. لقد كانَ يعرفُ انه اذا اعتمدَ مصحفَ ابنِ مسعود مثلاً لكانَ أثارَ عليه حَنَقَ السوريين وأهلِ بصرى الذين كانوا يقرأون بمصحفِ أُبي بن كعب وبمصحفِ الاشعرى، ولكان شَتَمَ عملَ سَابِقَيْهِ في الخلافة ابي بكر وعمر، وقد كان يعرفُ بذكائه انّ المسلمينَ لن يختلفوا كثيرًا اذا ما رُفِعَ من شأن الخليفتَين اللذَين سَدَّدَا خطواتِ الاسلام وفتحا البلادَ وأعليَا العمران.

ثمّ أيضا ما هو موقفُ ابنِ مسعود من مصحفِ عثمان؟ ان دلائلَ كثيرةً تشيرُ الى عدم رضاه. لقد رفضَ رفضًا قاطِعًا ما جمَعَه عثمان، وقال: "كيفَ تأمرني أن أتبعَ قراءةَ زيد في الوقتِ الذى كنتُ أقرأ القرآنَ سبعين مرّة، وأسمعُه من فمِ النبي، وزيدٌ كان لا يزالُ في صلبِ أبيه يحملُ لُعَبَ الاولاد ويلعبُ بالمكانس!" [١١] . ومرّة أخرى قال: "سأتركُ مصحفَ عثمان لانّه من عملِ انسانٍ. فعندما كنتُ قد أصبحتُ مسلِما، كان زيدٌ في أحشاءِ أمّه". [١٢]

---

(١٠) ابن ابي داود، كتاب المصاحف، ص ٢٤ .
(١١) نفس المرجع، ١٧، ابن سعد ٢/قسم ٢ ص ١٠٥ .
(١٢) نفس المرجع، ص ١٧ سطر ١٥ .

قد تكون هذه الاقوال المنسوبة الى ابن مسعود صحيحة أو غير صحيحة، ولكنّ عدم رضاه فيها واضح . ومبرِّرُ عدمِ الرضى واضحٌ أيضا . وقد يكونُ هذا موقفُ أبي بن كعب أيضا ، ولكن لا علمَ لنا به على طريقِ الوضوح، فيما الذين كانوا يتّبعونَ مصحفه أظهروا عدمَ رضاهم برفضِهم مصحفَ عثمان الذي حَكَم على اتلافِ كل المصاحف. ولا شيءَ يمنعُ من القولِ بعدم رضى عليّ بن ابي طالب ، بدليلِ ما وُضِعَ على لسانه من رضى ، ظنّاً انّ في قلبه غيرَ هذا الرضى .

*****

ومع هذا كلّه، ورغم حسنِ نيّات عثمان في توحيدِ الكلمة بين المسلمين وفي توحيدِ كتاب الله، لم تُحَلِّ المشكلة من أساسها ، بل قد يكون عثمان عقّدَها أكثر، لانّ المصاحفَ القديمةَ كان يقرؤُها الناسُ بيُسْر وسهولة، ولأنّ بعضَهم كان يحفظُها عن ظهرِ القلب. وأمّا مصحفُ عثمان فليسَ هناك مَنْ يحفظُه، أو مَن يقرؤُه . وليس فيه نُقَطٌ لتميزِ الحروف. وليس فيه حركاتٌ لتعيين مواقعِ الكلمات واعرابها . وليس فيه حروفُ علّةٍ لتعيين طبيعةِ الكلمة وتميزِ الكلمات المتشابهةِ بعضها عن بعض...

بهذا دخل في مصحف عثمان قراءاتٌ من مصاحفَ سابقة، وتصحيفٌ من قرّاءٍ غير قرشيين أو مضريين أو حتى غير عرب. فكل شيء فيه يدعو الى القلق اذن . وما يزيد القلقَ في صحّةِ قرآنِ عثمان هو انتسابُ مصاحفَ قديمةٍ وخاصةٍ اليه، وذلك بعدَ مقتلهِ الذي أضفى عليهِ المسلمون معنى الاستشهادِ الملكوتي . فبعدَ ان عرف الناسُ عثمانَ ظالِما محتالاً ، عرفوه الآنَ بعد استشهاده، شهيدًا وليّا طاهِرا . وبفضلِ هذا أصبحَ لمصحفه

مكانُ فريد . وأصبحَ كلُ قرآن مجبولٍ بنقطةِ دمٍ من عثمان قرآنًا لا يُقَدّرُ بثمن . وكلُ صاحبِ قرآن، لكي ينفذَ بكتابه الى قلوبِ الناس، نَسَبه الى عثمان . وهكذا أصبحَ مصحفُ عثمان سحرًا أفاضَه عليه الخليفةُ الاموي عبد الملك بن مروان ووزيرُه الحجّاج بن يوسف، كما سترى .

وممّا يزيدُ الامور تعقيدًا اختلافُ أهلِ الاخبار والمحدّثين في عددِ النسخِ التي أرسلَها عثمانُ الى الامصار، فمنهم مَن يجعلُها أربعةً، ومنهم سبعةً، أرسلَ كلَ واحدة منها الى قطر: "الى مكة، والشام، واليمن، والبحرين، والبصرة، والكوفة، وحبسَ بالمدينة واحدة".(١٣)

ثم لماذا لم يعدْ عثمانُ راضيًا بمصحفِ زيد بن ثابت الذي جَمَعَ لأبي بكر وعمر؟ هل من خلافٍ بين مصحفِ زيدِ الاول، وما يجمعُه لعثمان الآن؟ ثمّ لماذا فضّلَ عثمانُ حرفًا واحدًا من الأحرفِ السبعة؟ ومِنَ المسلَّم به انّ اللهَ "أنزلَ القرآنَ على سبعةِ أحرف. فرأى عثمان أن يزيلَ منها ستةً وان يجمعَ الناسَ على حرفٍ واحد، فلم يُخالِفْه أكثرُ الصحابة، حتى قال عليّ: لو كنتُ موضِعَه لفعلتُ كما فعل ... كانوا يقرأون القرآنَ على سبعةِ أحرف، فوقَع بينَهم الشرُّ والخلافُ، وأرادَ عثمانُ أن يختارَ من السبعةِ حرفًا واحِدا هو أفْصَحُهَا، ويُزيلَ الستةَ. وهذا من أصحِ ما قيل فيه لانّه مرويّ عن زيد بن ثابت".(١٤)

لكنّنا نسأل: ما هو الحرفُ الصحيح، بل ما هو "أفصحُ الحروفِ

---

(١٣) السيوطي، الاتقان ١/ ٦٠ .

(١٤) ابو جعفر النحاس، الناسخ والمنسوخ، ص ٣٧، انظر ١٥٩ .

الستة"؟ وأيضا : "ألا يعني اختيارُ "الافصح" منها انّه كانَ في النصوص السبعةِ فصيحٌ وأفصح ؟".[(١٥)] ، والمسلمون يعتقدون بأنّ حروفَ القرآنِ جميعَها هي في مُنتهى البلاغةِ والفصاحة !

خاتمة الفصل

ليست المعجزة احتيالا من الله على نظام الكون وقوانينه، ولا احتيالا من الانسانِ على التاريخ ومعطياته . يستطيعُ اللهُ القادرُ القديرُ على تبديل كل نظامٍ دون أي مكرٍ منه عليه، ويستطيعُ الانسانُ الايمانَ دون ان ينالَ هذا الايمانُ من حقائقِ التاريخ . يعرفُ اللهُ لأيّةِ غايةٍ يتدخّلُ في العالَم، ويعرفُ الانسانُ معنَى المعجزةِ التي تحدثُ مرّةً بعد مرّة .

أمّا الذي لا أعرفه هو ما حدَث في تاريخِ النبوّةِ والقرآنِ من معجزات . فلا أستطيعُ اتّهامَ الله بمَكْرٍ أو بحيلة، رغم انّه، بحسبِ القرآن، "خير الماكرين".[(١٦)] ، ولا اتّهامُ الانسانِ بالايمانِ الاعمى على حسابِ وضوح معطياتِ التاريخ . فالقرآنُ يعترف بكتابٍ سابقٍ عليه، ومحمّدٌ بلّغَ من هذا الكتابِ ما يوافقُ عقليّةَ العربيّ ومجتمعه، ولكنّ المسلمين استحبّوا الدخولَ في عالَمِ المعجزات : معجزةِ الوحي والتنزيل، ومعجزةِ جمعِ القرآن من صدورِ المؤمنين، ومعجزةِ تبريرِ كلِ معجزة آمنوا بها .

فلا الله يعجبه ذلك، ولا الايمان يُسلّم بكل ذلك . فيما المذهولون برَبْطِ الارضِ بعُمُدِ السماء يريدون لنفوسِهم الاطمئنانَ، فكان لهم كلُّ الاطمئنان .

---

(١٥) الاستاذ الحداد، القرآن والكتاب ١/ ٢٤٣ .
(١٦) سورة ٣/ ٥٤، ٨/ ٣٠، انظر ٢٧/ ٥٠، ١٠/ ٢١، ١٣/ ٤٢ ...

الفصل السادس

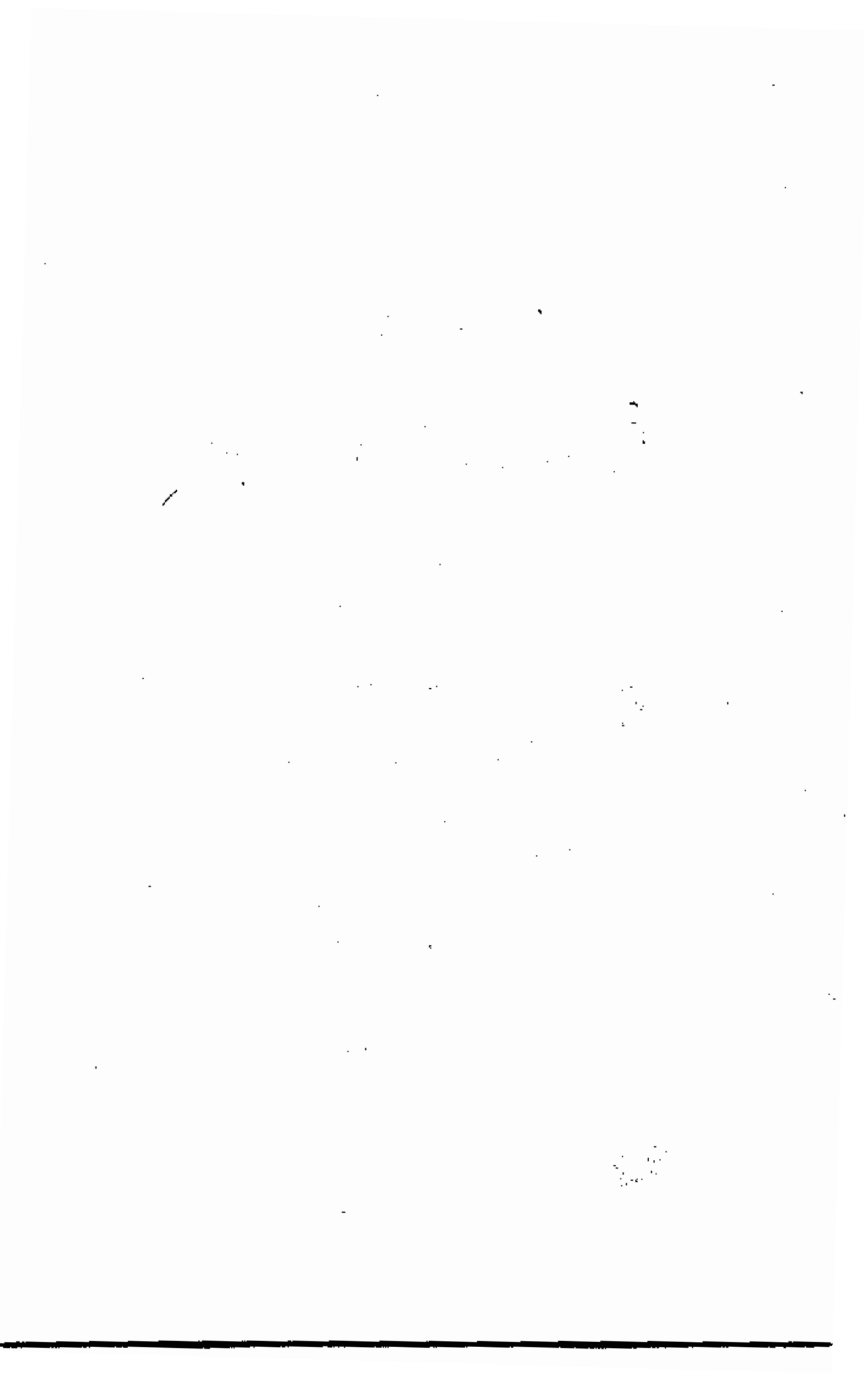
معجزة ضبط القرآن وائتلاف المصاحف

أولاً - الوضع السياسي

ثانياً - وضع المصاحف العثمانية

ثالثاً - ضبط المصاحف العثمانية

رابعاً - رخصة القراءات



مقدمة الفصل

قام من المسلمين مَن قال : انّ "أهلَ العصرِ الأوّل ... كانت كتابتُهم للمصحفِ الشريفِ سقيمةَ الوضعِ ، غيرَ محكمةِ الصنع . فجاءتِ الكَتْبَةُ الأولى مزيجًا من أخطاءَ فاحشةٍ ومتناقضاتٍ متباينةٍ في الرَسْم والهجاء ... (لذلك) وقعَ في كتابةِ المصاحفِ اختلافٌ كبيرٌ في وضع الكلماتِ من حيثُ صناعة الكتابة ورسمها"(١) .

هذا كلامُ الواقعِ والحقيقة، ولكنّ النتيجةَ هي انّ اللهَ لا يُعجزُه حفظ كتابهِ العزيزِ سالماً وسليما من المتناقضاتِ والاخطاءِ والاختلافاتِ والعِوَج ، وهو القائل : "إنّا له لحافظون"، "لا اختلافَ فيه" و "لا عِوَج".

وظلّ اللهُ يقاوِمُ الانحرافاتِ والتبايناتِ التي أصابتْ مصحفَ عثمان حتى جاءَ بالحجّاجِ بن يوسف أشهر "دهاةِ التاريخِ العتاةِ الذين يستبيحون جميعَ المحرّماتِ في سبيلِ مآربهم"(٢) .

لقد قاوَمَ اللهُ حتى الآن ضعفَ النبيّ ووهَنَ ذاكرتِهِ، ومَنَعَ عنه حبائلَ الشيطانِ ودسائِسَه، وحفظَ الصحابةَ من كلِ ميلٍ وهوى، وعصَمَهم بقدرتِهِ العاصمة، ودَفَعَ الخلفاءَ الراشدين لجمعِ شتاتِ المصاحفِ دفعا، وأنارعقلَ عثمان بن عفّان ليختارَ من الحروفِ السبعةِ "أصحّها"، وألهَمَ

---

(١) ابن الخطيب ، الفرقان، ص ٥٧ــ٥٩ .
(٢) دائرة المعارف الاسلامية ٢/ ٢١٦ .

زيدا بن ثابت اختيارَ مصحفِ حفصة من جملةِ مصاحفَ مختلفة، وجعلَ في قلوبِ أصحابِ المصاحفِ فضيلةَ القَبولِ والرضى ، ووقفَ بوجهِ كلِ محاولةِ انشقاقٍ في الدين ... وظلَّ اللهُ يسير بالقرآنِ بنجاحٍ حتى جاءَ بالحجّاج .

جاءَ الحجّاج بن يوسف فارتاحَ الله اليه . وارتاحَ المسلمون . وضُبطَ القرآن . وأُعجِمَتِ الحروف . وشُكِّلَتِ الكلمات . وأُثبِتَتِ القواعد . واستَوتِ الكتابة . ورُكِّزَ الخطُّ والرسْمُ ... كلُ شيءٍ مع الحجّاجِ أصبحَ مُسْتَوِيًا مُسْتَقِيمًا . وكلُ ما يمتُّ الى القرآنِ بصلةٍ ضُبِطَتْ رسومُه وقوانينُه . فلن يعودَ بعدَ الآنِ مجالٌ لأيِّ اختلافٍ في كتابِ اللهِ العزيز . انّ بعضَ الامور، على ما يبدو، لن تستقيمَ بدونِ قوّةٍ وبطشٍ وسلطان . فكانَ الحَجّاج لها .

أمّا كيفَ وصلتْ حالُ القرآن الى الحجّاج فهذا من أمورِ البحث . وكيف تدخّلَ الحجّاجُ ليضبطِ المخالفين؟ فهذا أيضا من عملِ رجالٍ عصاميّين . واللهُ هو مسيّرُ التاريخِ في كلِ حال . وهو لن تستعصيَ عليه حال، ولن يَترُكَ كتابَه لعبةً بأيدي العابثين .

انّ معجزةَ اللهِ التي تمّتْ على يدِ الحجّاج لن تكونَ الاخيرةَ في عالَمِ المعجزات . ولن يسلمَ ما صحّحَه الحجّاجُ ببطشِه وسلطانِه من صعوباتٍ جديدةٍ وتصحيفاتٍ كثيرة . ولهذا تعدّدتْ ، بعدَ عصرِ الحجّاج ، قراءاتُ القرآن، كما تعدّدتْ ، من قَبْلُ، أحرُفُه، ومصاحِفُه . وأكثرُ هذه المفاسد حصلتْ في العراق، وذلك بسببِ وضعٍ سياسيٍّ خطير . فلننظر :

*****

أولاً - الوضع السياسي

انّ وصولَ عبدِ الملك بن مَروان على خلافةِ الأمويين سنة ٦٥هـ/ ٦٨٥ لهـوحـادثٌ في العالَم الاسلامي . ففكرةُ العصرِ الرئيسةُ كانتْ آنذاك دَعْـمَ السلطةِ المركزيةِ للحكمِ الأمويِ، وتوحيدَ قوَى الامبراطوريّةِ الاسلاميةِ الواسعة، وتحطيمُ كلِ مخالفٍ معاندٍ في الداخل . عندئذٍ تكونُ ساعةُ الاصلاحِ مؤاتيةً حيثُ تُصبحُ اللغةُ العربيةُ اللغةَ الرسميةَ للدولةِ الاسلامية، ويصبحُ القرآنُ مُوَحَّدًا مضبوطًا بحرفِهِ ورَسْمِهِ وترتيبِهِ في جميعِ الامصار.

وكانَ لعبدِ الملك شخصيّتانِ بارزتان: عُبيدُ اللهِ بنُ زياد (+ ٦٧هـ) والحجّاجُ بنُ يوسفَ الثقفي (+ ٩٥) . كان الأوّلُ حاكماً على خُرَسانَ وسَجِستان وبلادِ ما بينَ النهرين، و"يُنْسَبُ اليه انّه أمَرَ رجلاً فارسيَ الاصلِ باضافةِ الألِفِ الى ألفَي كلمة حذفتْ منها، فكانَ هذا الكاتِبُ ينسخُ: (قَالَـتْ) بدلاً من (قلْتَ)، و (كَانَتْ) بدلاً من (كُنْتَ)."[1] .

وكان الثاني، الحجّاجُ بن يوسف، وَاليًا على الحجازِ بعدَ قضائه على ثورةِ مصعب بنِ الزبير وأخيهِ عبد الله، ثمّ حـاكمًا على العراقِ المضطربِ بفِتَنِ الخوارجِ والشيعةِ والساخطين، فأخمدَها وأرسلَ الجيوشَ الـتي فتحتْ بُخَارَى وَبَلْخَ والسِنْدَ وعُمانَ وسائِرَ المقاطعاتِ الايرانية.[2] و"كانَ يرى طاعةَ الخليفةِ فرضًا دينيًا، فأدّى به ذلكَ مع كثرةِ الفِتَنِ الى القَسوةِ

(١) ابن أبي داوود، كتاب المصاحف، ص ١١٧، ونولدكه، ص ٢٥٥ .
(٢) لامنس، الانسكلوبيديا الاسلامية، ٢/ ٢١٥ .

في سياستِهِ، فكرِهَهُ الكثيرونَ وألصَقُوا بأسمِهِ القَصَصَ الكريهَة. وكان متعصِّباً للعروبةِ، قَقَسا على الموالي، وأحلَّ اللغةَ العربيةَ محلَّ غيرِها في الدواوين. ولمّا كثرَ الخطأُ في قراءةِ القرآنِ عهدَ الى نصرِ بن عاصم بضبطِهِ[3].

وخلالَ هذه الفِتَن، في الداخلِ والخارجِ، نشَطَ كثيرٌ من القرّاءِ وانقسموا فيما بينهم، بين مناصرٍ للثورة، ومناصرٍ للحجّاج، واختلفوا في نصوصِ القرآنِ وقراءاتِهِ وحروفِهِ وإعرابِهِ ... ومثالُ ذلك مالك بن أنس الذى انتصرَ لقرآنِ ابن مسعود وقرآنِ أُبَيّ بن كعب، وكانَ الاضطهادُ عليه مِن قِبَلِ الحجاج عنيفاً، وكذلك على الذين أحيَوا قرآنَي عليّ بن أبي طالب وأبي موسى الاشعرى.

ومن همّ الحجاجِ في اخمادِ الفِتَنِ ووحدةِ المسلمين انتقلَ الحجّاجُ الى همّ اصلاحِ مصحَفِ عثمان وتوحيدِ الكتاب، لأنَّ توحيدَ الكتابِ يجرُّ حتماً الى توحيدِ صفوفِ المسلمين، وهو الأمرُ الذى قامَ به القَسُّ وَرَقَة بن نَوْفَل والنبيّ محمّد من قَبْل، ومن بعدِهِما عثمانُ بن عفّان، ثمّ الحجّاجُ بن يوسف، وهو على هذا المستوى، لوفرةِ ذكائِهِ وبطشِهِ وتعصّبِهِ.

ولئن كانتِ المهمّةُ صعبةً، وصعبةً جدّاً، في تتبّعِ المصاحفِ العثمانيةِ المنتشرةِ في كلِ مكانٍ بانتشارِ المنشقّينَ وأصحابِ البِدَعِ والفِرَقِ المتعدّدة، فانّ أهونَ الأمورِ كان، عندَ الحجّاج، ضبطَ مصحفِ عثمان واصلاحَه، فتزولُ، بذلك، سائرُ المصاحفِ، وتتوحّدُ الأمّةُ على قراءةٍ واحدة. وليسَ من وسيلةٍ أخرى[4]!

---

(٣) الموسوعة العربية الميسّرة، باشراف محمد شفيق الغربال، مادّة الحجاج بن يوسف، ١ / ٦٩٠.

(٤) انظر الحيوان للجاحظ ٥/ ٦٥، نزهة ٢٠، القالي للامالي ١/ ٨٦.

ثانياً - وضع المصاحف العثمانية

أمّا الحالة التي وصلَ اليها القرآنُ، حتى أيّامِ الحجّاج، فقد كانتْ تدعو الى الفَشَل، فيها "كَثُرَتِ التصحيفاتُ وانتشرتْ في العراق".[١] ووقَعَ في كتابةِ المصاحفِ اختلافٌ كبيرٌ في وضعِ الكلمات".[٢] وقد عبَّر عنها أحدُ المسلمين بـ "تناقضاتٍ واضحةٍ فاضحة".[٣]، وأعطى أمثلةً على ذلك "مِثل تحريفِ صيغةِ التوكيدِ الى صيغةِ النفي: "لا أذبحنّه".[٤]، ومِثل نقصِ الألف وزيادتِها بغيرِ مُوجب: "وعتو"[٥] و"يدعوا حزبه".[٦]، ومِثل زيادةِ أحرفٍ ونقصانِها في بعض الكلمات دونَ بعض: "من نبای المرسلين".[٧]، وسبع سموات... سموت".[٨]، ومِثل رسمِ التاءِ مفتوحة في بعضِ الكلمات دون بعض: "نعمت"[٩] و"نعمة الله".[١٠]، كذلك "سنّت الله".[١١] و"سنّة الله".[١٢]، ومثل ابدالِ السين صادا في بعضِ المواضع: "بسطة"[١٣] و"بصطة".[١٤]، ومثل حذفِ الالف من "قالَ" في بعضِ المواضع واثباتها في بعض[١٥].

(١) وفيات الاعيان، ص ١٢٥ .
(٢) ابن الخطيب، الفرقان، ص ٥٧ .
(٣) نفس المرجع .
(٤) سورة النمل ٢٧/ ٢١ .
(٥) سورة الفرقان ٢٥/ ٢١ .
(٦) سورة فاطر ٣٥/ ٦ .
(٧) سورة الانعام ٦/ ٣٤ .
(٨) سورة فصلت ٤١/ ١٢ .
(٩) سورة البقرة ٢/ ٢٣١ .
(١٠) سورة المائدة ٥/ ٧ .
(١١) سورة فاطر ٣٥/ ٤٣ .
(١٢) سورة الفتح ٤٨/ ٢٣ .
(١٣) سورة النساء ٤/ ٨٢ .
(١٤) سورة الاعراف ٧/ ٦٩ .
(١٥) انظر: ٢٣/ ١١٢ و١١٤، ٢١/ ٥٢ و٥٤ و٥٦ و٦٣ .

"والناظر لهذا الاختلاف ، الذى أوردنا بعضه، يرى ان الرسمَ القديمَ يقلبُ معاني الالفاظ ، ويشوّهها تشويهًا شنيعا ، ويعكسُ معناها بدرجةٍ تُكفّرُ قارئيه وتحرّفُ معانيه . وفضلاً عن هذا فانّ فيه تناقضًا غريبا ، وتنافرًا مُعيبا ، لا يمكنُ تعليلُه، ولا يُستطاع تأويله"(١٦) .

" ولَحْنُ الكتّابِ في المصحفِ العثماني أدّى الى تحريفٍ في الكَلِم المنزَلِ : ذلك رأيُ عائشة في قوله : "ان هذان لساحران"(١٧)، "والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكوة"(١٨) ، "ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون"(١٩) قالت : "هذا مِنْ عَمَلِ الكُتّابِ أخطأوا في الكتاب" .

"ورأي سَعيد بن جُبير قال : "في القرآنِ أربعةُ أحرفٍ لَحْنٍ ... وقد قرأها مستقيمةً بعضُ القراء ، مثل أبي عمرو ويعقوب . وسُئِلَ أبّانُ بن عثمان عن "المقيمين" وما بين يديها وما خلفها رَفْعٌ وهي نصبٌ ؟ قال : "مِنْ قِبَلِ الكاتِب" .

"وكانَ أبنُ عَباس يُبَدِّلُ القراءَةَ المشهورةَ بقراءته : "حتى تستأنِسوا وتسلموا"(٢٠) و "أفلم يتبيّنِ الذينَ آمنوا"(٢١) و "وَصّى ربُّك"(٢٢) بدلاً من "حَتى تستأذِنوا ، أفلم ييأس، وقضى ربّك"، ويقول: "انّما هي مِنْ خَطَأِ الكاتبِ قد كَتَبَهَا وهو نَاعِسٌ" . وكان يَقرأ "مثلُ نورِ المؤمن كمشكاةٍ" بدلاً من "مثل نوره"، ويقولُ هي خطأٌ مِنَ الكاتبِ ، وهو تعالى

(١٦) ابن الخطيب ، الفرقان ٧١ــ٨٢ الفصل كله، عن الحداد ١/ ٢٤٦ .
(١٧) سورة طه ٢٠/ ٦٣ .
(١٨) سورة النساء ٤/ ١٦٢ .
(١٩) سورة المائدة ٥/ ٦٩ .
(٢٠) سورة النور ٢٤/ ٢٧ .
(٢١) سورة الرعد ١٣/ ٣١ .
(٢٢) سورة الأسراء ١٧/ ٢٣ .

أعظم من ان يكون نورُه مثلَ نورِ المشكاة" . وختَم بقوله : "ومما لا شكَّ فيه ان كتّابَ المصاحفِ من البشر يجوزُ عليهم ما يجوزُ على سائرِهم من السَّهْو والغَفْلَةِ والنسيان ، والعصمةُ لله وحدَه . وقد اختلفوا في عصمةِ الانبياء . والقولُ الراجح انهم معصومون فيما يتعلّقُ برسالاتهم فقط ، أمّا ما عداها فشأنُهم كشأنِ بقيّةِ البشر".[٢٣]

هـذه صورةٌ عمّا يُمكِنُ تصوّره . ومَـن أرادَ المزيدَ من هذه الصورة فليرجع ، مثلاً ، الى كتاب "حجّةِ القراءات" للامام أبي زرعة بن زنجلـة ، وفيه أكثر من ٧٠٠ صفحة في تعدّد القراءات والاختلافات فيها[٢٤] .

أمّا السيوطي فيحصرُ أخطاءَ مصحفِ عثمان في "ستةِ قواعد : الحذف ، والزيادة ، والهمز ، والبدل ، والفصل ، والوصل" ، ويعطينا أمثلةً ضافيـةً عن كلِ قاعدة ، يبيّنُ فيها ما في المصحفِ العثماني من كلماتٍ كُتِبَـت بأشكالٍ متعدّدة ، خلافاً لما هو في اللغة العربيّة[٢٥] .

وكذلك الحجاجُ بن يوسف رَفَعَ ، في أثني عَشَر موضِعًا ، كلماتٍ قرأَها الصحابةُ بَدَلَ كلمات ، مثل : "ايمانهما" بدل "أيديهما"[٢٦] ، و "لا تُجزَى نسمةٌ عن نسمة" بدل "لا تُجزى نفسٌ عن نفس"[٢٧] ، و "صَفراء لذّة للشاربين" بدل "بيضاء لذة للشاربين"[٢٨] ، و "ادراس وادراسـين" بدل "الياس والياسين"[٢٩] ، و "جاءت سكرةُ الحقِ بالموتِ" بدل "وجاءت

---

(٢٣) ابن الخطيب م الفرقان ٤١ـ٤٥ الفصل كلّه ، عن الحداد ١ / ٢٤٦ .
(٢٤) حجة القراءات ، للامام ابي زرعة بن زنجلة ، تحقيق سعيد الافغاني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٣ ، سنة ١٩٧٩ .
(٢٥) السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن ٢ / ١٦٦ـ١٧٣ .
(٢٦) سورة المائدة ٥ / ٣٨ .
(٢٧) سورة البقرة ٢ / ٤٨ .
(٢٨) سورة الصافات ٣٧ / ٤٦ .

سكرةُ الموتِ بالحق".[٣٠] ، و"صراطَ مَن أنعمتَ عليهم" بدل "صراط الذين أنعمتَ عليهم".[٣١] ، و"الحيُّ القيّام" بدل "الحيّ القيّوم".[٣٢]، و"للذين يقسمون" بدل "للذين يؤلون".[٣٣] ، و"اركعي واسجدي مع الساجدين" بدل "واسجدي واركعي مع الراكعين".[٣٤] ، و"مثقالُ نملة" بدل "مثقال ذرة".[٣٥] ، و"تزوّدًا وخيرُ الزادِ التقوى" بدل "وتزوّدوا فانَّ خيرَ الزاد التقوى".[٣٦]، وأخيرًا "وشاوِرهم في بعضِ الأمر" بدل "وشاورهم في الأمر".[٣٧] ،

*****

وهكذا ترى ، بعد جمع عثمان للمصاحف وتوحيدها في مصحفٍ واحدٍ ، كيفَ وقعتِ الأخطاءُ والمتناقِضاتُ أحيانًا ، رغم حرصِ المسلمين على سلامةِ النصِّ والحرف. وأنتَ ترى أيضا كيفَ كانتِ الحالُ قبلَ عثمان ولماذا قرّرَ عثمانُ توحيدَ المصاحف ، ولماذا قال : "أَجِدُ فيه (في القرآن) ملاحِنَ وَسَتُصْلِحُها العرب".[٣٨] ، ولماذا تدخّلَ الحجّاج بسلطانِه فتجرّأَ على اتلافِ المصاحفِ العثمانية، حتى لم يبقَ منها الى اليومِ مصحف...

---

(٢٩) سورة الصافات ٣٧/ ١٢٣ .
(٣٠) سورة ق ٥٠/ ١٩ .
(٣١) الفاتحة ١/ ٧ .
(٣٢) سورة آل عمران ٣/ ٢ .
(٣٣) سورة البقرة ٢/
(٣٤) سورة آل عمران ٣/ ٤٣ .
(٣٥) سورة النساء ٤/ ٤٠ .
(٣٦) سورة البقرة ٢/ ١٩٧ .
(٣٧) سورة آل عمران ٣/ ١٥٩ .
(٣٨) ابن ابي داوود ، كتاب المصاحف ، ص ٣٢ .

ثالثاً – ضبط المصاحف العثمانية

بسبب هذا الوضع السيّئ للمصاحفِ العثمانيّة وسوءِ تلاوتها ، تَدَخَّلَ الحَجّاجُ فأصلحَ ما أمكنه اصلاحُه ، وأتلفَ ما أمكنه اتلافُه . ولمسَ الجميعُ مع الحَجّاجِ فسادَ القراءات ، فطلبَ زيادُ بن سميّة والي البصرة من أبي الاسود الدؤلي النحويّ الشهير أن يضعَ طريقةً لاصلاحِ الألْسنة ، وقالَ له : " انّ هذه الحَمْرَاءَ قد كَثُرَتْ وأفْسَدَتْ من ألسنةِ العربِ ، فلو وضعتَ شيئًا يُصْلِحُ به الناسُ كلامَهم ويُعرِبُون به كتابَ الله " .

" فأَبَى أبو الاسود أولاً لبعضِ أسبابٍ كان يراها . فأمرَ زيادُ رجلًا أن يَقْعُدَ في طريقِ أبي الاسود ، فلمّا قاربَه رفعَ صوتَه بالقراءةِ كأنّه يقصُدُ إسماعَ ابي الاسود ، وقرأَ : " انّ اللهَ بريءٌ مِنَ المشركين ورسولِهِ " ، بِكَسْرِ اللام . فأعظمَ ذلك أبو الاسود وقال : " عزَّ وجهُ اللهِ أنْ يبرأَ مِن رسولِهِ " . ثمّ رَجَعَ من حينهِ الى زياد ، وقالَ له : " قد أَجَبْتُكَ الى ما سألْتَ ، ورأيتُ أن أبْدَأَ بإعرابِ القرآن " . فكانَ ذلك [١] .

ولكن ، رغم هذه الرواية ، يختلفُ الناسُ فيمنْ بدأَ بضبطِ المصحف ، أهوَ أبو الاسود الدؤلي أم الحسنُ البصرى أم يحيى بن يعمر ، أم نصرُ بن عاصم الليثي [٢] ؟ اللهُ أعلم . وفي كل حالٍ ، جَرى الاصلاحُ ، وقَامَ على

(١) الزركشي ، البرهان ١ / ٢٥٠ – ٢٥١ ، الزنجاني ، تاريخ القرآن ٨٧ .
(٢) السيوطي ٢ / ١٧١ . انظر في سيرة هؤلاء الرجال : وفيات الاعيان ٢ / ٢٢٦ ، وغاية النهاية ٣٨١ ، وسير النبلاء ٤ / ٢٥١ وغيرها ...

وضع النقط فوق الحروف المتشابهة، والشكل فوق الحروف لتعيين مواقع الكلمات ، ووضع الهمز والتشديد والروم والاشمام، ورسم الخط وحروف العلّة ... وغير ذلك .

ومع هذا بقيَ في القرآن كلماتٌ لم يُجْرَ عليها الاصلاح ، في حين أنّ كلماتٍ أُصلِحَتْ في مكانٍ وَبقيتْ كما هي في مكانٍ آخر . فتجدُ مثلا كافرون وكفرون، وأنهار وانهر، واطيعون واطيعوني ، وسموات وسموت؛ وَيُعَدُّ هذا الشذوذُ بالالاف . لعلّ التصحيحَ توقّفَ في منتصف الطريق ؟ أو لعلّ في القرآنِ لغتَين : حجازية ونجدية؟ أو لعلّ قدسيّةَ الحرف أوقفتْ حماسةَ المصلحين! والمعروفُ عن ابنِ مسعود قولُه : "جرِّدوا القرآنَ ولا تُخلِطوه بشيء" [٣] .

وخشية المسلمين زيادة شيء على القرآن، اعتمدَ المصلحون على استعمالِ الالوان : فكانَ "الحركاتُ والتنوينُ والتشديدُ والسكونُ والمدُّ بالحمرة، والهمزاتُ بالصفرة" [٤] . وأمّا الشكلُ فكان نقطًا : فالفتحةُ نقطة على أوّلِ الحرف ، والضمةُ على آخرِه، والكسرةُ تحت أوّلِه" [٥] . وعندما جاء الخليل (+ ٧٨٦) جعلَ "الفتحَ شكلةً مستطيلةً فوق الحرف ، والكسرَ كذلك تحتَه، والضمَّ واو صُغرى فوقَه، والتنوينَ زيادة مثلها" [٦] .

ومن ناحيةِ السُوَر، لم يكنْ يفصِل بين سورةٍ وسورةٍ إلا فسحةٌ بيضاء أو دائرةٌ مزركشة، دونَ عنوانٍ لها [٧] . ولكن، في المخطوطاتِ الكوفيّة ،

---

(٣) أنظر السيوطي ، ٢/ ١٧١ .
(٤) نفس المرجع
(٥) نفس المرجع
(٦) نفس المرجع
(٧) ابن ابي داوود ، كتاب المصاحف ، ص ١٥٨ .

أصبحَ عنوانُ السورةِ في الدائرة. وهو، كما يبدو، مضافٌ اليها فيما بعد. وقد أخرجَ ابن أبي داوود عن النخعي انّه كانَ يكرَهُ أن يُكتبَ في المصحفِ سورةَ كذا وكذا. وكذلك الحليمي يكرهُ كتابةَ أسماءِ السُوَرِ وعددِ الآياتِ وكتابةَ الاعشارِ والاخماسِ والفَواتِحِ والخواتِمِ(٨) ...

ويبدو أيضا انّ المصاحفَ الحجازية لا تتضمّنُ أرقامَ الآيات، مثل مخطوطِ المكتبةِ الوطنية بباريس رقم ٣٢٨، في حين تتضمّنها أرقام ٣٢٦ و ٣٢٤. وفي البدءِ كان يفصلُ بينَ الآيةِ والآية خطٌ منحرف، وفيما بعد فصلتْ بزخرفةٍ على شكلِ زهرة، وكانتْ غالبَ الاحيانِ مذهّبة. كما كان يوضَعُ بين أوراقِ المصحفِ أوراقٌ من زهرِ الورد، اذ "يُستَحبّ تطييبُ المصحف"(٩).

*****

هذا التجديدُ في المصحف، باضافةِ عناوينِ السورِ وعددِ الآياتِ ووضعِ الحركاتِ والنقطِ وتقسيمِ القرآنِ الى أجزاء وأعشار وأخماس وأحزاب وغير ذلك، كان مدارَ جدالٍ طويلٍ في الاسلام حتى أواخرِ الجيلِ الثالث للهجرة/ بدايةِ الجيلِ العاشر للميلاد. وكان الجدالُ يدور حولَ شرعيّتها، وكانتِ السلطاتُ السياسية تحزمُ بالأمرِ وتجزم. واختلفَ المحدّثون في شرعيّتِها وصوابيتِها، كما هم مختلفون حتى اليوم بشرعيّةِ طباعةِ المصاحف بخطِّ المطابع دونِ الرسْمِ العثماني.

ففي نَظَرِ بعضِهم، كالزرقاني وابنِ المبارك وعبدِ العزيز الدباغ وغيرهم، ان الرسمَ العثماني أمرٌ الهيٌّ وسرٌ ربّاني. وما للصحابة، ولا

---

(٨) السيوطي، الاتقان ٢/ ١٧١. الاعشار والاخماس تقسيم الايات ١٠ و ٥.
(٩) نفس المرجع ٢/ ١٧٢، انظر المحكم، ص ١٥.

لغيرهم في رسم القرآن ولا شعرة واحدة، وانما هو توقيف من النبي ، وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة ... لأسرار لا تهتدي اليها العقول، وهو سر من الاسرار خص الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية . فكما أن نظم القرآن معجز فرسمه أيضا معجز»[١٠] .

وللرسم العثماني في نفس الامام أحمد بن حنبل قدسية لا مجال للشك فيها ، وهو «يحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو أو ألف أو ياء أو غير ذلك»[١١] . وعندما سئل الامام مالك عن امكانية تغيير الرسم العثماني أجاب «لا أرى ذلك . ولكن يكتب على الكتبة الاولى»[١٢]، وقال البيهقي : «من يكتب مصحفا فينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف، ولا يخالفهم فيه، ولا يغير مما كتبوه شيئاً ، فانهم كانوا أكثر علماً وأصدق قلباً ولساناً وأعظم أمانة منا»[١٣] .

أما القاضي أبي بكر الباقلاني فهو يجيز تغيير الرسم العثماني دون خوف على قدسيته . ولكن الزرقاني رد عليه واستشهد في دحض آرائه بجمهرة من العلماء[١٤] .

وفي رأي المسلمين اليوم بعض الشفقة على العامة من الناس الذين «لا يستطيعون أن يقرؤوا القرآن في رسمه القديم ، فيحسن ، بل يجب ، أن يكتب لهم بالاصطلاحات الشائعة في عصرهم» . ولكنهم ، مع هذه الشفقة ، لا يستطيعون التخلص من قدسية الرسم العثماني ، لهذا فهم لا يبيحون الغاءه بهذه السهولة ، «لأن في الغائه تشويهاً لرمز ديني عظيم ، أجتمعت عليه الكلمة ، واعتصمت به الأمة من الشقاق»[١٥] .

(١٠) الزرقاني ، مناهل العرفان ١/ ٣٧٠ .
(١١) السيوطي ، الاتقان ٢/ ١٦٧ .
(١٢) نفس المرجع ، المقنع ١٠ .
(١٣) السيوطي ، ٢/ ١٦٧ .
(١٤) الزرقاني ١/ ٣٧٣ــ٨ ...
(١٥) الصالح ، ص ٢٨٠ .

رابعاً - رخصة القراءات

قضى الحَجّاج ، وفي ظنّه انّ كلَ خلافٍ حولَ المصحف قد حُلّ من جذوره . ولكنَّ الناسَ ، بعد موتهِ ، عادوا الى ما كانوا عليه من خلافات . والخلافُ ، الآن ، يقوم على قراءةِ مصحفِ الحَجّاجِ نفسه ، أى على كيفيّةِ قراءته . وكانَ كلُ قارىء يقرأُ القرآنَ بحسبِ ما نشأ عليه ، لا بحسبِ ما جَرى الاصطلاح فيه أو الاصلاح عليه .

" وتدور هذه الخلافيات على الأغلب في النطاق التالي :

١ - مخارج الحروف ، كالترقيقِ والتفخيمِ والمَيلِ الى المخارج المجاوِرَةِ ، كنطقِ الصراطِ بأمالَةِ الصَاد الى الزاى ،

٢ - والاداء ، كالمدِّ والقصرِ والوقفِ والوصلِ والتسكينِ والأمالَة والأشمام .

٣ - والرسم ، كالتشديدِ والتخفيفِ ، مثل " يُغشَى يُغَشّى " ، و " فُتِحَت و فُتِّحَت " ، والادغام والاظهار ، مثل " تَذَكَّرون وتتذكرون " ، والهمز ومدّ الالف ، مثل " مُلك ومالك " ، و " مَسْجِد ومساجد " ، لتحمّل الرسم النطقين .

٤ - والتنقيط والحركات النحوية ، مثل " يفعلون و تفعلون " ، و " أرجلَكم وأرجلِكم " ، مثلا "[1] .

---

(١) محمد عزّة دروزة ، القرآن المجيد ، ص ١٣٦ .

أمّا الشروط التي حدّد بها المسلمون صحّة القراءة، منعًا لتفاقم الخلاف، فأربعة: التواترُ، وموافقةُ قواعد اللغة العربية، ورسمُ المصحف العثماني، وصحّةُ سَنَدِ القراءة الى أحدِ قرّاءِ الصحابة.

ورأى المسلمون تبريرًا من النبيّ نفسِه لهذه الاختلافات، فقال الامامُ الطحاوي والقاضي الباقلاني وأبو عمر بن عبد البر وغيرُهم من أئمة الكلام: "ان القراءاتِ جميعَها كانتْ رُخْصَةً في أوّلِ الأمر، لتعسّرِ القراءةِ بلغةِ قريش على كثيرٍ من الناس..."(٢)

وقال ابن قتيبة: "ان مِن تيسيرِ الله أنْ أمَرَ نبيّه أن يُقرِئَ كلَّ قوم بلغتهم"(٣). وكذلك هو رأيُ الطبري الذى جوّز لعثمانَ بن عفان جمعَ الناسِ على حرفٍ واحد من الاحرف السبعة، كما رأينا.

ورأى المسلمون أيضا للنبيّ تبريرًا من عندهم فقال ابن قتيبة: "ولو ان كلَّ فريقٍ من هؤلاء أُمِرَ أن يزولَ عن لغتهِ وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئًا وكهلا لاشتدَّ ذلك عليه، وعظمتِ المحنةُ فيه، ولم يمكنْه، الآ بعد رياضةِ النفسِ طويلة، وتذليلِ اللسان، وقطعِ العادة"(٤).

*****

أمّا القراءات فهي تختلف من حيثُ انتماء أصحابها الى العواصم الاسلاميّة الكبرى، كما تختلفُ من حيثُ عددها، فمنهم من قال بسبعِ قراءات، ومنهم بعشر، ومنهم بأربعَ عشرة.

(٢) دروزة، ص ١٣٩، عن ابن الخطيب، الفرقان، ص ١٦٧.
(٣) نفس المرجع.
(٤) تأويل مشكل القرآن، ص ٢٧، النشر في القراءات العشر ١/ ٢١، ابراهيم الابياري، تاريخ القران، ص ١٢٢.

وشيخ القرّاء في المدينة كان " نافع المدني "(+ ١٦٩هـ) ، وفي مكّة "ابن كثير"(+ ١٢٠هـ) ، وفي البصرة " زبان بن العلاء المازني "(+ ١٥٤هـ) ، وفي الشام " ابن عامر الدمشقي "(+ ١١٨هـ) ، وفي الكوفة " عاصم بن أبي النجود "(+ ١٢٧هـ) ، وهكذا الى آخرهم ، كما هو معروف في الكتب. ومن أرادَ معرفتهم بالتفصيل فليقرأ مثلاً كتابَ " حجّة القراءات " للامام أبي زرعة بن زنجلة[٥] ... ومن المعروف ايضا انّه كان لكلِ قارئ تلاميذ ، أخذوا عنه طريقتَه في التلاوةِ والاداءِ والتجويد .

" هذا غير قراءات أخرى لا عدادَ لها سمّيت " شاذّة "، لشذوذها عن اللغة، وعمّا أجمعَ عليه المسلمون ، ولتغييرها للالفاظِ والمعاني في كثير من المواضع . وقد بلغَ من هذه القراءاتِ والاختلافاتِ انّ الآيةَ الواحدةَ، التي لا يَختَلِفُ في النطقِ بها ولا في معناها اثنان، قد يَبلغُ الاختلافُ في روايتِها الى عشرينَ أو ثلاثينَ أو أكثر من ذلك . وقد بلغتْ هذه الطرق تسعماية وثمانين طريقاً للقراءاتِ العشر فقط."[٦] .

******

ولم يقتصرِ الخلافُ في القراءاتِ وحسب ، بل تعدّاها الى معنى الآياتِ وكيفيّةِ فهمِها . ومن هذا القبيل قالوا بـ" المُحْكَم والمُتشابه " في القرآن . وهذا يعتمدُ على ما جاءَ في الكتاب : " هو الذى أنزلَ عليك الكتاب ، منه آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أمُّ الكتاب ، وأُخَرُ مُتَشَابِهَات."[٧] . وقامَ

(٥) انظر : صفحة ٥١ـ٧٣ حيث تجد سيرة كل قارئ مع تلاميذه .
(٦) انظر : الحداد ، القرآن والكتاب ١/ ٢٥١، عن الفرقان لابن الخطيب .
(٧) سورة آل عمران ٣/ ٧ .

من بين المسلمين مَن قال: "ان القرآنَ كلُّه مُحكم، لقوله تعالى: كتابٌ أحكمت آياته" ومَن قال: "كلُّه متشابه، لقولهِ تعالى: كتاباً مُتَشابها مثاني".(٨)

وتحديدُ "المُحكَم" هو "ما عُرِفَ المُرادُ منه"، أو "هو الذي يَدلُّ على معناه بوضوحٍ لا خفاءَ فيه"، أو أيضا "ما لا يَحْتَمِل من التأويل الآ وجهاً واحداً". وتحديدُ "المتشابِه" هو "ما استأثرَ اللهُ بعلمِه، كقيام الساعة وخروجِ الدجّالِ والحروف المقطعة في أوائل السور"، أو "هو الذى يخلو من الدلالةِ الراجحةِ على معناه"، أو أيضا "ما لا يُدْرَك الاّ بالتأويل".(٩)

واختلفَ المسلمون فيمَنْ يعرفُ المتشابه: أهوَ اللهُ وحدَه، من قوله تعالى: "لا يعلمُ تأويلَه الآ الله"، أم يعلمُهُ أيضا "الراسخون في العلم؟" والواقع ان أموراً متشابِهةً يعرفُها اللهُ وحده، وأموراً يعرفُها العلماءُ الذين يعتمدون على الاجتهادِ والتأويل. وما لا يعلمُه العلماءُ مثلاً، علمَ الساعةِ واليومِ الاخير وذاتِ الله وخروجِ الدابّة وعلمَ ما في الارحامِ ومعرفةِ المستقبل وساعةِ الموت(١٠) ... كلّها منوطٌ باللهِ وحدَه.

أمّا ما يمكن للعلماءِ معرفتُه فقد اختلفوا فيه: اختلفوا في صفاتِ الله التي تشبّه ذاتَ اللهِ بالبَشر، كقوله: "الرحمٰن على العرشِ استوى"(١١)، و"يبقى وجهُ ربِّك"(١٢)، و"يدُ اللهِ فوقَ أيديهم"(١٣)، وغيرها. فمنهم

(٨) انظر السيوطي، ٢/٢.
(٩) نفس المرجع.
(١٠) انظر سورة لقمان ٣١/ ٣٤.
(١١) سورة طه ٢٠/ ٥.
(١٢) سورة الرحمن ٥٥/ ٢٧.

مَن آمنَ بها كما هي وفَوّضَ معرفتَها الى اللهِ، كقول الامام مالك عن الاستواء في آية "الرحمن على العرش استوى"، فقال: "الاستواءُ معلوم، والكيفُ مجهول، والسؤالُ عنه بدعة، وأظنُّك رجلَ سوءٍ. أَخرِجوه عنّي".[14]

ومنهم من ذهبَ في تأويلِها حتى يليقُ معناها بذاتِ الله، ففسّروا مثلا "الاستواء" بالعلو المعنوي بالتدبير من غير معاناة،[15] و"الوجه" هو ذات الله[16]، و"اليد" قدرتُه[17]. واختلفَ هؤلاءِ في التأويل بعضُهم ببعض، ونشأَ عن خلافِهم الفِرَقُ في الاسلام، فكانتِ الجُهْمِيَّةُ والجَبريَّةُ والقدريةُ والمعتزلةُ والصفاتية وعلماءُ الكلام وغيرُهم ...

الاّ أنّ مسلمي اليوم يرون في وجودِ المتشابه حكمةً ما بعدها حكمة، فيقولُ الشيخ صبحي الصالح مثلا: "لعلَّ اشتمالَ القرآنِ على المتشابهِ وعدمِ اقتصارِه على المُحْكَم وحدَه، أن يكونَ حافزًا للمؤمنين على الاشتغالِ بالعلومِ الكثيرةِ التي تُقدِّرُهم على فَهْمِ الآياتِ المتشابهات، فيتخلَّصونَ من ظلمةِ التقليدِ، ويقرؤونَ القرآنَ متدبرينَ خاشعين".[18]

******

وقامَ أيضا مِن بين المسلمين من يتعرّضُ للقرآنِ، بعدَ اصلاحه وجمعِه وضبطِه، ويعبّرون عن مواقفِهم بتعابيرَ مثل: التحريفِ والتصحيفِ والتبديلِ والاقحامِ والزيادة والنقصان ... وغيرها. فكان منهم مَنْ قَبِلَ

(١٣) سورة الفتح ٤٨/ ١٠.
(١٤) السيوطي، الاتقان ٢/ ٦.
(١٥) نفس المرجع ٢/ ٧، البرهان ٢/ ٨٠ـ٨٢.
(١٦) نفس المرجع ٢/ ٧، البرهان ٢/ ٨٢.
(١٧) الاتقان ٢/ ٧ و ٨.
(١٨) الشيخ صبحي الصالح، مباحث... ص ٢٨٦، عن البرهان ٢/ ٧٥.

بالقرآن على وجوهه، ومنهم مَنْ رَفَضَ منه كثيرًا من السور والآيات.

فالمعتزلة، التي ترى في اللهِ الصلاحَ المطلق، ترفضُ أن يكونَ في القرآنِ شتائمُ ولعنات، كما هو الحال في عَدَاوة النبيّ محمّد وأبي لهب وامرأته حمّالةِ الحطب، والوليدِ، وأبي جهل، وغيرهم (١٩). فهذه الشتائم لا تليقُ بالوحي بحالٍ من الاحوال، فرفضها المعتزلة، وقالوا بأنّ اضافاتٍ بشريّةً حدثتْ في القرآن (٢٠).

والعَجَارِدَةُ أنكرتْ أن تكونَ سورةُ يوسف من القرآن، وتقولُ بأنّها في حقيقتِها قصّةٌ غراميّةٌ لا تليقُ بالوحي، ولا يُعْقَلُ أن تكونَ من صلبِ القران (٢١). فهي بالتالي اضافةٌ بشريّةٌ على كلامِ الله.

والعُبَادِية يشتكون من عثمان ويتّهمونَه بتصحيفِ القرآن وتحريفِه من أجلِ غاياتٍ سياسيّةٍ معروفة (٢٢). وكذلك بعضُ شيعةِ عليّ وقد كانوا أكثرَ تهجّما على القرآن، واتّهموا عثمانَ بحذفِ كلِ ما يمتّ الى عليّ بنِ أبي طالب بصلة، وأوجدوا لذلك لفظةَ "تبديلٍ في القران" (٢٣).

ربّما يكونُ انتقادُ الفِرَقِ لمصحفِ عثمان واصلاحِ الحَجّاجِ مُغرضًا، لمآربَ سياسيةٍ ومصالحَ شخصيةٍ، ولكنّ النَقْدَ الصحيحَ لا بدّ له أن ينظرَ في الاسس التاريخية التي، بالكشفِ عنها، قد تكونُ جارحةً في حقِ كلامِ الله، ولكن لا بدّ منها لاجلِ حقِ الله:

---

(١٩) Goldziher, Dogme, p. 163.
(٢٠) Nöldeke, Geschichte des Qorans, II, 94.
(٢١) انظر الشهرستاني، الملل والنحل ٩٥، Goldz., Dogme, 162
(٢٢) Massignon, Hallaj, 242 et n° 7.
(٢٣) Nöldeke, G.d.Q. II, 94...

من حقِّ اللهِ أن يسألَ عن تبديلِ الآياتِ الذى جرى في السُّوَر :
فلماذا وُضعتْ آية ٦١ في سورة ٢٤ في الموضع الذى هي فيه، فيما هي في السورة ٤٨ آية ١٧ في مكان آخر؟ ويبدو ان هذه الاخيرة هي الاصح!
ولماذا آية ٤ في سورة ٧٠، وهي بدون نظم ولا قافية، بل لكأنها تفسير للآية السابقة! وكذلك آية ٣٨ في سورة ٤٢ فهي اقحام على النصّ زادها عثمان لتبرير خلافته على حسابِ عليّ (٢٤) . وكذلك ٣/ ١٤٤ فهي أيضا مقحمة، لا محرّفة فقط كما يدّعي "دى ساسي" و"ويل".

ثمّ لئن كانتْ سورةُ "النورين" شيعيّةً لا يُعْتَدُّ بأصالتِها، فإنّ سورتَي "الحَفْد" و"الخَلْع"، الواردتين في مصحَفَي أُبَيّ بن كعب وابن مسعود لا يُظَنّ بزيادتهما، وأصحابُهما من خيرةِ القرّاء من الصحابة! ثمّ أنّ آيةَ الرجم، وقد أكّدَها عمر وحدَه، هل يؤخَذُ بها، والشاهدُ عليها رجلٌ واحدٌ، فيما اتّفقَ المسلمون على اثباتِ الآيةِ من جملةِ شهود! الخ...

******

ألحقيقة ان مصحفَ الحَجاج لم يَسْلَم من التهَمِ والرَفض. فاختلافُ المسلمين فيه خيرُ دليل. وما ايجادُ نظريّاتٍ، مثل "تعدّدِ القراءات"، والتمييز بين "المُحْكَمِ والمتشابِه"، وبين "الناسِخِ والمنسوخ"، ورفضِ بعضِ السُّوَرِ والآيات... الاّ تبريرٌ لِمَا لم يُفلِحْ فيه الحُجاج. ولئن بقي القرآنُ كتابَ ايمانٍ لا يَمَسُّهُ الاّ المطهَرون، فانّه سيظلّ عند المؤرّخين موضوعَ بحثٍ يحقّ لأيّ باحثٍ قلقٍ التثبتَ من أساساتِه.

---

(٢٤) Casanova, Mohammed et la fin du monde, p. 151.

خاتمة الفصل

لنا على اصلاحات الحجّاج بعضُ الملاحظات : لماذا أتلفَ مروان ابنُ عبد الملك مصحفَ حفصة؟ ألِخشيةِ أن يكونَ فيها ما ليسَ في المصحف العثماني ؟ "(٢٥) . ولماذا لم يبقَ بين أيدينا اليومَ أيّةُ نسخةٍ من مصحف عثمان؟ وهذا ما يقوله المسلمون أنفسهم : " ان الباحثَ ليتساءل : أينَ أصبحتِ المصاحفُ العثمانية الآن؟ ولن يُظفرَ بجوابٍ شافٍ على هذا السؤال "(٢٦) .

وهناك روايةٌ تقول " بأنّ المصحفَ المتداول انّما هو مصحفُ الحُجاج وجمعُه وترتيبُه ... وان الحُجاجَ قد جمعَ المصاحفَ المتداولةَ ومصاحفُ عثمان وأبادَها "(٢٧) ، وهي نظريةُ كازانوفا الذى "جعلَ الحُجاج بن يوسف الثقفي أوّلَ جامعٍ للقرآن "(٢٨) . وردَّ الشيخُ صبحي بقوله : " ان كازانوفا لا يتورّعُ عن المجازفةِ بالقاءِ حكمٍ صبيانيٍ لا يوافقُه عليه عاقِلٌ بين الناس "(٢٩) .

لا يعنينا هذا الخلاف كثيراً بقدر ما يعنينا التساؤل : لماذا أتلفَ الحَجاجُ النُسَخَ العثمانية؟ لو كانَ مصحفُ الحَجاج موافِقاً لمصحفِ عثمان لَمَا تجرّأ الحَجاجُ على ذلك . وفي الاتلافِ صعوباتٌ جمّة ، إنْ لجهةِ قدسيّةِ المصاحف ، وإنْ لجهةِ ندرةِ الوَرَقِ و" الرقاع " ، وإنْ لجهةِ انتشارِ المصاحف في البلادِ الاسلامية ... فلو لم يكنْ تَعَادُلٌ بين صعوباتِ الاتلافِ من جهة ، وأهمّيةِ الاسبابِ الداعيةِ الى ذلكَ من جهةٍ ثانية ، لَمَا أقدمَ الحَجاجُ على مثلِ هذا العملِ بحالٍ من الاحوال .

---

(٢٥) انظر بلاشير ، مقدمة القرآن (بالفرنسية) ، ص ٧٠ .
(٢٦) الشيخ صبحي ، مباحث ... ، ص ٨٧ ، دروزة ، القرآن المجيد ، ٨٣ .
(٢٧) محمد عزة دروزة ، القرآن المجيد ، ص ٨٣ .
(٢٨) كازانوفا ، المرجع المذكور (بالفرنسية) ، ص ١٢٧ .
(٢٩) الشيخ صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن ، ص ٨٨ .

هل ائتلافُ الحجاج كانَ بسببِ ضبطِ مصحفِ عثمان وحسب ؟ أي هل كانتْ عمليّةُ الأعرابِ والأعجامِ هي الداعيةُ لهذا الاصلاح فقط ؟ ليسَ الأمرُ كما يبدو! بل هناكَ سببٌ جوهريٌّ، هو اختلافُ المصاحفِ بعضِها عن بعض . والخلافُ كان واضحا جدّا ، بل هو "تناقضاتٌ واضحةٌ فاضحةٌ"(٣٠) .

وهناك أكثرُ من خلافٍ وتناقضات : هناك "آياتُ المائدة ويوسف والزخرف والحديد لم يقرأ بها أحدٌ من القرّاء ، بل القراءةُ المشهورة هي كما غيّرها الحجّاج"(٣١) . ليس الخلافُ اذن وَقْفًا على بعضِ كلمات بل هو أبعدُ من ذلك، هو الآنَ في مجالِ صحّةِ وجودِ بعضِ الآيات وبعضِ السور .

وأخيرا ، كيف صحّحَ الحَجَاجُ مصحفَ عثمان ، واقتضى لتصحيحه ائتلافُه ؟ ثم استبقى فيه غوامضَ لا حَصْرَ لها ؟ هذه الغوامضُ رأى لها المسلمون حلاًّ في القراءاتِ السبع أو العشرِ أو الاربعَ عَشَرة . وهكذا فالأمرُ عَوْدٌ على بَدء : لقد خَلَّصَ عثمانُ من "الاحرفِ السبعة" الى حرفٍ واحد ، وخَلَّصَ الحَجَاجُ من "الحرفِ الواحد" الى اصلاحِه وتنقيحه ، ثمّ هذا التنقيحُ والاصلاحُ أفضيا الى غموضٍ كثير . وهذا الغموضُ الكثير أوجدَ "القراءاتِ" القرآنيةَ المتعددة ، وأوجبَها .

******

(٣٠) ابن الخطيب ، الفرقان ، ص ٧١ .
(٣١) نفس المرجع ، ص ٥٠ـ٥٢ في الحواشي .

يبدو، بعد كل هذا الغموض، ان معجزة القران تكمن، لا في المصحف واعجازه، بل في تقبّل هذا الغموض. انّ التسليمَ بما فعلَه الحَجّاج، ومن قَبْلِه الخليفة مُروانُ بنُ عبد الملك، ومن قَبْلِه عثمانُ وعُمَر وأبو بكر، هو أمرٌ يدخلُ في عالَم المعجزات من بابه الواسع.

قد لا يحتاجُ الله، لاعلانِ رسالتِه وانزالِ وحيِه، الى مثل هذه المعجزة الكلاميّة، بقدرِ ما يحتاجُ الى نفوسٍ تتقبّلُ هذه المعجزةَ الطريفة. واذا ما كانَ الانسانُ بحاجةٍ الى تجسّدِ اللهِ وظهورِه ليتمكّنَ من ايمانِه، فهو لا يقرّرُ الشكلَ الذى به يتجسّدُ الله. في الاسلام اقرارٌ بتجسّدِ اللهِ في كتاب، فكانَ على كثيرٍ من المسلمين أن لا يَقبلوا بهذا النوع من التجسّد. لقد عَظُمَ على الموحّدين الدروز أن يَظهرَ اللهُ في كتابٍ ويتجسّدَ في حروفه، وعَظُمَ على العلويين النُصَيْريين أن يَرَوا اللهَ يَنْسَابُ ظلُّه بينَ حروفِ القرآنِ وكلماته. لهذا أجمعَ الدروزُ على اظهارِ اللهِ في انسانٍ هو "الحاكم بأمر الله"، كما أجمعَ النُصَيريون على اظهارِ المعنويةِ الالهيةِ في "عليّ بن أبي طالب".

ويُخشى على المسلمين السنّيين السَلَفيين أنفسِهم أن لا يكتفوا بمثلِ تجسّدِ اللهِ في كتابٍ من كلماتٍ وحروف، فعوّضوا عن هذا النقصِ الالهيّ في تجسّدِه القرآني بردِّ الاعتبارِ الى حاملِ الرسالةِ والوحي، فرفعوا محمّدًا الى مُقَامٍ يكادُ يكونُ الهيًا، فاعتبروه فوقَ البَشَر، وأقاموا له الذكرى والاحتفالاتِ والاعياد، في الوقتِ الذي قالَ النبيّ عن نفسِه بانّه بشرٌ كسائرِ الناس، وبأنّ الاعيادَ والاحتفالاتِ الطقسيةَ إحياءٌ لمراسِم الوثنيين وعبّادِ الاصنامِ والمشركين.

******

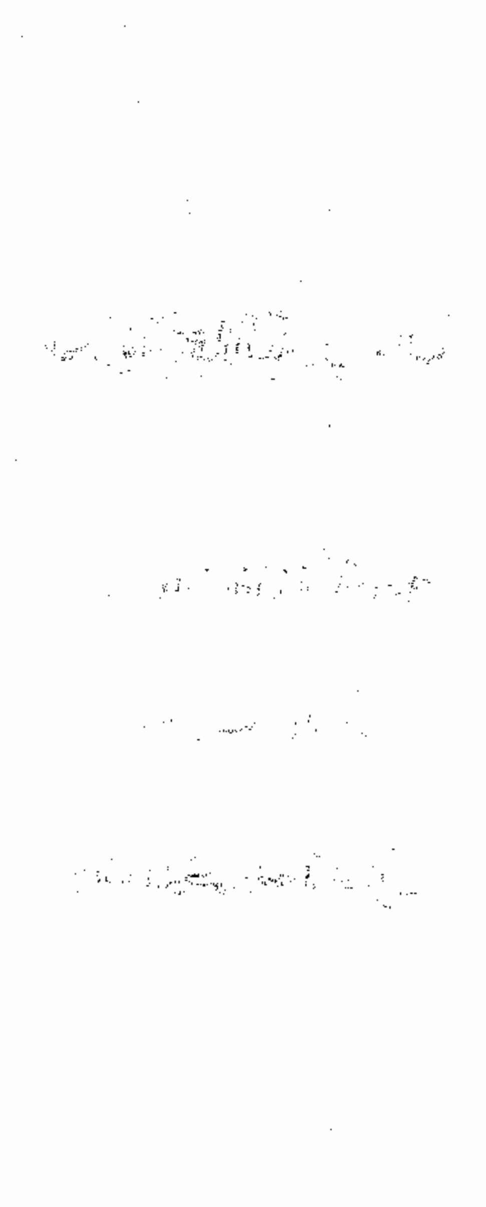
الفصل السابع

معجزة الإعجاز البياني في القرآن

أولاً ـ إعجاز لغة القرآن العربية

ثانياً ـ إعجاز أسلوب القرآن

ثالثاً ـ الحكم للّغة أم للقرآن ؟



مقدمة الفصل

في ايمان المسلمين انّ "المعجزةَ أمرٌ خارقٌ للعادة، مقرونٌ بالتحدّي، سالمٌ عن المعارَضة. وهي امّا حِسّيّة، وامّا عقلية. وأكثرُ معجزاتِ بني اسرائيل كانتْ حسّيّةً، لبَلادَتِهِم، وقلّةِ بصيرتِهِم. وأكثرُ معجزاتِ هذه الأمّةِ عقليةٌ، لِفَرْطِ ذَكائِهِم، وكمالِ أفهامِهِم، ولأنّ هذه الشريعةَ، لمّا كانتْ باقيةً على صفحاتِ الدهرِ الى يومِ القيامة، خُصَّتْ بالمعجزةِ العقليةِ الباقيةِ، ليراها ذَوُو البصائر..

"انّ معجزاتِ الأنبياءِ انقرضتْ بانقراضِ أعصارِهِم، فلم يشاهِدْها الاّ مَنْ حَضَرَها. ومعجزةُ القرآنِ مستمرّةٌ الى يومِ القيامة، وخَرْقُه العادةَ في اسلوبِهِ وبلاغتِهِ وأخبارِهِ بالمغيبات، فلا يمرُّ عصرٌ من الاعصارِ الاّ ويُظهرُ فيه شيءٌ ممّا أخبَرَ بِهِ أنّه سيكونُ يدلّ على صحةِ دعواه".[1]

لقد جاءَ القرآنُ معجزةً في كلِ شيء: في تحدّيه الأنسَ والجنَّ على أن يأتوا بمثلِهِ، أو بمثلِ سورةٍ منه، وفي أسلوبِهِ البليغ، وفي أخبارِهِ عن المستقبل، وعن قَصَصِ الاولين وسائرِ المتقدمين، وعن الضمائرِ من غير أن يَظْهَرَ ذلك منهم بقولٍ أو فعل، وفي ما يحتويهِ من النَظْمِ والتأليفِ والترصيفِ، وفي التأليفِ الخاصِ بكلِ علمٍ بحيث نجدُ فيه كلَّ فنٍ في مرتبتِهِ العُليا في اللفظِ والمعنى، وفي نَظْمِهِ وصحةِ معانيه وتوالي فصاحةِ ألفاظِهِ،

---

(١) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ٢/ ١١٦–١١٧.

وفي علم البيان الذى يُحترزُ به عن الخطأ في تأديةِ المعنى وعن تعقيده ، وفي فصاحته وبلاغته، وفي صَرْفِ الناس عن معارَضته، وفي حُسْنِ تأليفه والتئام كَلِمِهِ وُوُجُوهِ ايجازِه وبلاغتِه الخارقةِ عادةَ العرب ، وصورةِ نُظمه العجيب ، والاسلوبِ الغريبِ المخالفِ لاساليب كلام العرب ، ولم يوجدْ قَبْلَه ولا بَعْدَهُ نظيرٌ له، والاخبارُ بالمغيباتِ، وما أنبأَ به من أخبارِ القرونِ السالفةِ والامم البائدةِ والشرائع الدائرة[٢] .

نشأ علمُ الاعجازِ منذ القدم، ووضعَ فيه المسلمون الكتبَ ، منها ما وصَل الينا ، ومنها ما لم يصل . وقد يكونُ الجاحِظُ (+ ٢٥٥هـ) أوّلَ من وَضَعَ بحثًا فيه، في كتابٍ أسماه "نَظْمُ القرآن". أشارَ اليه في كتابه "الحيوان". ثمّ محمّد بن يزيد الواسطي (+ ٣٠٦هـ) وضعَ كتابًا في "اعجاز القرآن"، لم يصلْ الينا. ثم الرمّاني (+ ٣٨٤هـ) في "الاعجاز"، والقاضي أبو بكر الباقلاني (+ ٤٠٣هـ) في "اعجازِ القرآن"، وعبد القاهر الجرجاني (+ ٤٧١هـ) في "دلائلِ الاعجاز" .

وللمسلمين المعاصرين أيضا أبحاثٌ لا عدَّ لها في هذا العلم ، وأخصّهم السيّد رضى ، والامام الشيخ محمّد عبده، وسيّد قُطب في كتابه "التصوير الفني في القرآن"، والدكتور مصطفى صادق الرافعي في "اعجاز القرآن"... وغيرهم . وقد ركّز هؤلاء ، بالاضافةِ الى ما عُني به الاقدمون ، على سحر اسلوبِ القران وجَرْسِهِ وايقاعِهِ وموسيقاه وفنّهِ التصويري النبيل . كما ركّز غيرُهم على اعجازِ القرآن في العلومِ الحديثة، كالطبِّ والفلكِ، الخ . وسنتوقفُ على معجزةِ الاعجازِ القرآني في جميعِ نواحيها القديمةِ والحديثة .

---

(٢) السيوطي، الاتقان، ٢/ ١١٨–١٢٢، حيث يسرد آراء المحدّثين، أمثال : ابن عطية، والمراكشي ، والاصبهاني ، والامام الرازي، وابي بكر الباقلاني ، والزملكاني ، والنظام، وغيرهم ...

أولاً ـ إعجاز لغة القرآن العربية

في معتقد المسلمين انّ القرآنَ نزلُ بلفظِه وحرفِه ومعناه، أي بلغتِه وأسلوبِه وعلومِه . ولو كنّا نجدُ عندَهم بعضَ الخلافِ في ذلك، فهو من قبيل نُذْلُكَةٍ جُدَلية : فمنهم من يقولُ بانّ اللهَ أنزلَ المعنى على جبريل، وجبريل لقّنَه محمّدًا بلغتِه وأسلوبِه المَلَكِيَّيْن، ومنهم من يقولُ بانّ النبيَّ صاغَ معانيه بلغتِه وأسلوبه المُضَرِيَّين، ومنهم، أخيرا، من يقولُ بانَ اللهُ صاغَه بلغتِه وأسلوبه الربّانيَّين .

وهذا الخلاف، على قِدَمِه، لا يُعْتَدُّ به، لأنّ جميعَ ما في القرآن كلّه من عندِ الله، "كلٌّ من عند ربّنا"[1] ، لا اختلافَ فيه[2] ، ولا عِوَج[3] ، وليسَ لأحدٍ يستطيعُ أن يغيّرَ فيه حرفًا واحدًا، اذ "لا تبديل لكلماتِ الله"[4] و"لا مبدّل لكلماته"[5] ... ولئن استمرَّ الخلافُ والجَدَلُ في ذلك، فليسَ هذا الآن من قبيلِ زرعِ الشكوكِ لدحضِها .

والحقيقةُ هي، كما جاء في القرآنِ نفسه، انّ اللهَ أنزلَه بلسانٍ عربيّ مبين[6] ، أنزلَه على العربِ قرآناً عربياً لعلّهم يتّقون[7] ، وأنزلَه

---

(١) سورة آل عمران ٣/ ٧، انظر: القصص ٢٨/ ٥٣ .
(٢) سورة النساء ٤/ ٨٢ .
(٣) سورة طه ٢٠/ ١٠٧، انظر: ٢٠/ ١٠٨، ١٨/ ١
(٤) سورة يونس ١٠/ ٦٤، انظر: ٢٣/ ٦٢، ٣٥/ ٤٣، ٤٨/ ٢٣ ...
(٥) سورة الأنعام ٦/ ١١٥، الكهف ١٨/ ٢٧، انظر: ٦/ ٣٤ ...
(٦) انظر: ١٦/ ١٠٣، ٢٦/ ١٩٥ .
(٧) ١٢/ ٢، ٣٩/ ٢٨، ٤٢/ ٧، ٤٣/ ٣، ٢٠/ ١١٣ ...

حكْمًا عربيًا [٨] ، ولسانًا عربيًا [٩] . لقد أنزله اللهُ على محمّد بلسانِ قومِه، ليُنذِرَ أمَّ القرى (مكّة) وما حَولها [١٠] ، ويسّرَه بلسانِه ليبشّرُ به المتّقين [١١] .

بسبب ذلك، أثبتَ الامامُ الشافعي وابنُ جرير وأبو عبيدة والقاضي أبو بكر الباقلاني وأبو فارس عدمَ وقوعِ شيءٍ في القرانِ من غير لغةِ العرب. وقد شدّدَ الشافعي النكيرَ على القائلِ بذلك. وقال أبو عبيدة انّما أنزلَ القرآنُ بلسانٍ عربيٍ مبين، فمَن زعمَ انّ فيه غيرَ العربيةِ فقد أعظمَ القول . وقال أبن أوس: لو كانَ فيه من لغةٍ غيرِ العَرَبِ شيءٌ لتوهّمَ متوهّمٌ أنّ العربَ انّما عجزتْ عن الاتيانِ بمثلِه، لانه أتى بلغاتٍ لا يعرفونها [١٢] .

ولئن وقعَ في القرانِ ألفاظٌ من الفارسيةِ والحَبَشيةِ والنَّبطيةِ وغيرها، فانّ ذلك، بحسبِ ابن جرير، من "توارد اللغاتِ، فتكلّمتْ بها العربُ والفرسُ والحبشة بلفظٍ واحد" [١٣] ، وقالَ غيره : "كلُ هذه الالفاظ عربيّةٌ صرفةٌ، ولكن لغةُ العربِ متّسعةٌ جدا" [١٤] ، وقالَ أبو المعالي عزيزي بن عبدِ الملك : "انّما وجدتُ هذه الالفاظُ في لغةِ العربِ لأنّها أوسعُ اللغاتِ وأكثرُها ألفاظا، ويجوز أن يكونوا (العرب) سبقوا الى هذه الالفاظ" [١٥] ، وقال آخرون : "بان الكلماتِ اليسيرةَ غير العربية لا تُخرجه عن كونِه عربيًا" [١٦] .

---

(٨) سورة الرعد ١٣/ ٣٧ .
(٩) سورة الاحقاف ٤٦/ ١٢ .
(١٠) سورة الانعام ٦/ ٩٢، ابراهيم ١٤/ ٤، انظر : ٤٢/ ٧ .
(١١) سورة مريم ١٩/ ٩٧، انظر : الدخان ٤٤/ ٥٨ .
(١٢) السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن ١/ ١٣٥ـ١٣٦ .
(١٣) نفس المرجع ١/ ١٣٦ .
(١٤) نفس المرجع
(١٥) نفس المرجع
(١٦) نفس المرجع.

الاّ أنّ بعضَ المسلمين رأى في القرآن مئاتِ الكلماتِ من غير لغةِ العرب. وقد أخرجَ ابن جرير عن أبي ميسرة التابعي الجليل قال : "في القران من كلِ لسان".(١٧) ، ومثله سَعيد بن جُبير، ووَهب بن منبّه وغيرهم ... وفي رأيهم انّ الحكمةَ من وقوعِ هذه الالفاظِ فيه، " انّه حوى علومَ الاولين والاخرين، ونبأَ كلِ شي. فلا بدّ ان تقعَ فيه الاشارةُ الى أنواعِ اللغاتِ والألسنِ ليتّمَّ احاطتَه بكل شي. فاختيرَ له من كلِ لغةٍ أعذبها وأخفّها وأكثرها استعمالاً للعرب".(١٨) .

وقد صرّحَ ابنُ النقيب بجَوازِ وجودِ الفاظٍ أعجميةٍ في القران، فقال : "من خصائص القرآنِ على سائرِ كتبِ اللهِ المنزّلةِ التي نزلتْ بلغةِ القومِ الذين أنزلتْ عليهم، لم ينزل فيها شي بلغةِ غيرهم، والقرآنُ احتوى على جميع لغاتِ العرب، وأُنزل فيه بلغاتِ غيرهم من الرومِ والفرسِ والحبشة شيء كثير".(١٩) ... فالنبيُّ العربيُّ مرسَلٌ الى العربِ والى كلِ أمّةٍ، وعقيدتُه يجب أن تُبلّغ لجميع الناس، فلا بدّ أن يكونَ في كتابهِ المبعوثِ به من لسانِ كل أمّةٍ، وان كان أصلُه بلغةِ قومِه هو .

******

أمّا السيوطي فلا مانعَ عندَه من أن تكونَ بعضُ الالفاظِ أعجميةً وقعتْ للعربِ فعرّبتها بألسنتِها وحوّلتْها عن ألفاظِ العَجمِ الى ألفاظِها ، فصارتْ عربيةً، ثم نزلَ القرآنُ وقد اختلطتْ هذه الحروفُ بكلامِ العرب . فمن قالَ انها عربيةٌ فهو صادق، ومن قالَ عجميةٌ فصادقٌ أيضا(٢٠) . ثم

---

(١٧) السيوطي، الاتقان ١/ ١٣٦.
(١٨) نفس المرجع .
(١٩) نفس المرجع .

يسرد السيوطي حوالي مائة لفظة واردة في القرآن هي من لغات متعددة، فارسيّة، وهندية، وحبشيّة، وقبطية، ونبطية، وسريانية، وعبرانية، وبربريّة، ويونانية، ورومية ...[21]

أمّا ما جاءَ في القرآن من غير لغة الحجاز المُضَرية فكثير. وقد جاءَ في كلام أبي بكر الواسطي، في كتابه "الارشاد في القراءات العشر" ما يلي: "في القرآن من اللغات خمسون لغة: لغة قريش وهذيل وكنانة وخثعم والخزرج وأشعر ونمير وقيس غيلان وجرهم واليمن وأزد شنوءة وكندة وتميم وحمير ومدين ولخم وسعد العشيرة وحضرموت وسدوس والعمالقة وأنمار وغسان ومذحج وخزاعة وغطفان وسبأ وعمان وبنو حنيفة وثعلب وطيّ وعامر بن صعصعة وأوس ومزينة وثقيف وجذام وبلى وعذرة وهوازن والنمر واليمامة".[22]

وفي السيوطي سيلٌ من الالفاظ العربية غير الحجازية[23]، وكذلك عند ابنَ الجوزى في كتابه "فنون الافنان في القرآن بلغة همدان". وقال ابن عبد البرّ في "التمهيد": "قول من قال نزلَ بلغة قريش معناه عندى الاغلب، لان غيرَ لغة قريش موجودةٌ في جميع القراءات".[24] وقال الشيخ جمالُ الدين بن مالك: "أنزلَ اللهُ القرآنَ بلغة الحجازيين الآ قليلا".[25]

واذا ابتغينا المقارنةَ بين لغة قريش وسائر لغات العرب لطالَ بنا الكلام، ولكن، اثباتا لهذا الموضوع الخطير، لا بدّ من الاشارة الى بعض

---

(٢٠) السيوطي، الاتقان، ١/ ١٣٧.
(٢١) انظر السيوطي، الاتقان، ١/ ١٣٧ــ١٤١.
(٢٢) السيوطي نقلا عن الواسطي، الاتقان، ١/ ١٣٥.
(٢٣) انظر السيوطي، الاتقان ١/ ١٣٣ــ١٣٥ حيث ينقل بعض الالفاظ.
(٢٤) عن السيوطي، الاتقان، ١/ ١٣٥.
(٢٥) نفس المرجع.

الفروقات ، ان من جهة الادغام والفكِ ، وان من جهة اعتماد النصب في المنقَطع ، (أى النصب في الاستثناء بعد الآ) ، وان من جهة الفتح والأمالَة، وان من جهة الهمز وعدمه، أو التقيل والتفخيم، أو الاخفاء والاقلاب ، أو المدّ والقصر... الى غير ذلك(٢٦) .

******

وبالنتيجة، ان القولَ بانّ القران نزلَ بلسانٍ عربيٍ مُبين ، وبلغةٍ عربيةٍ قرشيةٍ صافيةٍ خالصة، هو قولُ جزاف ، يحوم حولَه كثيرٌ من الشبهات . ولئن سلّمنا بما يقوله الواسطي بانّ "كلامَ قريش سهلٌ ليّنٌ واضحٌ ، وكلامُ العرب وحشيٌّ غريب"(٢٧) ، فانّ ذلك يجعلنا نتساءل عن مدى فصاحةِ كلامِ القرآن وبلاغته اللغوية .

ولكثرةِ وجودِ لغاتٍ عربيةٍ عديدة في القران ، راحَ بعضُ المسلمين والمستشرقين يقوّمون لغةَ القران بلغةِ الشعر الجاهلي ، وعلى أساس هذا الشعر نستطيعُ فَهْمَ بعضِ ما في القرآنِ من غرائب اللغة . ومن هنا نتساءل ، مع الحداد : أَنَزَلَ القرآنُ بلغةِ نَجْد أم جُمِعَ بلغةِ نجد ؟ أم قُرِئ بلغةِ نجد على خلافِ المتواتر ؟

واذا نَزَلَ بلغةِ قريش فكيفَ نقرأه بلغةِ نجد ، أو بلغةٍ غير قرشيّة ؟ أَمِنَ الأمانةِ كتابةُ القرآنِ بلغةٍ لم ينزل بها ؟

---

(٢٦) السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن ، انظر الصفحات التالية : ١/ ٨٣ـ٨٩ ، ١/ ٨٩/ ٩٠ ، ١/ ٩١ـ٩٤ ، ١/ ٩٤ـ٩٦ ، ١/ ٩٦ـ ٩٨ ، ١/ ٩٨ـ٩٩ ، ١/ ١٣٥ ...

(٢٧) السيوطي ، نقلا عن "الارشاد" للواسطي ، ١/ ١٣٥ .

أم آلف النبي ، أو آلف الصحابة من بعده بين لغةِ القرآن ولغـةِ الشعر الجاهلي التي كانتْ لغةَ الادبِ والكلامِ الجميل ؟

كلّها أسئلةٌ وشبهاتٌ يحار فيها المؤرّخ الأديب. وقد استنتـج بعضَهم من ذلك شبهةً على صحةِ لغةِ القرآن وعلى صحة اعجازها.(٢٨)

******

في كل حال، انّنا، مع المسلمين المؤمنين، أمام معجزةِ كـلِ حرفٍ من حروفِ القرآن، وكلِ كلمةٍ منه، وكلِ لفظةٍ وتعبير. بل كلُ حرفٍ منقَطع هو آيةٌ في ذاتِه ومعجزة. وما "فواتحُ السُوَر"، الواردةُ فـي سبعٍ وعشرينٌ سورة الاّ دليلٌ قاطعٌ جازِمٌ على معجزةِ اللغةِ القرآنيّــة. وكلُ حرفٍ من هذه الحروفِ المتقطعة، كالـ"ن" في سورة "القلم"، والـ"ق" في سورة "ق"، والـ"حم" في "الاحقاف" و"الجاثية" و"الدخان" و "الزخرف" و"الشورى" و"فصلت" و"غافر"، والـ"ص" في سورة "ص"، و"يس" في سورة "يس"، و"ألم" في "السجدة" و"لقمان" و"الروم" و"العنكبوت"، و"طسم" في "القصص"، و"طس" في "النمل"، و"طسم" في "الشعراء"، و"طه" في "طه"، و"كهيعص" في "مريم"، و"ألر" في الحجر وابراهيم والرعد ويوسف وهود ويونس، و"ألمص" في الاعراف، كلُ حرفٍ من هذهِ الحروف فيـه معجزةٌ، لا يعلَم مرادَه الاّ الله. فكيفَ بنا بسحرِ الحروفِ التي تؤدّي معنىً الهيّاً يعجزُ عن ادراكِه عقلُ كلِ انسان!

****

(٢٨) الاستاذ الحداد، القرآن والكتاب، ٢/ ٢٢٣.

ثانياً - إعجاز أسلوب القرآن

في ايمان المسلمين ان القرآن معجز في بيانه وبديعه، أى في نظمه وتأليفه ورصفه، وفصاحته وبلاغته، وصوره وتعابيره، وايجازه واطنابه، وتشابيهه واستعاراته، وحقيقته ومجازه، وكنايته وتعريضه، وخبره وانشائه، وشعره ونثره، ووزنه وفواصله، وجمله ومفرداته، وسحره وموسيقاه، واختيار حروفه ووجوهه وضمائره، ومقدمه ومؤخره، وعامه وخاصه، ومجمله ومبينه، ونصه وأمثاله، وأقسامه وأجزائه ...

بهذا الاسلوب المعجز في كل شيء " تحدى القرآن فصحاء العرب بمعارضته، وطاولهم في المعارضة، ولكنهم انهزموا أمام تحديه، وأعلنوا عجزهم عن تقليده، لانه يعلو ولا يعلى، وما هو بقول بشر"[١]، و" لا ريب ان العرب المعاصرين للقرآن قد سحروا، قبل كل شيء، بأسلوبه الذى حاولوا أن يعارضوه فما استطاعوا، حتى اذا فهموه أدركوا جماله، ومس قلوبهم بتأثيره"[٢]. وهذا الجانب الفني الخالص كان "كافياً لاثبات فكرة الاعجاز وخلود القرآن بأسلوبه الذي يعلو ولا يعلى ... فما اعجاز هذا الكتاب الكريم الا سحره. ولقد فعل سحره هذا فعله في القلوب"[٣].

---

(١) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٣١٣.
(٢) نفس المرجع، ص ٣٢٠.
(٣) نفس المرجع، ص ٣٢٠-٣٢١.

١ - لقد سُحِرَ المسلمون في معرفة "الوجوه والنظائر"[٤] لمّا وجدوا "الكلمةَ الواحدةَ تنصرفُ الى عشرينَ وجها وأكثر وأقل، ولا يوجد ذلك في كلام البشر"[٥]، ومن أمثلة ذلك "الهُدَى"، فهو يأتي على سبعةَ عَشَرَ وجهًا[٦]، "والسوء"، وهو يأتي على أوجه عديدة[٧] والصلاة والرحمة والفتنة والروح والقضاء والذكر والدعاء .. وغير ذلك[٨].

٢ - وسُحِروا بالقرآن "يستعيرُ" ألفاظَه من عالَمِ الانسان الى عالَمِ الأشياء، فيَجعلُ الصبحَ يتنفّسُ في قوله "والصبحِ اذا تنفّس"[٩]، ويجعلُ القذفَ والدمغَ للحقِ والباطلِ في قوله: "بل نَقذفُ بالحقِ على الباطلِ، فيدمغُه فاذا هو زاهِق"[١٠]، ويَجعلُ لجهنم شخصيةً آدميّة، لها انفعالاتٌ وجدانية، وخَلجاتٌ عاطفية، فهي تَشهَقُ شهيقَ الباكين، وهي تَغضبُ وتثور، وهي ذاتُ نَفْسٍ حادّةِ الشعور[١١] في قوله: "اذا أُلقُوا فيها (في جهنم) سَمعوا لها شهيقًا وهي تَفور، تكادُ تَمَيَّزُ من الغيظ"[١٢].

٣ - وسُحِروا بالقرآنِ ينزع "التشابيهَ" من أمورٍ مختلفةٍ مجموعةٍ بعضها الى بعض، فيقول مثلا: "كَمَثَلِ الحمارِ يَحملُ أسفارًا"[١٣]. وسحر هذا الكلام في القرآن هو في حرمانِ الحمارِ من "الانتفاع بأبلغ نافعٍ مع تحمّل التعبِ في استصحابِه"[١٤]. ويقول أيضا: "انما مَثَلُ الحياةِ الدنيا

(٤) الوجوه اللفظ المشترك الذى يستعمل في عدة معان، والنظائر هي الالفاظ المتواطئة المترادفة التي معناها واحد في مواضع كثيرة، انظر الاتقان، ١/١٤١.
(٥) نفس المرجع.
(٦) نفس المرجع، ١/١٤٢.
(٧) نفس المرجع.
(٨) انظر ذلك في نفس المرجع.

كما أنزلناه من السماء ... لم تغن بالأمس"[(١٥)] ، يقول الشيخ صبحي في سحر هذا القول : "ان فيه عشر جُمَل وقعَ التركيبُ من مجموعها ، بحيث لو سقطَ منها شيءٌ اختلّ التشبيه" و "تمّ لهذا المشهد القرآني من الاعجاز بالالفاظ الجامدة ما لا يتمّ من الابداع بالريشة والألوان"[(١٦)] .

٤ - وسُحِروا بالقرآن يستعملُ "المَجازَ اللغوي" الذى فيه يكونُ اللفظ في غير ما وُضِعَ له ، مثل قوله : "يجعلونَ أصابعَهم في آذانِهم من الصواعقِ حَذَرَ الموت"[(١٧)] ، ويستعملُ "المجازَ العقلي الذى يكون أحدُ طرَفيه حقيقيّاً دونَ الآخر ، مثل قوله : "وأمّه هاويه"[(١٨)] . واعتبر المسلمون انّه "لو سقطَ المجازُ من القرآنِ لسقطَ منه شَطْرُ الحَسَن"[(١٩)] .

---

(٩) سورة التكوير ٨١/ ١٨ . انظر : الشيخ صبحي ، مباحث... ص ٣٢٤ .
(١٠) سورة الانبياء ٢١/ ١٨ . نفس المرجع .
(١١) الشيخ صبحي الصالح ، مباحث... ، ص ٣٢٥ .
(١٢) سورة الملك ٦٧/ ٧-٨ .
(١٣) سورة الجمعة ٦٢/ ٥ .
(١٤) الشيخ صبحي الصالح ، مباحث... ، ص ٣٢٢ ، نقلا عن السيوطي ، الاتقان ٢/ ٤٢-٤٣ . ومن هذا القبيل الآيات : "فاصدع بما تؤمر" (الحجر ٩٤) ، "فوجد فيها جدارا يريد ان ينقض فأقامه" (الكهف ٧٧) ، و "اعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا" (٣/ ١٠٣) ، "وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض" (الكهف ١٠٠) ... الخ .
(١٥) سورة يونس ١٠/ ٢٤ .
(١٦) مباحث في علوم القرآن ، ص ٣٢٢- ٣٢٥ ، نقلا عن السيوطي في الاتقان ٢/ ٤٢-٤٣ . وهو يستفيض في اظهار سحر هذه الآية واعجازها البياني الى درجة انه اعتبر السيوطي وبلغاء المسلمين مقصرين فيما يبينوه في القرآن وفصاحته .
(١٧) سورة البقرة ٢/ ١٩ .
(١٨) سورة القارعة ١٠١/ ٩ : اسم الام "الهاوية" مجاز ، أي كما ان الام كافلة لولدها وملجأ له ، كذلك النار للكافرين كافلة ومأوى ومرجع .
(١٩) انظر السيوطي ، الاتقان ٢/ ٣٦-٤٦ ...

٥ - وسُحِروا بالقرآن يستعملُ "الكنايةَ" لاجل الرمزِ والايماء، قصدَ تحاشي كلامٍ لا يجملُ فيه التصريح. فاذا أرادَ، مثلا، التعبيرَ عن التناسلِ والمعاشَرةِ الزوجية ومضاجعةِ الازواج، استعملَ لفظةَ "الحَرْث" في قوله: "نساؤكم حَرْثٌ لكم، فأتوا حَرْثَكم أنّى شِئتم".[٢٠] ومن هذا القبيل قال أيضا: "هنَّ لِباسٌ لكم وأنتم لِباسٌ لهنّ".[٢١] ويبدو ان "الكناية"، في نظر المسلمين، هي "من أبلغِ الاساليب".[٢٢] ...

ولكن، اذا كان اللهُ يَسْتَعْفِفُ في ذكرِ النساءِ والنِكاح والمضاجَعةِ في هذه الآيات، فلماذا هو يستعمل، في أمكنةٍ أخرى كثيرةٍ، لفظةَ "النِكاح"، مثلا، وهي تعني، عند العرب، لا التزويجَ وحسب، بل "الوطء" غالبا. وبهذا المعنى فسّر الازهري آيةَ "الزاني لا ينكح الآ زانية أو مُشركة، والزانية لا ينكحها الا زانٍ أو مُشرِك"،[٢٣] وقال: "أصلُ النكاح في كلامِ العرب الوطء، وقيل للتزوّجِ نكاح لانه سبب الوطء المباح"،[٢٤] وهو أيضا تفسير الجوهري، وسبيعة، وغيرهم[٢٥] ..

ولماذا لم يتورّع اللهُ من ذكرِ "حبِّ الشهوات من النساء"،[٢٦]، واعتزالِ النساء في المَحيض[٢٧]، ومراودةِ النساء للفتيان[٢٨]، ومسّ النساء[٢٩]، ونكاح ما طاب للرجال منهنّ[٣٠]، وملامستهنّ قبل الصلاة

(٢٠) سورة البقرة ٢/ ٢٢٣.
(٢١) ٢/ ١٨٧، انظر: ٧/ ١٨٩، ٢٣/ ٥، ٣٣/ ٣٥، ٦٦/ ١٢ ...
(٢٢) الشيخ صبحي، مباحث... ص ٣٣٠.
(٢٣) سورة النور ٢٤/ ٣.
(٢٤) لسان العرب، ٢/ ٦٢٥ مادّة: "نكح".
(٢٥) انظر لسان العرب، ٢/ ٦٢٥-٦٢٦. ترد لفظة نكاح ٢٥ مرّة.
(٢٦) سورة آل عمران ٣/ ١٤.
(٢٧) سورة البقرة ٢/ ٢٢٢.

خشية النجاسة، وان لم يكن ماء للتطهير فلا بدّ منه ولو بالتراب[٣١]، وذكر "عورات النساء" واظهارها للطفل[٣٢]، وذكر الذين يأتون الرجال شهوة من دون النساء[٣٣]، ووطء النساء[٣٤]، والرفث اليهنّ[٣٥]، والدخول بهنّ[٣٦]، الخ ... فهل هذه التعابير هي من العفّة في شيء حتى لم يستعمل اللهُ لها بعضَ "الكناية"؟

٦ - وسُحِرَ المسلمون بما في اسلوبِ القرآن من "الايجاز"، وهو جمعُ المعاني الكثيرة بالالفاظِ القليلة. وقد شدّدَ الجاحظُ على هذه المعجزة القرآنية، ويستشهدُ، لأجل حجّتِه، بوصفِ خمرة أهلِ الجنّة: "لا يُصَدَّعونَ عنها ولا يُنزِفون"[٣٧]، ويقول: "هاتان الكلمتان جَمَعَتا جميعَ عيوبِ خمر أهلِ الدنيا". ويدلّ على الايجاز في قول القرآن عن فاكهة الجنّة "لا مَقطوعَةٍ ولا مَمنوعَةٍ"[٣٨]، ويقول: "جَمَعَ بهاتينِ الكلمتين جميعَ تلك المعاني"[٣٩].

٧ - وسُحِرَ الجرجاني ببعضِ الصُوَرِ الجَماليةِ الفنيّةِ في القرآن، ويستشهدُ بقوله: "اشتعلَ الرأسُ شَيْبًا"[٤٠]، ويرى في هذا الكلام كلَّ أنواعِ الاستعارةِ والشمولِ والاسناد، ومن هذا القبيل قوله: "فَجَّرْنا الارض عيونا"[٤١].

---

(٢٨) سورة يوسف ١٢/ ٣٠.
(٢٩) سورة البقرة ٢/ ٢٣٦
(٣٠) سورة النساء ٤/ ٣.
(٣١) سورة النساء ٤/ ٤٣
(٣٢) سورة النور ٢٤/ ٣١.
(٣٣) سورة الاعراف ٧/ ٨١
(٣٤) سورة الفتح ٤٨/ ٢٥
(٣٥) سورة البقرة ٢/ ١٨٧
(٣٦) سورة النساء ٤/ ٢٣.
(٣٧) سورة الواقعة ٥٦/ ١٩.
(٣٨) سورة الواقعة ٥٦/ ٣٣.
(٣٩) عن الرافعي، في تاريخ اداب العرب ٢/ ١٥٢ حاشية.
(٤٠) سورة مريم ١٩/ ٤.
(٤١) سورة القمر ٥٤/ ١٢، انظر: مباحث في علوم القران، ٣١٥.

٨ـ وسُحِرَ الرافعي بموسيقى القرآن في ترتيب حروفه " باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبةً طبيعية في الهمْس والجهر، والشدّة والرخاوة، والتفخيم والترقيق، والتفشي والتكرير"[٤٢] . ويعطينا من القرآن هذا المثل : " ولقد أنذَرَهُم بَطْشَتَنا فَتَمَارَوا بالنُّذُر"[٤٣] ، ويدعونا الى التأمل، ويقول : " تأمل هذا التركيب ، وأَنعِم ثم أَنعِم على تأمّلِه، وتذوّقْ مواقعَ الحروفِ، وأجرِ حركاتِها في حسّ السَّمع ، وتأمّلْ مواضعَ القَلْقَلةِ في دالِ "لَقَدْ"، وفي الطاء من "بَطْشَتَنا"، وهذه الفَتَحات المتوالية فيما وراء الطاء الى واو "تمارَوا" مع الفصلِ بالمدّ كأنّها تثقيلٌ لخفةِ التتابع في الفَتحات اذا هي جَرَتْ على اللسان، ليكونَ ثقلُ الضمّةِ عليه مستخفا بعد، ولتكون هذه الضمّةُ قد أصابتْ موضعَها ، كما تكونُ الاحماضُ في الاطعمة"[٤٤] .

هذه الموسيقى في ألفاظ القرآن وحروفه " لم تُعْرَفْ قط في كلام عربيٍ غيرِ القرآن، وبها انفردَ نظمه وخرجَ ممّا يطيقُه الناس"[٤٥] . " هذا النظم الذى يشبه السحرَ، والذى ألّفَ العربَ على تعاديهم ، وكوّن منهم أمّةً واحدة، تطربُ لِلَحْنٍ واحد ، تجتمعُ عليه قلوبُها في الارض، بينما ترتفعُ به أرواحُها في السماء"[٤٦] .

٩ـ أمّا سيّدُ قطب فسُحِرَ بالتصوير الفنّي الذى " هو الاداةُ المفضّلة في أسلوبِ القرآن" . هذا التصوير " يُعبّرُ بالصورةِ المحسّة

---

(٤٢) الدكتور مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب، ٢/ ٢٢٥ .
(٤٣) سورة القمر ٥٤/ ٣٦ .
(٤٤) الرافعي ، نفس المرجع ، ٢/ ٢٣٩ .
(٤٥) نفس المرجع ، ٢/ ٢٦٠ .
(٤٦) الشيخ صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن، ص ٣١٩ .

المتخيّلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الانساني والطبيعة البشرية. ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة. فاذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، واذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، واذا النموذج الانساني شاخص حي، واذا الطبيعة مجسمة مرئية" الى درجة "ينسى المستمع ان هذا كلام يتلى، ومثل يضرب... وحادث يقع... انها الحياة هنا، وليست حكاية الحياة..." بهذا ندرك "موضع الاعجاز في تعبير القرآن"(٤٧).

١٠ ــ ويتوقف الشيخ صبحي الصالح، للدلالة على معجزة اعجاز القرآن، على ما تعلم في مقالة "الفن والجمال"، فيرى "هذه الموسيقى الداخلية لتنبعث في القرآن، حتى من اللفظة المفردة في كل آية من آياته، فتكاد تستقل ــ بجرسها ونغمها ــ بتصوير لوحة كاملة اللون زاهيا أو شاحبا، وفيها الظل شفيفا أو كثيفا"(٤٨).

ويستدل الشيخ، من جملة آيات، على جمال الحروف القرآنية في مواقعها، فيستهويه "همس السين المكررة" في قول القرآن: "فلا أقسم بالخنس، الجوار الكنس، والليل اذا عسعس، والصبح اذا تنفس"(٤٩)، وتقع في نفسه الرهبة وهو يسمع "صوت الدال المنذرة المتوعدة، مسبوقة بالياء المشبعة في لفظة "تحيد" في قوله: "وجاءت سكرة الموت بالحق: ذلك ما كنت منه تحيد"(٥٠)، ويضرب بالذعر لدى سماعه كلمة "زحزح"

(٤٧) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص ٣٣ ...
(٤٨) مباحث في علوم القرآن، ص ٣٣٤.
(٤٩) سورة التكوير ٨١/ ١٥ــ١٨.
(٥٠) سورة ق ٥٠/ ١٩.

تُصَوِّرُ مشهدَ الابعادِ والتنحية بكلِ ما يقعُ في هذا المشهدِ من أصوات" في قوله : "فَمَنْ زُحزِحَ عن النار وأُدخِلَ الجنّةَ فقد فَازَ".(٥١) ، ويستولي عليه القلقُ وهو يَقرأ هَاءَ السَّكْتِ في سورةِ الحَاقَةِ "ما أغنى عَني مالِيَهْ، هَلَكَ عني سُلطانِيَهْ".(٥٢) ، وَيأخذُه من الغيظِ مثل ما يأخذُ جهنم حين يتسمَّـعُ لفظَ "تَمَيَّزُ من الغَيْظِ".(٥٣) ، وتنقبضُ شفتاه استِقباحًا واستهجَانًا عندما يسمَعُ القرآن يقولُ "وَيُسْقَى (الكافر) من ماءٍ صديدٍ يَتَجَرَّعُهُ".(٥٤) ، ويكاد يكبّ على وجهِهِ ومنِخارِهِ لسماعِهِ "فَكُبْكِبُوا فيها هُم والغاوون".(٥٥) ...الى ما هنالك من ألفاظ وحروف وكلمات تعبّر عن لوحة كاملة(٥٦) .

واذا كان هذا شأن الحروف فكيفَ بكَ بالآياتِ والسُّورِ الكاملةِ التي ، اذا ما قرأها المؤمن ، "يوقظ نَسَقُها الرائعُ قلبَهُ، ويهزّ ايقاعُها العجيبُ مشاعِرُه".(٥٧) . ولئن كان الجنّ سُحِروا بما سمعوا من القرآنِ ، فكيفَ بالعَرَب ! الواقعُ ، بنظرِ الشيخ صبحي ، "ان القرآنَ نسيجٌ واحِدٌ في بلاغتِهِ وسحرِ بيانه ، الاّ أنّه متنوِعٌ تنوّعَ موسيقى الوجودِ في أنغـامِه وألحانه".(٥٨) . و"ان هو الا اسلوبٌ يؤدّي غرضَه كاملاً غيرَ منقوص ، يلينُ أو يشتدّ ، ويهدأ أو يهيج ! ينسابُ انسيابا كالماء اذ يسقي الغراس ، أو يعصفُ عصفا كأنّه صَرْصَرٌ عاتية تبهرُ الأنفاس".(٥٩) .

---

(٥١) سورة آل عمران ٣/ ١٨٥ .
(٥٢) سورة الحاقة ٦٩/ ٢٩ .
(٥٣) سورة الملك ٦٧/ ٨ .
(٥٤) سورة ابراهيم ١٤/ ١٧ .
(٥٥) سورة الشعراء ٢٦/ ٩٤ .
(٥٦) الشيخ صبحي ، مباحث... ، ص ٣٣٥-٣٣٦ .
(٥٧) نفس المرجع ، ص ٣٣٦ .
(٥٨) نفس المرجع ، ص ٣٣٤ .
(٥٩) نفس المرجع ، ص ٣٤٠ .

ثالثاً ـ الحكم للّغة أم للقرآن ؟

اذا كان الأمر كما يقولُ الشيخ صبحي الصالح "انّنا نجعلُ القرآنَ حَكَمًا على قواعدِ اللغة والنَّحْوِ ولا نجعلُ القواعدَ حَكَمًا على القرآن"[1] ، فأنّنا نعجزُ ، ونحنُ بهذا العَجْزِ راضون، عن ابداءِ أيِ رأيٍ في موضوعِ اعجازِ القرآن . واذا كانتِ الأمّةُ العربيةُ بعيدةً بعضها عن بعض، لأسبابٍ سياسيةٍ واقتصاديةٍ وعنصريةٍ وحضاريةٍ، فانها، كما يقولُ الابياري، "قريبةٌ بهذا الكتابِ وحدَه الى لُغَتِها"[2] ، ونحن لا نبغي لهذه الأمّة غيرَ هذا .

ولكن رضانا بهذا العجز لا يجعلنا نرضى كثيرًا بمعجزةِ اعجاز القرآن . لقد ميّز الأقدمون فيه بين "الفصيح والافصح"، وتساءل الشيخُ عزُّ الدين بن عبد السلام : "لِمَ لَمْ يأتِ القرآنُ جميعُه بالأفصح ؟"[3] ، وأجابَه الصدرُ موهوبُ الجزري : "انّه لو جاءَ القرآنُ على ذلك لكانَ على غيرِ النمطِ المُعتادِ في كلامِ العرب"[4] . وفي رأيه ان القرآنَ تحدّى العربَ ، لا في أفصحِه وحسبِه بل في فصيحه أيضا ... ولكن هل هو جوابٌ مقنع ، في الوقتِ الذى نرى فيه القرآنَ يَعرجُ بين المعنى والمبنى ؟ !

---

(١) الشيخ صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٥٨ .
(٢) ابراهيم الابياري، تاريخ القرآن، ص ٤٥ .
(٣) السيوطي ، الاتقان، ٢/ ١٢٣ .
(٤) نفس المرجع .

واذا كنّا لا نستطيع الحكمَ على القرآن من قواعدِ اللغة، أفلا نستطيعُ الحكمَ على القرآن بالقرآنِ نفسه ؟! ألواقعُ انَّ القرآنَ لا يستوي كلُّه في درجةٍ واحدةٍ من الفصاحة والبلاغة. فنحن نجد فيه تراكيبَ غيرَ صحيحة، فبعضُه يضحّي بالمعنى مُراعاةً للفاصلة[٥] ، وبعضُه يتقدّمُ على بعض، وبعضُه يختلف في مرجع الضمائر الى ما تضمرعنه، وبعضه يقيّد بالتخصيصِ ما قد جرى تعميمُه ... وعلى كل ذلك أدلّة :

ا ً- ففي ما تقدّم وتأخر في القرآن من كلماتٍ وآيات ، نسأل: أىّ اعجاز نجدُه في مثل قوله : "أنزلَ على عبدِه الكتابَ ، ولم يَجعلْ له عِوَجًا قَيّما"[٦] ؟ والتركيبُ الصحيح : "أنزلَ على عبدِه الكتاب قَيّما ، ولم يجعلْ له عِوَجًا".

وأىّ اعجاز في قوله : "فقالوا : أَرِنَا اللهَ جَهرةً"[٧] ، والصحيح ، كما قال ابنُ عباس وابنُ جرير : "قالوا جهرةً : أرِنَا الله"، أى : "انّ سؤالَهم كانَ جهرة".

ومن ذلك قوله : "أفرأيتَ مَن اتّخذَ الهَه هواه"[٨] ، والمعنى : "من اتّخذَ هواهُ الهَه"، لانّ من اتّخذَ الهَه هواه فهو غيرُ مذموم.

وقوله : "فضحكتْ فبشّرناها"[٩] ، والصحيح : "فبشّرناها فضحكتْ".

---

(٥) ألفاصلة في القرآن هي قافية الآيات المسجّعة، وهي توازى قافية الشعر. ولكنّ المسلمين ابتغوا لها هذه التسمية ابعادا عن الشعر.
(٦) سورة الكهف ١٨/ ١ .
(٧) سورة النساء ٤/ ١٥٣ .
(٨) سورة الفرقان ٢٥/ ٤٣ .
(٩) سورة هود ١١/ ٧١ .

ومنه قوله : " ولولا كلمةٌ من ربّكَ لكانَ لزامًا وأَجلٌ مسمّى "(١٠) ، والصحيح : " ولولا كلمةٌ وأَجلٌ مسمّى لكان لزاما ... "

ومنه : " يسألونك كأنّك حفيّ عنها "(١١) ، والصحيح : " يسألونك عنها كأنّك حفيّ ".

ومنه قوله : " فلا تعجبْكَ أموالُهم ولا أولادُهم انما يُريد اللـــهُ ليعذبَهم بها في الحياةِ الدنيا "(١٢) ، والصحيح : " لا تعجبُك أموالُهم ولا أولادهم في الحياةِ الدنيا ، انما يريدُ الله ليعذبَهم بها في الآخرة .

ومنه قلبُ المنقول في " طورسينين " ، والاصلُ : سينا ، وفي " ال ياسين " ، والاصل : الياس(١٣) .

الى ما هنالك من أمثلة عديدة في القرآن ، على هذا النمط ، وقد رأى لها المسلمون ألفَ تفسير وتفسير ، اثباتا لمعجزة الاعجاز في الكتاب العزيز(١٤) .

٢ ـ وفي القرآن أيضا شبهةٌ في مرجعِ الضمائر الى أصحابها ، ويحتارُ القارئ في المعنى المقصود في قوله : " اليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَيّبُ ، والعملُ الصالح يَرْفَعُهُ "(١٥) . فالضمير في " يرفعه " امّا يعود الى ما عاد اليه ضمير " اليه " وهو الله ، وامّا يعود الى " العمل " . والمعنى في كلتا

(١٠) سورة طه ٢٠/ ١٢٩ .
(١١) سورة الاعراف ٧/ ١٨٧ .
(١٢) سورة التوبة ٩/ ٥٥ .
(١٣) سورة التين ٩٥/ ٢ ، الصافات ٣٧/ ١٣٠ .
(١٤) انظر السيوطي ، الاتقان ٢/ ١٣ــ١٦ .
(١٥) سورة فاطر ٣٥/ ١٠ .

الحالتين : ان العملَ الصالح هو الذى يرفعُه الكَلِمُ الطيّب ، أو أنّ الكَلِمَ الطيب ، وهو التوحيد ، يرفعُ العملُ الصالح ، لانه لا يصح العمل الا مع الايمان[١٦] .

وفي قوله أيضا : "ان اقذفيه في التابوتِ ، فاقذفيه في اليم"[١٧] . انّ الضمير في "اقذفيه" الثانية يرجعُ الى التابوت ، وفي الاولى يرجع الى موسى . وفي ذلك يقول الزمخشرى : "رجوعُ بعضِها (الضمائر) اليه (الى موسى) وبعضِها الى التابوت فيه هجنة"[١٨] .

وفي قوله : "ولا تستفتِ فيهم منهم أحدًا"[١٩] ، انّ ضميرَ "فيهم" لأصحابِ الكهف ، وضميرَ "منهم" لليهود .

فهل هذا الخلط من الاعجاز في شيء؟ وهل هو جائز في اللغة والمنطق ؟ لئن كان الله أنزلَ القرآنَ بلغةٍ عربيّةٍ خالصة، أفيجوّزُ لنفسِه ما لا يجوز في قوانينِ الكونِ ونظمه ، وهو واضعها !

٣ــ وفي القرآن تبيينٌ لما جاء في مكانٍ آخر، أى انّ فيه كلاما يبيّنه كلامٌ آخر في زمنٍ آخر وآياتٍ أخرى لاحقة . مثل قوله : "وجوهٌ يومئذ ناضرة الى ربّها ناظرة"[٢٠] ، وهو دالّ على جواز الرؤية . ثمّ قال : "لا تدركه الابصار"[٢١] . وغير ذلك كثير[٢٢] .

(١٦) انظر السيوطي ، الاتقان ٢/ ١٩ .
(١٧) سورة طه ٢٠/ ٣٩ .
(١٨) انظر السيوطي ، الاتقان ١/ ١٧٨ ...
(١٩) سورة الكهف ١٨/ ٢٢ .
(٢٠) سورة القيامة ٧٥/ ٢٢ .
(٢١) سورة الانعام ٦/ ١٠٣ .
(٢٢) انظر السيوطي ، الاتقان ٢/ ١٨ــ٢٠ .

٤ ـ وفي قراءة القرآن تستوقفنا غراباتٌ كثيرةٌ، منها : لماذا جاءت لفظةُ "أَحَدٌ" في صيغةِ النكرة، "والصَمَدُ" في صيغة التعريف ، في قوله : "هو الله أحد ، الله الصمد".(٢٣) ؟

ولماذا جاءت لفظةُ "خالِصَة" مؤنثة، و"محرّم" مذكّرة، في قوله : "ما في بطونِ هذه الأنعام خالِصة لذكورنا ومحرّم على أزواجنا".(٢٤) ، ورأى لها المفسّرون حجّة ، وهي انّ "محرّم" ترجع الى "ما"، و"خالصة" ترجع الى "الانعام". فهل هذا معقول ؟

ولماذا أجاز القرآنُ التأنيثَ في مكانٍ، ولم يجزه في مكان آخر، في مثل قوله : "أعجازُ نَخْلٍ خَاوية".(٢٥) و"اعجاز نخل مُنْقَعِر".(٢٦) ، وفي "انّ البقَرَ تشَابَه علينا".(٢٧) وحجّة التذكير عند المفسرين مقصود "جنسُه تشابَه علينا".(٢٨) ، وفي قوله "السماءُ منفطِر".(٢٩) وفي مكان "اذا انفطرتِ السماء".(٣٠) ، وفي قوله "جاءتها ريحٌ عاصف".(٣١) ، وفي مكانٍ "ولسليمانَ الريحُ عاصفةً".(٣٢) . الى غير ذلك.

٥ ـ ثمّ ايهما أصحّ في الاعجاز ؟ قوله : "ادخلوا البابَ سُجَّدًا وقولوا : حِطّةٌ".(٣٣) ، أم قوله : "قولوا حطّة، وادخلوا الباب سُجّدا".(٣٤) ؟

---

(٢٣) سورة الاخلاص ١١٢/ ٢ .
(٢٤) سورة الانعام ٦/ ١٣٩ .
(٢٥) سورة الحاقة ٦٩/ ٧ .
(٢٦) سورة القمر ٥٤/ ٢٠ .
(٢٧) سورة البقرة ٢/ ٧٠ .
(٢٨) تفسير الجلالين على ٢/ ٧٠ .
(٢٩) سورة المزمل ٧٣/ ١٨ .
(٣٠) سورة الانفطار ٨٢/ ١ .
(٣١) سورة يونس ١٠/ ٢٢ .
(٣٢) سورة الانبياء ٢١/ ٨١ .
(٣٣) سورة البقرة ٢/ ٥٨ .
(٣٤) سورة الاعراف ٧/ ١٦١ .

وقوله : "ما أُهِلَّ بهِ لغير الله"[٣٥] ؟ أم قوله : "ما أُهِلَّ لغيرِ اللهِ بـه"[٣٦] ؟ وقوله: "يكونَ الدينُ لله"[٣٧] ؟ أم قوله : "يكونُ الديـنُ كلّه لله"[٣٨] ؟ وقوله : "ولن تمسّنا النارُ الاّ أياماً معدودة"[٣٩] ؟ أم قوله: "أيّاما معدودات"[٤٠] ؟ وقوله : "ان هدى الله هو هدى"[٤١] ؟ أم قوله : "ان الهدى هدى الله"[٤٢] ؟ وقوله : "قولوا : آمنا بالله وما أنزِلَ الينا"[٤٣] ؟ أم قوله : "...وما أنزل علينا"[٤٤] ؟ وقوله : "ولا تقتلوا أولادَكم من املاق"[٤٥] ؟ أم قوله : "خشيةَ املاق"[٤٦] ؟

ولئن كان هذا التفاوت جائزا في القرآن، فأيّهما في اللغة أفصح من الآخر ؟ ولئن كان في القرآن أفصح وفصيح ، فَـ لِمَ لَمْ يأتِ القـرآنُ جميعُه بالأفصح ؟"[٤٧] .

٦ـ واذا أردنا العودةَ الى نظريةِ "المحكم والمتشابه" في القرآن، فلا بدّ لنا من التساؤل : ما هي الحكمةُ في وجود المتشابه ؟ "فان كـان ممّا يُمكِنُ علمُه، فله فوائد، منها الحثّ للعلماء على النظر. وان كان ممّا لا يمكن علمه، فله فوائد، منها ابـتلاء العباد بالوقوف عنده"[٤٨] .

ولكن كيف ينسجم "ابتلاءُ العباد" مع عقيدة الاعجاز ؟ واذا كان المتشابه ـ ومعظم القرآن عليه ـ للخاصّة دون العامّة، فكيف يخاطـب

---

(٣٥) سورة البقرة ٢/ ١٧٣ .
(٣٦) ٥/ ٣، ٦/ ١٤٥، ١٦/ ١١٥ .
(٣٧) سورة البقرة ٢/ ١٩٣ .
(٣٨) سورة الانفال ٨/ ٣٩ .
(٣٩) سورة البقرة ٢/ ٨٠ .
(٤٠) ٣/ ٢٤، ٢/ ١٨٤، ٢٠٣ .
(٤١) سورة البقرة ٢/ ١٢٠ .
(٤٢) سورة آل عمران ٣/ ٧٣ .
(٤٣) سورة البقرة ٢/ ١٣٦ .
(٤٤) سورة آل عمران ٣/ ٨٤ .
(٤٥) سورة الانعام ٦/ ١٥١ .
(٤٦) سورة الاسراء ١٧/ ٣١ .
(٤٧) السيوطي، ٢/ ١٢٣ .
(٤٨) السيوطي، ٢/ ١٢ .

الله العامّة ؟ وكيف تعمل العامّة لتستفيد من كلام الله العزيز ؟ انهما شبهة أخرى تطعن بأهداف الوحي والنبوّة . وقد لا يكون القرآن كذلك ، بل كذلك أراده المسلمون .

٧ـ وإذا أردنا العودة الى "الناسخ والمنسوخ" في القرآن ، فلا بدّ لنا من القول بانّ القرآنَ انفرد ، دون سائر الكتب المنزلة ، بهذه النظرية الخطيرة . ولم يكن النسخ ـ بحسب معناه ـ ابدالَ آيةٍ بآية فحسب ، بل هناك نَسْخٌ بطريقةِ النسيان بدون ابدال . ولهذا كان النبيّ يصلّي : "اللهم ارحمني بالقرآن ، اللهم ذكّرني منه ما نسيت ، وعلّمني ما جهلت"(٤٩) .

وأخرج الطبراني عن ابن عمر انّ النبي أقرأ رجلين سورة ، فكانا يقرآن بها ، فقاما ذاتَ ليلة يصلّيان ، فلم يقدرا منها على حرف ، فأصبحا غاديين على رسولِ الله ، فذكراله ذلك ، فقال : "انّهما مِمّا نُسِخَ ـ أي رُفِعَ ـ فألْهُوا عنها" . وكذلك روى عن أبي موسى الاشعرى : "نزلتْ سورةٌ نحو براءة ، ثم رُفِعَتْ" . وروى البخارى عن أنس انّه أنزل في قصة أصحاب بئر معونة قرآن قرأناه ، ثم رُفِعَ"(٥٠) .

ويسجّلُ هذا النسخ في القرآنِ أقوالٌ كثيرةٌ من المحدّثين ، نذكر بعضها : روى عن عمر قوله : "لا يقولن أحدكم أخذتُ القرآنَ كلّه . وما يدريه ما كلّه ! فقد ذَهَبَ منه قرآنٌ كثير"(٥١) ؛ وعن عبد الرحمن بن عوف قال عن آية في الجهاد : "أسقِطَتْ في ما أُسقِطَ من القرآن"(٥٢) ؛ وعن

---

(٤٩) عن دروزة ، القرآن ، ص١٧ .
(٥٠) الاتقان ، ٢/ ٢٥ .
(٥١) السيوطي ، الاتقان ٢/ ٢٥ .
(٥٢) نفس المرجع .

عائشة قالت عن آية "انما كانت قبل أن يغيّر عثمانُ المصاحف"(٥٣) .

ونحن نسأل : هل من الاعجاز في شيء أن يذهبَ "كثير من القرآن"؟ وأن يُرفَعَ منه الكثير ؟ وأن يُنسَخَ أو يُنسَى منه الكثير ؟ هل يصحُّ النسخُ في كتاب الله المنزَل ؟ وهل يَبقى القرآن، مع هذا النسخ ، معجزةً في اعجازه؟ أين هو الاعجاز في كل ذلك ؟ وأي اعجاز هو أن نجدَ الناسخَ ، في بعض السور، يتقدّمُ على المنسوخ ؟ كما هو الحالُ في آية البقرة ٢/ ٢٣٤ التي تَنسَخُ ما بعدها ٢/ ٢٤٠، وآية الاحزاب ٣٣/ ٥٠ ألتي تنسخُ ما بعدها ٣٣/ ٥٣ ؟

٨ — ومنْ غريب القرآن في اعجازه أن تَرى المَعاني تختلِطُ علينا لاجل "مراعاة الفاصلة"، أي القافية، وأن ترى اللغةَ تُحَرَّفُ مُخالِفةً للاصول لاجل "مراعاة الرَويّ والإيقاع". والامثالُ على ذلك عديدة :

لماذا يقدِّم القرآنُ ما هو متأخِرٌ في الزمان، نحو "فللهِ الآخِرة والأولى"(٥٤) ؟ ولولا مراعاة الفاصلة لقدّم "الأُولى" كقوله في مكانٍ آخر: "له الحمدُ في الاولى والآخرة"(٥٥) ؛ ونحو تقديم هارون على موسى في قوله : "بربّ هارون وموسى"(٥٦) ؛ ونحو تقديم الضمير على ما يفسّره في قوله : "فأوجسَ في نفسه خِيفَةً موسى"(٥٧) ، والأصلُ تقديمُ الفاعلِ موسى ؛ ونحو حذف ياء الفعلِ غيرِ المجزوم في قوله : "والليلِ اذا يَسْرِ"(٥٨) ؛ ونحو حذف ياء الأضافة في قوله : "فكيفَ كان عذابي ونُذرِ"(٥٤/٣٠) فكيف كان عقابِ"(٤٠/٥)(٥٩) ؛ ونحو صرفِ الممنوعِ من الصرْفِ في قولهِ : "قَوَاريرًا

(٥٣) الاتقان، ٢/ ٢٥ .
(٥٤) سورة النجم ٥٣/ ٢٥ .
(٥٥) سورة القصص ٢٨/ ٧٠ .
(٥٦) سورة طه ٢٠/ ٧٠ .
(٥٧) سورة طه ٢٠/ ٦٧ .
(٥٨) سورة الفجر ٨٩/ ٤ .

قواريرًا".(٦٠)

ولماذا يستغني القرآنُ بالمفردِ عن الجمع في قوله : " واجعلنا للمتّقينَ إِمَامًا".(٦١) ؟ والأصل " أئمّة"، كما في قوله : " وجعلناهم أئمّةً يهدون".(٦٢) ، وفي قوله : " انّ المتّقين في جنّاتٍ ونَهْرٍ".(٦٣) ، والاصل " وأنهَار"، وقد جعلها مفردة مراعاة للفاصلة.

ولماذا يستغني بالمثنّى عن المفرد في مثل قوله : " ولمن خافَ مُقامَ ربّه جنّتان".(٦٤) ، والأصل، كما قال الفرّاء، " جنّة". ولماذا أيضا يستغني بالمثنى عن الجمع في قوله : " ومن دونهما جنّتان".(٦٥) ، والاصل جنّات ؟ ألظاهر ان القرآن استعمل المثنّى مكان المفرد "مراعاة للفاصلة"، ومكان الجمع "مراعاة للفظ".

ثمّ أيضا لماذا الاستغناء بالجمع عن المفرد في قوله : " لا بَيْعٌ فيه ولا خلال".(٦٦) ، والأصل : خلّة، كما في قوله في مكان آخر: " لا بيع فيه ولا خلّة".(٦٧) ؟

ومن غرائب القرآن أيضا : وقوعُ مفعولٍ موقعَ فاعلٍ في قوله : "حجابًا مستورا".(٦٨) والأصل: ساتِرًا، وفي قوله : " وكان وعدُه مَأْتِيًّا".(٦٩) ، والأصل: آتيًا. ووقُوعُ فاعلٍ موقعَ مفعولٍ في قوله : " عِيشةٌ راضية".(٧٠) ، والأصل : مرضِيّة، وفي قوله : "ماءٌ دافق".(٧١) ، والأصل: " مدفوق" !

(٦٠) سورة الانسان ٧٦/ ١٥.
(٦١) سورة الفرقان ٢٥/ ٧٤.
(٦٢) سورة الانبياء ٢١/ ٧٣.
(٦٣) سورة القمر ٥٤/ ٥٤.
(٦٤) سورة الرحمن ٥٥/ ٤٦.
(٦٥) سورة الرحمن ٥٥/ ٦٢.
(٦٦) سورة ابراهيم ١٤/ ٣١.
(٦٧) سورة البقرة ٢/ ٢٥٤.
(٦٨) سورة الاسراء ١٧/ ٤٥.
(٦٩) سورة مريم ١٩/ ٦١.
(٧٠) سورة الحاقة ٦٩/ ٢١.
(٧١) سورة الطارق ٨٦/ ٦.

ومن غرائبه أيضا : ايقاعُ حرفٍ مكان غيره في قوله : " بأنَّ ربَّـك أوحَى لها ".(٧٢) بدل " أليها "، وحذف الفاعل ؤانبه في قوله: " وما لاحدٍ عنده من نعمة تُجزَى ".(٧٣) والأصل: " يُجزَى عليها "، واستعمالُ صيغةِ المستقبل بدل صيغة الماضي في قوله : " فريقًا كَذَّبتُم وفريقًا تَقتلون ".(٧٤) والاصـل: " قَتلتم "، وتغييرُ بنيةِ الكلمة في قوله : " طورسينين " و " ال ياسين "، بـدل طور سيناء، والياس، كمّا مرّ معنا .

******

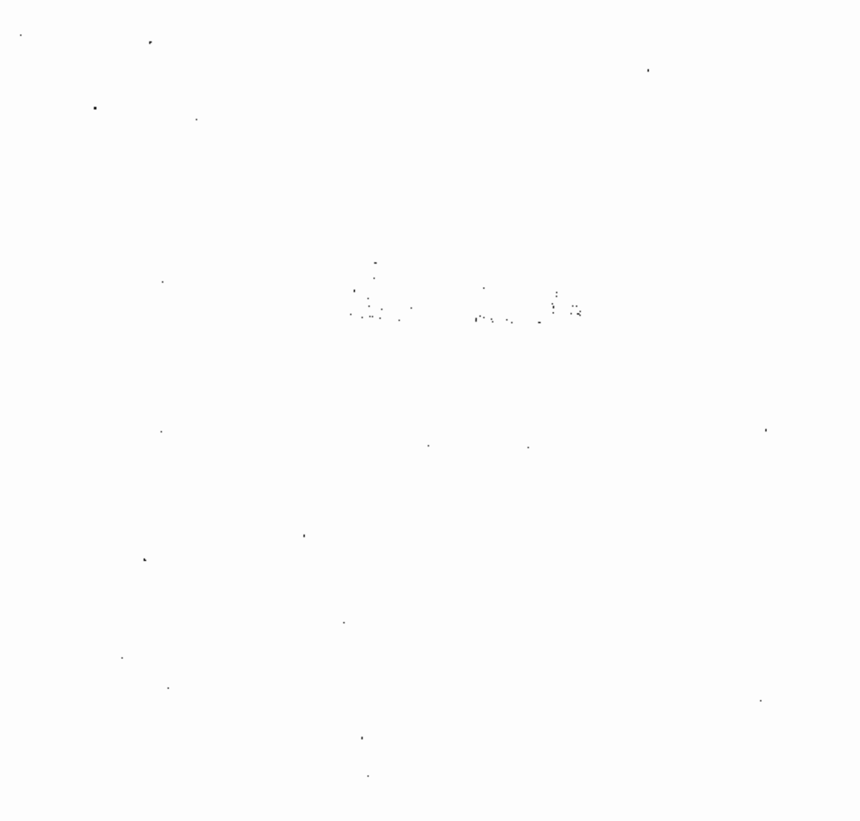
كل هذه الغرائب البيانية في القرآن كانت من أجل مراعاة الفواصل، واحتراما للرويّ والايقاع، وتقديرا لرهافة حسّ السامعين الفصحاء، وتحدّيا للشعراء والكهّان، وتخطّيا لأصول المنطق وصحّة المعاني ... أهذه من عجائب القرآن، كما يقولون : " ان القرآنَ العظيم لا تنقضي عجائبه ".(٧٥) ؟ أم هي تعجيز لعقولنا التي ابتليت بالقرآن، كما يقولون : انّها " ابتلاء للعباد ".(٧٦) ؟

ولئن سلّمنا، مع الدكتور الشيخ صبحي الصالح، بأنّ القرآن هـو الحَكَمُ على اللغة وقواعدها لا العكس، فهل نسلّم أيضا بنظرية الفصيح والأفصح في القرآن؟ وان كان الأمر كذلك فأين أصبحَ اللسانُ العربيّ المبين؟ وكيف نفهم قولَ الله : " قرآنا عربيا غير ذى عِوَجٍ ".(٧٧) ؟ وهـل نقول مع النبيّ : " الحمدُ لله الذى أنزلَ على عبده الكتابَ ولم يجعل لـه عِوَجًا ".(٧٨) ؟

---

(٧٢) سورة الزلزلة ٩٩/ ٥ .
(٧٣) سورة الليل ٩٢/ ١٩ .
(٧٤) سورة البقرة ٢/ ٨٧ .
(٧٥) الاتقان ٢/ ١٠٣ .
(٧٦) الاتقان ٢/ ١٢ .
(٧٧) الزمر ٣٩/ ٢٨ .
(٧٨) الكهف ١٨/ ١ .

الخَاتِمَة



في يقيني ان كرامةَ الله تَسلم بكرامةِ الانسان، ومجدَ الله العظيم يكبر عندما يُصانُ الانسانُ في حرّيته وشأنه. وبـ"الجهادِ" لأجلِ الانسان يَحظى اللهُ بـ"الجهادِ في سبيله". وبتعبيرٍ انسانيٍ نبيلٍ أقول: هو الانسانُ الذى يحتاجُ الى عَطفِ المسلمين ومحبّتِهم قبلَ الاهتمامِ بالله وأنبيائه. ان السعيَ الى الله ينالُ قدسيّتَه بعدَ السعي نحوَ الانسان. وان محبّةَ الانسان تسمو، بما لا يحدّ، على محبةِ القرابين والكتاب المنزل والقوانين الصارمة...

ومن كرامةِ الانسانِ أن يتناولَ الباحثونَ عن الحقيقةِ بشيءٍ من التواضعِ أمامَ رحابةِ العلمِ وغموضِ وثائقِ التاريخ، فلا يقولنّ أحدُهم، كما يقولُ الشيخ الدكتور: "انّي أدعو العلماءَ في مختلفِ العالَمِ الاسلامي الى قراءةِ هذا البحثِ خاصّةً بامعانٍ شديد"[(١)]. وكما يحكُم بنفسِه على قيمةِ بحثِه بقولِه: "وأجدَى ما في هذا الكتاب انّه قد يُغني، في كلِ بحثٍ طَرَقَه، عن عشراتِ الكتبِ في بابِه، ولكنّها مجتمعةً لن تُغنيَ عنه أبدا"[(٢)].

فأيّ علمٍ نستطيعُ أن نأخذَه من شيخٍ ملآنٍ من ذاته! وأيّ بحثٍ علميّ يصدُرعن مِثلِ شيخٍ يقول: "لذلك كرَرْنا على شُبُهَاتِهم (أى شبهات العلماء) جميعًا، نَنقضُها نَقضًا، ونردّها الى صدورهم سهامًا

(١) الدكتور الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٧
(٢) المرجع نفسه، في صفحة الغلاف الاخير للكتاب.

قائلات»(٣) . أهوَ علمٌ أم مهاترة بحقِ كرامةِ الانسان! أهوَ بحثٌ تاريخيٌ أم «العقلُ في تابوت. يحملُ سبحةً. في منخاريه قطن»(٤) ؟ الحقيقــةُ، أنّ «القطنَ الذى في منخاريّ العقل» صورةٌ مزعجةٌ، نتنةٌ، قبيحة، ولـن أخشى أن يكونَ مصوّرُها على حقٍ، بل أخشى، بعد قراءةِ الدكتــور، أن يكونَ الحقّ والعقلُ في الصورةِ ايّاها!

ومن كرامةِ الاسلام والقرآنِ نفسيهما ألاّ يقالَ فيهما انّ «لدينــا النظامَ الكاملَ الصالحَ لعمارةِ الكونِ وتنظيمِ الحياةِ البشريّة»(٥)، وألاّ يقال بمثلِ هذا الهَوَس: «يُوجَد فيه (في الاسلام) نظامٌ حياتيٌ كامل، لا يَتركُ مجالا لأيِ نظامٍ آخر، ولا يَدَعُ منفذاً للشعورِ بالحاجةِ الى تنظيمِ جانبٍ من جوانبِ الحياة، لأنّ الشريعةَ الاسلاميةَ بقواعدِها الكلّيةِ العامّة، وبالفقهِ الذى بُني على أصليها الكبيرين (الكتاب والسنّة)، شاملةٌ مستوعبةٌ لكلِ ما تقضي به سنّةُ الحياةِ من نُظمٍ وأحكام»(٦).

أيّ حظٍ سعيدٍ يَنعمُ به المسلمون وهم واجدون في كتابِ الله كمالَ العِلم وتمامَ المعرفة! حتى «ان نجاحَ الانسانِ في الوصولِ الى القمــر لا يَنبغي أن يُذهِشَ مُسلمًا اطّلع على ما في القرآن من آياتٍ محكمات»(٧). أخشى أن يُكثرَ، بعدَ خاتمِ النبيين، الانبياءُ المعصومون، فتكـــونُ قضيّتُنا مع المسلمين لا مع الاسلام، ومصيبتُنا بالقرآنيين لا بالقــرآن. انّ حزنَنا على العقلِ «يمشي على الخزف، جذورُه في مكانٍ، وهو في مكانٍ

---

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٤٤.
(٤) مصطفى جحا، محنة العقل في الاسلام، ص ٢٧١.
(٥) الشيخ حسن خالد، «آراء ومواقف»، ص ١٤٥، جريدة الانوار ٣/٦/١٩٧٣.
(٦) الشيخ محمد مهدى شمس الدين، العلمانية، بيروت ١٩٨٠، ص ٨٦.
(٧) الشيخ حسن خالد، آراء ومواقف، ص ٢٩١، نقلاً عن جريدة الجريدة،

آخر."[8] ، لا على القرآنِ الذى رتّبَ لزمانِه شرائعَ وقوانينَ أصْلَحَتْ ما كان فاسِدًا في مجتمعٍ هي له.

وقبلَ أن يضعَ مصطفى جحا القرآنَ "في المتحفِ مع المعلّقاتِ الجاهليةِ والشعرِ الذى لا يَتعدّى النظمَ والقافية."[9] ، ألمْ يرَ لحكمِه رادعًا عند الشيخِ الدكتور وهو يردّد "انّ مفهومَ "التقدّم" قرآنيٌ قديم وليسَ بالمستحدَثِ الجديد."[10] ، وقد رأى ذلك بأحسن تعبيرٍ في سورةِ المدّثر : "كلّا والقمرِ. والليلِ إذْ أدبرَ. والصبحِ اذا أسفرَ. إنّها لَإحدَى الكُبَرِ. نذيرًا للبَشَرِ. لِمَنْ شاءَ منكم أنْ يَتَقَدَّمَ أو يَتَأَخَّرَ."[11] .. فهل بعد ذلك من خيارٍ بين باحثٍ قلِقٍ على مصيرِ الانسانِ وبينَ مَن يُضفي على نبوّةِ الكتابِ نبوّةً أخرى! ؟

وما يَضيرُ الشيخَ ان تشوّقَ الى النبوّة! وفي الكتبِ المقدسةِ المنزلةِ دعوةٌ اليها : "تشوّقوا اذا، يا أخوتي، الى النبوّة."[12] . وعلى الجميع أن يـ"تشوّقوا الى المواهب، ولا سيّما موهبة النبوّة."[13] . وقد "قال الله : سيكون في الأيام الاخيرةِ فَيضٌ من روحي، أفيضُه على النــاسِ أجمعين، فيتنبأ بنوهم وبناتهم."[14] ... فلماذا مُنِعَتِ النبوّةُ عن كافّة الآدميين، في حين أنني سمعتُ "أتانَ بلعام" تتكلّمُ بعدما رأتْ ملاكَ اللهِ، وقد عرفتْ مقاصدَه، وعملتْ على خلاصِ صاحبِها من غضبِ الملاك وسيفِه المسعورِ الى الدماء[15] !

في موضوع الاسلام وغزو الفضاء" ٧/ ٨/ ١٩٦٩، بمناسبة وصول الانسان الى القمر.

(٨) مصطفى جحا، المرجع السابق، ص ١٠ .

(٩) المرجع نفسه، ص ٢٠٠ .

(١٠) الشيخ صبحي الصالح، الاسلام والمجتمع العصرى، ٢٦٦ـ٢٦٧ .

وما يضيرُ الناس ان اكتفوا من عالَمِ النبوّةِ والمعجزاتِ بمعجزةِ المحبّة وحسب ! فهل يغضبُ اللهُ إن جاهَدَ الناسُ في سبيلِ المحبّة، ولو كان ذلك على حسابه، وحسابِ جبريل والكتابِ والانبياءِ أجمعين! فَمَا شأنُ "المجاهِدين" لاجل الدفاعِ عن الله، و"المرابِطين" على حدودِه ليَمنعوا الناسَ عنه وعن دِيارِه المقدّسة! أصحيحٌ ما قاله سَماحَتُهُ : "لقد أصبحَ (الجهادُ) في الاسلامِ دفاعا عن العقيدةِ، وذبّا عن شريعتِها، وحمايةً لحياضِها وأوطانِها، وصيانةً لمقوّماتِها وطاقاتِها وقدراتِها"(١٦) !!؟؟؟ أيحتاجُ اللهُ العليُّ القديرُ الى مَن يدفعُ عنه وعن شريعتِهِ ودينِهِ الظلمَ والكفرَ والعدوان!

انّ المعجزةَ الكبرى هي في ان تصعدَ الى اللهِ عَبْرَ التاريخِ والكونِ والانسان، لا أن تنزلَ الى الارضِ من فوق من "الافقِ الاعلى" ومن "اللوحِ المحفوظ". قد ينيرُ اللهُ سبيلَكَ لتصلَ اليه، ولكنّكَ لم تقدرِ الاحاطةَ به، ومعرفةَ أسرارِه، وعلمَ مشيئتِه. بَدْءًا بالانسانِ تسيرُ على صراطِ اللهِ القويم، ونزولا من اللهِ تتعثّرُ خطاك نحوَ الانسان. ولكي تقوّمَ خطواتِك نحوه، بهذا النزولِ الغريب، لا بدّ من "الجهاد"، ويدعمُ الجهادَ عالَمٌ منَ المعجزاتِ يصونُه الادّعاءُ ويعانقُه الجنون ...

****

---

(١١) سورة المدّثر ٧٤/ ٣٢_٣٧.
(١٢) الرسالة الاولى الى اهل قورنتس ١٤/ ٣٩.
(١٣) الرسالة الاولى الى اهل قورنتس ١٤/ ١.
(١٤) أشعيا ٢/ ٢، اعمال الرسل ٢/ ١٧.
(١٥) سفر العدد، ٢٢/ ٢٢_٣٥.
(١٦) الشيخ حسن خالد، الشهيد في الاسلام، دار العلم للملايين بيروت ط٢ سنة ١٩٧٨، ص ٤١ ...

المصادر والمراجع

لم أثبت في هذا الباب الا الكتب التي لها علاقة مباشرة بالقرآن، بتاريخه ونشأته وحفظه وتدوينه ... أمّا ما له علاقة بالتفسير والعقيدة والاحكام والعلوم والقوانين فلم أذكر منها الا ما كان له صلة بموضوع البحث... وخشية التكرار لم أعد الى ذكر بعض الكتب الواردة في المقدّمة والكاملة التعريف ... ثمّ عمدت الى سرد المراجع بحسب حروف الابجدية لاسم الكاتب المشتهر به، ولم أحسب لكلمتي: ابن وابو، وأل التعريف حسابا في الترتيب . أهمّ المراجع هي :

١) الابياري، ابراهيم، تأريخ القرآن، دار الشروق بيروت سنة ١٩٦٤م .

٢) الاشيقر، محمّد علي، لمحات من تاريخ القرآن، مطبعة النعمان، كربلاء، بدون تاريخ .

٣) ابن أبي الاصبع، محمد، بديع القرآن، مكتبة النهضة بمصر، القاهرة، سنة ١٩٥٧م .

٤) الاصفهاني، الراغب، المفردات في غريب القرآن، اعداد محمّد احمد خلف الله، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة سنة ١٩٧٠م .

٥) الآصفي، علي محمّد، دراسات في القرآن الكريم، مكتبة النجاح، النجف، سنة ١٣٨٠هـ .

٦) الألوسي، محمود، روح المعاني، المطابع المنيرية القاهرة ١٣٤٥هـ .

٧) ابن الانبارى، البيان في غريب القرآن، دار الكاتب العربي، القاهرة، سنة ١٩٦٩م.

٨) ألباقلاني، القاضي أبو بكر، اعجاز القرآن، جزءان، بهامش كتاب الاتقان في علوم القرآن للسيوطي، المكتبة الثقافية بيروت ١٩٧٣م.

٩) ألببلاوى، محمد علي، التعريف بالنبي والقرآن الشريف، دار الكتب المصرية، القاهرة، سنة ١٩٢٧م.

١٠) ألبخارى، محمد بن اسماعيل، صحيح البخارى، ٩ أجزاء في ثلاثة مجلّدات، مطابع الشعب (بدون تاريخ)

١١) بدوى، أحمد أحمد، من بلاغة القرآن، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٠م.

١٢) ألبغدادى، الحسين، معالم التنزيل، مطبعة المنار، القاهرة ١٣٤٥هـ

١٣) بلاشير، القرآن، نزوله، تدوينه، ترجمته، وتأثيره، عرّبه رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٤م.

١٤) ألبنا، أحمد الدمياطي، اتحاف فضلاء البشر بالقراءات الاربع عشر، القاهرة، سنة ١٣٥٩هـ.

١٥) بن بني، مالك، الظاهرة القرآنية، مكتبة دار العروبة، القاهرة، سنة ١٩٥٨م.

١٦) ألبهي، الدكتور محمد، من مفاهيم القرآن في العقيدة والسلوك، دار الفكر، بيروت، سنة ١٩٧٣م.

١٧) ألبوطي، محمد سعيد، من روائع القرآن، ط ٢، مكتبة الفارابي، دمشق، سنة ١٩٧٠م.

١٨) ألبيضاوى، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، في مجموعة من التفاسير، ٦ مجلّدات، دار احياء التراث العربي، بيروت، سنة ١٣١٧هـ.

١٩) ألترمذى، ألجامع الصحيح، أو "سنن الترمذى"، مطبعة البابي،

القاهرة، سنة ١٩٣٧م .

٢٠) ألتستري، سهل، تفسير القرآن العظيم، مطبعة السعادة، القاهرة، سنة ١٩٠٨م .

٢١) ابن تيمية، أحمد، الاكليل في المتشابه والتنزيل، المطبعة العامة الشرقية، القاهرة، سنة ١٣٢٣هـ .

٢٢) أبن تيمية، أحمد، مقدمة في أصول التفسير، دار القرآن الكريم، الكويت (بدون تاريخ) .

٢٣) ألثعالبي، عبد الرحمن، ألجواهر الحسان في تفسير القرآن، ألجزائر، سنة ١٣٢٣هـ .

٢٤) ألجديلي، محمد، نظرات حديثة في التفسير، المكتب التجارى، بيروت، سنة ١٩٦٣م .

٢٥) ألجرجاني، عبد القاهر، دلائل الاعجاز، ط٢، مطبعة المنار، القاهرة، سنة ١٣٣١هـ . (نشر السيد محمد رشيد رضا) .

٢٦) جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي، قرآن كريم، تفسير الجلالين، مكتبة الملاح، دمشق، (بدون تاريخ)

٢٧) جملة مؤلفين، القرآن، نظرة عصرية جديدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، سنة ١٩٧٢م .

٢٨) جمال، أحمد محمد، مع المفسرين والكتاب، دار الكتاب العربي، القاهرة، سنة ١٩٥٤م .

٢٩) أبن جني، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية، القاهرة، سنة ١٣٨٦هـ .

٣٠) ألحداد، الاستاذ، القرآن والكتاب، جزءان، لا دار نشر، ولا تاريخ، في سلسلة "دروس قرآنية" .

٣١) ألحداد، الاستاذ، نظم القرآن والكتاب، الكتاب الأول: اعجاز القرآن، لا دار نشر، ولا تاريخ.
٣٢) حسين، محمد الخضر، بلاغة القرآن، المطبعة التعاونية، دمشق ١٩٧١م.
٣٣) أبوحيان الاندلسي، التفسير الكبير، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٨ هـ.
٣٤) أبن الخازن الشيخي، لباب التأويل في معاني التنزيل، في مجموعة من التفاسير، ٦ مجلدات، دار احياء التراث العربي، بيروت، سنة ١٣١٧ هـ.
٣٥) ألخطيب، عبد الكريم، اعجاز القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٩٦٤م.
٣٦) الخطيب، عبد الكريم، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة. بدون تاريخ.
٣٧) ابن الخطيب، محمد، أوضح التفاسير، ط ٦، المطبعة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٦٤م.
٣٨) خلف الله، محمد وسلام، ثلاث رسائل في اعجاز القرآن، دار المعارف بمصر، القاهرة، سنة ١٩٥٥م.
٣٩) ألخوئي، أبو القاسم، البيان في تفسير القرآن، ط ٢، مطبعة الآداب، النجف، سنة ١٩٦٦م.
٤٠) ألداني، أبو عمرو، المحكم في نقط المصاحف، مديرية احياء التراث القديم، دمشق، سنة ١٩٦٠م.
٤١) ألداني، المقنع في رسم القرآن الكريم (مخطوط) في الجامعة الاميركية ببيروت.

٤٢) الداني ، التيسير في القراءات السبع ، نشر وتحقيق "برتـزل" ، الاستانة، سنة ١٩٣٠م ، سلسلة المكتبة الاسلاميّة، ٢ .
٤٣) أبن أبي داود ، أبو بكر، كتاب المصاحف ، المطبعة الرحمانيّة، القاهرة، سنة ١٩٣٦م .
٤٤) درازه الدكتور محمد عبدالله، ألنبأ العظيم ، نظرات جديدة في القرآن، ط ٢، دار القلم، الكويت ، سنة ١٩٧٠م .
٤٥) دروزة، محمّد عزّة، القرآن المجيد ، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، بدون تاريخ .
٤٦) ألدومي ، أحمد عبد الجواد ، مبعوث الازهر الشريف بلبنان، الاسلام منهاج وسلوك، المكتبة العصرية صيدا بيروت ، بدون تاريخ .
٤٧) ألديب ، محمد السباعي ، البيان في اعجاز القرآن، مطبعة صبيح ، القاهرة، سنة ١٩٦٠م .
٤٨) ألذهبي ، محمد حسين، التفسير والمفسرون، دار الكتب الحديثة، القاهرة، سنة ١٩٦١م .
٤٩) ألرازى، فخر الدين، التفسير الكبير، أو مفاتيح الغيب ، المطبعة البهية المصرية، القاهرة، سنة ١٩٣٨م .
٥٠) الرافعي ، الدكتور مصطفى صادق ، اعجاز القرآن، والبلاغة النبويّة، ط ٩، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة ١٩٧٣م .
٥١) رضا، محمد رشيد ، تفسير المنار ، ط ٨ ، مطبعة المنار، القاهرة، سنة ١٣٤٦ هـ.
٥٢) ألزجاج ، اعراب القرآن، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية ، القاهرة، سنة ١٩٦٣م .
٥٣) أبي زرعة، الامام عبد الرحمن بن زنجلة، حجة القراءات ، تحقيق

سعيد الافغاني ، مؤسسة الرسالة، ط ٢، بيروت، ١٩٧٩م ٠
٥٤) ألزرقاني ، عبد العظيم ، مناهل العرفان ، مطبعة شبرا ، القاهرة، سنة ١٣٥٩ هـ٠
٥٥) ألزركشي ، محمد بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، ٤ أجزاء ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار احياء الكتب العربية، سنة ١٩٥٧م القاهرة ٠
٥٦) ألزمخشرى، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل ، مطبعة محمد مصطفى ، القاهرة، ١٣٥٤هـ (٤ جزء)
٥٧) ألزنجاني ، أبو عبد الله، تاريخ القرآن، ط ٣، مؤسسة الاعلمي ، بيروت سنة ١٩٦٩م ٠
٥٨) ألسجستاني ، غريب القرآن ، المطبعة الرحمانية، القاهرة، ١٣٤٢هـ٠
٥٩) أبو السعود ، ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم ، جزءان ، مطبعة بولاق القاهرة سنة ١٢٧٥ هـ٠
٦٠) السيورى، مقداد ، كنز العرفان في فقه القرآن ، تبريز، ١٣١٤هـ٠
٦١) ألسيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن، الاتقان في علوم القرآن ، جزءان في مجلّد واحد ، المكتبة الثقافية، بيروت ، سنة ١٩٧٣م ٠
٦٢) ألسيوطي ، المتوكلي فيما ورد في القرآن باللغة الحبشية والفارسية والهندية والتركية والزنجية والنبطية والقبطية والسريانية والعبرانية والبربرية، مكتبة القدسي والبديرء دمشق ، سنة ١٣٤٨ هـ٠
٦٣) ألسيوطي ، معترك الاقران في اعجاز القرآن، دار الفكر العربي ، القاهرة، سنة ١٩٦٩م ٠
٦٤) شاهين، عبد الصبور، تاريخ القرآن، دار الكاتب العربي ، القاهرة، سنة ١٩٦٦م ٠

٦٥) شحاتة، دكتور عبد الله محمود، تاريخ القرآن والتفسير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٧٢م .
٦٦) الشرباصي، أحمد، قصة التفسير، دار القلم القاهرة ١٩٦٢م . ودار الجيل بيروت، ط ٢، سنة ١٩٧٨م .
٦٧) الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٥م .
٦٨) شيخ أمين، الدكتور بكرى، التعبير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت سنة ١٩٧٣م .
٦٩) الصابوني، محمد علي، التبيان في علوم القرآن، دار الارشاد، بيروت سنة ١٩٧٠م .
٧٠) الصالح، الدكتور الشيخ صبحي، مباحث في علوم القرآن، ط ١١، دار العلم للملايين، بيروت، سنة ١٩٧٩م .
٧١) صبيح، محمد، بحث جديد عن القرآن، ط ٦، دار الثقافة العامة القاهرة، بدون تاريخ .
٧٢) الصعيدى، عبد المتعال، النظم الفني في القرآن، مكتبة الاداب، القاهرة، سنة ١٩٥٠م .
٧٣) الطبرسي، مجمع البيان، طهران، سنة ١٣١٤ هـ .
٧٤) الطبرى، جامع البيان في تفسير القرآن، المطبعة الاميرية القاهرة، سنة ١٣٢٣ هـ .
٧٥) الطوسي، أبو جعفر، التبيان في تفسير القرآن، المطبعة العلمية النجف، سنة ١٩٥٧م .
٧٦) الظافر، نصير الدين، حسن الايجاز في ابطال الاعجاز، المطبعة الانجليزية الاميركانية، القاهرة، بدون تاريخ .

٧٧) عبد الجبار، القاضي ، تنزيه القرآن عن المطاعن، المطبعة الجمالية، القاهرة، سنة ١٣٢٩ هـ.

٧٨) عبد الرحمن ، عائشة، التفسير البياني للقرآن، دار المعارف بمصر، القاهرة، سنة ١٩٦٢م .

٧٩) عبد الرحمن، عائشة، القرآن والتفسير العصرى، دار المعارف بمصر، القاهرة، سنة ١٩٧٠م .

٨٠) عبدو، محمد، تفسير جزء عم، مطبعة مصر، القاهرة، ١٣٤١ هـ.

٨١) أبو عبيدة، معمر بن المثنى ، مجاز القرآن، مكتبة الخانجي ،القاهرة، سنة ١٩٥٤م .

٨٢) ألعدوى، محمد مخلوف، عنوان البيان في علوم التبيان، مطبعة المعاهد، القاهرة، سنة ١٣٤٤ هـ.

٨٣) أبن العربي ، أحكام القرآن، مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٣١هـ.

٨٤) ألعزوزى، محمد العربي ، دليل مباحث علوم القرآن المجيد ، دار الانصاف بيروت ١٩٥٦م .

٨٥) ألعسكرى، الحسن، تفسير العسكرى، تبريز، سنة ١٣١٤ هـ.

٨٦) عطاء، عبد القادر، التفسير الصوفي للقرآن، دار الكتب الحديثة القاهرة سنة ١٩٦٩م .

٨٧) ألعطار، الدكتور داود ،موجز علوم القرآن ،مؤسسة الاعلمي للمطبوعات بيروت ، ط ٢، سنة ١٩٧٩م .

٨٨) ألعكبرى، املاء ما منّ به الرحمن من وجوه الاعراب والقراءات في جميع القرآن، المطبعة الميمنيّة، القاهرة، سنة ١٣٢١ هـ.

٨٩) ألعلوى، عبد الله، تفسير القرآن، طهران، سنة ١٣٥٢ هـ.

٩٠) ألغزالي ، جواهر القرآن، مطبعة محيي الدين الكردى القاهرة ،

سنة ١٣٢٩ هـ.

٩١) ألغزالي ، محمد ، نظرات في القرآن ، ط٣، دار الكتب الحديثة القاهرة، سنة ١٩٦٢م .

٩٢) جفري، آرثر، مقدمتان في علوم القرآن، مكتبة الخانجي القاهرة، سنة ١٩٧٢م .

٩٣) ألفرا، معاني القرآن ، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٥م .

٩٤) ألفيض الكاشاني ، الصافي في تفسير القرآن، المطبعة الاسلاميّة ، طهران، سنة ١٣٧٤ هـ.

٩٥) قبيسي ، الدكتور محمد ، تدوين القرآن الكريم ، الوثيقة الاولى في الاسلام، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١م .

٩٦) أبن قتيبة، تأويل مشكل القرآن ، دار احياء الكتب العربية القاهرة سنة ١٣٧٣ هـ.

٩٧) ابن قتيبة، تفسير غريب القرآن ، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق السيد أحمد صقر، سنة ١٩٧٨م .

٩٨) ألقرطبي ، الجامع لاحكام القرآن ، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٣٥م .

٩٩) ألقطان ، مناع ، مباحث في علوم القرآن ، الدار السعودية للنشر ، الرياض ، بدون تاريخ .

١٠٠) قطب ، سيّد ، التصوير الفني في القرآن ، دار الشروق ، بيروت . بدون تاريخ .

١٠١) قطب ، سيّد ، في ظلال القرآن ، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، سنة ١٩٥٣م .

١٠٢) القيسي ، قاسم محمد ، تاريخ التفسير ، المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، سنة ١٩٦٦م .

١٠٣) أبن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، المكتبة التجارية الكبرى القاهرة، ١٩٣٣م.
١٠٤) ابن قيم الجوزية، كتاب الفوائد المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٢٧ هـ.
١٠٥) ابن كثير، اسماعيل، تفسير الحافظ ابن كثير، مطبعة المنـــار، القاهرة، ١٣٤٣ هـ.
١٠٦) لاشين، دكتور عبد الفتاح، البديع في ضوء اساليب القرآن، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧٩م.
١٠٧) لاشين، المعاني في ضوء أساليب القرآن، ط ٣، سنة ١٩٧٨م.
١٠٨) لاشين، البيان في ضوء اساليب القرآن، سنة ١٩٧٧م.
١٠٩) ألمبرد، ما اتّفق لفظه واختلف معناه في القرآن المجيد، المطبعة السلفية القاهرة، سنة ١٣٥٠ هـ.
١١٠) مخلوف، دكتور عبد الرؤوف، الباقلاني وكتابه اعجاز القرآن، دراسة تحليلية نقدية، دار مكتبة الحياة، بيروت، سنة ١٩٧٨م.
١١١) مكّي، أبو محمد بن ابي طالب القيسي، العمدة في غريب القرآن، تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨١م
١١٢) ألنحاس، أبو جعفر، الناسخ والمنسوخ في القرآن، مطبعة السعادة القاهرة سنة ١٣٧٢ هـ.
١١٣) ألنسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، في مجموعة من التفاسير، ٦ مجلدات، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٣١٧ هـ.
١١٤) ألنمر، الدكتور عبد المنعم، علوم القرآن الكريم، دار الكتـــاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٩م.
١١٥) ألنيسابوري، غرائب القرآن وغرائب الفرقان، المطبعة الاميريـــة،

القاهرة، سنة ١٣٢٣ هـ.

١١٦) ألواحدى، علي ، أسباب النزول، موسسة الحلبي ، القاهرة ١٩٦٨م

١١٧) BLACHERE, Régis, Introduction au Coran; Ed. Besson et Chantemerle; Paris 1959.

١١٨) BLACHERE, Régis, Le Coran; Coll."Que sais-je?"; P.U.F.; Paris 1977.

١١٩) CASANOVA,P., Mohammed et la fin du monde; Paris, 1911-1913; 2 fasc.

١٢٠) ENCYCLOPEDIE DE L'ISLAM, Leyde, Plusieurs articles : Arab, Arabya, Kur'an, Madina , Meckke, Muhammad, Djazirat al-'Arab........

١٢١) NOLDEKE, SCHWALLY, BERGSTRASSER et PRETZL, Geschichte des Qorans, Leipzig, 1919-1938; 3 vol: I, Uber den Ursprung des Qorans; II, Die Sammlung des Qorans; III, Die Geschichte des Qorantexts.

****

مواضيع الكتاب

انتهى في ١٥ ربيع الثاني ١٤٠٢ هـ

